

مو يان

الثّور

رواية

ترجمة (عن الصينية) وتقديم: د. محسن فرجاني

الهيئة العامة لقصور الثقافة

مُويـان

الثـــور

ترجمة عن الصينية وتقديم:
د. محسن فرجانى

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• الثور
• ترجمة: د. محسن فرجاني
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2013 م
13,5 × 19,5 سم
• تصميم الغلاف:
أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ٢٠١٣/٧٣٠٢
• الترقيم الدولي: 978-977-718-305-5
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالي: 16 أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947891 (داخلي: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

112

سلسلة شهرية تعنى بنشر الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية فى الأدب والنقد والفكر من مختلف اللغات

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف في المقام الأول.

الثـــور

مقدمـة

لو كان صحيحا أن براعة الروائي الصيني **مُو يَان**- في المزج بين الواقعيـة السحرية، والحكايـات الغرائبيـة المعهـودة في الـتراث الـصيني القـديم- هي المسوّغ لحصوله على جائزة نوبل في الأدب، إذن لاستحقها معـه بالتـساوي عدد من أهم كتاب القصة في جيل ما يُعرف بـ"أدب البحث عـن الجـذور". وهؤلاء كثيرون جدًّا، منهم: ليو سـولا، شـو شـين، تـسان شـيو، جاهيـداوا، هونفن، يو هوا، سوتون، مايوان (قد يقترب هذا الأخير في نطقه مع مُـو يَـان، أديب نوبل!)؛ والأساس الإبداعي عندهم جميعًا يقـوم على فكـرة الانتـصار لطاقات الحياة البدائية، وكشف الجوهر العبـثي للإنـسان، تنديـداً بـضعفه وزيف ثقافته الحديثة. والكتابة الروائية عند الكثيرين منهم تجسد إحساسًا بعبث الوجود، لكن منابع إلهامهم لم تأت مباشرةً من نماذج غربية الطابع؛

صحيح أنهم استفادوا من الترجمات والمدارس النقدية في الغرب، لكنها استفادة دون نَقل! فلم تكن القصة- حتى في التراث الفكري، والأدبي الصيني القديم- محل احتفاء أو استحقاق لجدارة، وكثيرا ما اعتبرتها الكونفوشية مجرد هزل وثرثرة صبيانية (كذا- وبمنطوقها القديم والباقي حتى اليوم، في الصينية- "شياو شو"، أي: الكلام التافه، الحديث الفارغ). ولم يكن للكتابة الروائية أن تحتل مكانة معتبرة إلا بما اشتقت من مصادر أسطورية قديمة، بوصفها أقدم واقع سحري نهلت منه أجيال الكتابة في أوائل الثمانينات،حتى قبل أن تجري أقلام المترجمين بنقل نصوص غارثيا ماركيز؛ ذلك أن الساحة الأدبية كانت، منذ آخر السبعينيات، تبحث عن يقين ضاع منها إبان الثورة الثقافية.. لم يكن ثمة أساتذة (هذه المرة حقًّا وفعلاً.. دع عنك ما كان يقوله أستاذنا محمد حافظ رجب، تحت ظروف مختلفة، بشأن أجيالنا الأدبية في ستينات الأدب العربي بمصر)؛ فكانت العودة إلى الجذور الثقافية، حتى بمحتواها المتضمن لشرائح عريضة ممتدة من التراث الكونفوشي إلى الفولكلوريات الشعبية؛ فتشكلت ملامح يقين بالأسطورة منسجمة مع تقاليد باقية في المواريث، وكانت "الحداثة" هي الكلمة المفتاح في فهم اتجاهات الابداع، منذ أوائل القرن العشرين، أو هكذا قد يقال. ثم إن تاريخ الحداثة في الصين يبدأ أيضًا مع حد زمني قاطع بين زمن قديم انتهى وفات، وعصر جديد بدأ يشق طريقه إليها، فيما سمي بحركة الرابع من مايو 1919.

لكي نحدد موقع **مُو يَان** كروائي صيني متميز، ونقف على قيمة إبداعه،

فمن المفيد أن نستحضر أجواء المرحلة الأدبية التي ينتمي إليها، ونعيِّن صلتها بمجمل حلقات التطور في مسيرة الأدب الصيني المعاصر.

نستطيع أن نقول، بدرجة كبيرة من الثقة، مدعومةً بأسانيد متواترة في كثير من اتجاهات التأريخ الأدبي المعاصر، إن مسيرة الأدب الصيني المعاصر قد بدأت في الصين الأم مع تأسيس الجمهورية في عام 1949 (والمعاصَرة- في الأدب الصيني- جزء من اتجاه التحديث الأدبي الذي بدأ، كما أسلفت، مع مسيرة الحركة الوطنية المتطلعة إلى تأسيس "صين جديدة" في مايو 1919)، حيث تبدأ المرحلة الأولى من تاريخ الأدب المعاصر (أتكلم عن محتواه في الإبداع القصصي) مع أول الخمسينات، وتُعرف- في اصطلاح تاريخ النقد- باسم "**مرحلة السبعة عشر عاماً**"، وسيقترب فيها المبدعون من معالجة التناقضات الاجتماعية الكبرى، وتثمر محاولاتهم أعمالاً ناجحة، كرّست لهم وضعًا فريدًا في ساحة الكتابة الروائية؛ فعرف الناس كُتابًا مثل: رو جي جوان، لو ون فو، وانغ منغ (سيتولى وزارة الثقافة فيما بعد، ويؤسس لاتجاه تيار الوعي في الرواية الصينية، مطلع الثمانينات). في هذه المرحلة، ينجح الإبداع الروائي في أن يرصد التغيرات الحياتية السريعة، جنباً إلى جنب مظاهر الحياة النضالية للثورة الاشتراكية، وفصول رائعة من تجارب بلد في خضم تحولات بالعمل والبناء، دون أن يغيب عن باله تسجيل تناقضات البيئة الاجتماعية في حينها. وقد شهدت مرحة السبعة عشر عاماً فترتين تميزتا بالحيوية الشديدة:

- فترة ما قبل العام 1956، حيث سيكتب الروائي "جاو شو لي" عن أحوال الريف الصيني (قبل أن يولد "مُو يَان" بنحو أربعة أعوام)، ويقدم روائع القصة الصينية المعاصرة: "تدوين الاسماء"، "قصة أفسدها المونتاج"، "زوايا الحب المنسية"، "العم شوماو وبناته"، "أهل المعجزات ينزلون القرية"، "على هامش سيرة الغرام"، "تغييرات جبلية"؛ وكلها كانت تأخذ بمنحى واقعي، أسهمت في تعميقه كتابات مبدعين آخرين ساروا على نفس المنوال، مثل: "ما فنغ"، و"لي جون"، و"جوليبو".. فهؤلاء جميعا اتخذوا موضوعاتهم من قلب الريف الصيني. وبرغم ما حققوه من إنجازات رائعة، فقد كان يؤخذ على أعمالهم عجزها عن نحت صور بطولية في زمن شهد ملاحم أقدار ريفية، لم ير التاريخ الصيني مثيلها منذ زمان، مع ضعف في إبراز العالم الداخلي المعقد للشخصيات، وترهل في أساليب السرد.

- أما ثاني الفترات فيقصد بها بداية الستينات، حيث سادت أجواء استقرار عام، برغم الظروف الاقتصادية الصعبة، وتمكن السرد الروائي أن يلمح الواقع الموضوعي لمجتمع يحفل بتحولات ويموج بأحوال. وهنا سيبرز دور "قاو شياو شنغ" (الروائي العظيم الذي سيغفل ذكره طويلاً، دون أن ينكر دوره!)، حيث سيشترك- مع عدد من الكتاب، عام1957- في تأسيس مطبوعة "الاستقصائيون"، لكن يتم استبعادهم من الساحة الأدبية، على خلفية اتهام بأخطاء سياسية. وبعد عشرين عامًا، يعود قاوشياو شنغ، بقصة "العم شون يبني غرفة"، فتبرز براعته في رسم العالم النفسي لشخصياته،

وتصوير تقلباتهم، عبر أسلوب في الكتابة كان "يمزج حقًا بين أساليب الكتابة الروائية الصينية التقليدية، ومفاهيم الكتابة الحديثة" (قبل أن تصدر لجنة التحكيم السويدية قرار منح الجائزة لـ"مُو يَان"، بتقدير نفس القيمة، وبنصوص قريبة من أحكامها، رغم صدورها عن أقلام النقاد الصينيين، للكاتب "قاو شينغ شنغ" منذ نحو خمسين عاما تقريبا!)؛ حتى إن كتابات نقدية كانت تقدر له دورًا مساويًا لأولئك الذين خرج الأدب الصيني الحديث من جعبتهم، مثل "لو شون" و"جاوشولي".

على مدى مرحلة السبعة عشر عامًا، بلغ الإنتاج القصصي زهاء ثلاثمائة رواية، ثم تلتها المرحلة الثانية التي تبدأ في عام 1966 وتستمر نحو عشر سنوات، هي كل الفترة التي استغرقتها سنوات ماسمي بـ"**الثورة الثقافية الكبرى**"، وهي الفترة التي انتُقصت قيمة إسهامها في مواصلة تقاليد الكتابة الجديدة، وتطوير سمات إبداعية جرى اكتشافها في المرحلة السابقة، بل وُصمت بأنها.. "أصابت التصورات الأدبية بالجمود والانغلاق، واتخذت موقفا مناقضاً من ضرورة تطوير الطابع الجمالي للتنوع الأدبي وفهم دواعيه، بل عملت على تسييس الأدب، بصورة متزايدة، عبر رؤى انغلاقية أحادية راحت تفرض على الإبداع (اقرأ: الروائي) مطالبها السطحية، إيعازًا باصطناع أدوار ووظائف سياسية، مما باعد بينها وبين مفاهيم المسعى الثقافي الذي اضطلعت بأعبائه وعملت تحت رايته، فأفرغت الأدب من مضمونه لصالح تعبئة ايديولجية، وسلبته وجوده المستقل وتفرده وخصوصية طابعه، حتى صار بعضًا من سياسة "أدبية" أو أدب "سياسي".. ذلك هو ما آلت إليه

ولأنه لا يمكن تقييم آثار الثورة الثقافية بموضوعية كاملة، حتى اليوم، فلا يمكن الوقوف عند جانب واحد من تقدير أحوال الكتابة الروائية في زمانها؛ فهناك أيضا (وعن نفس المصدر الذي أنقل للقارئ جانبا من نتائج أبحاثه..نصًا حرفيًا) رأي آخر يناظر قائلاً.. "إن اللون السياسي البارز كان إحدى السمات الفائقة التي اتضحت في ملامح الكتابة الأدبية؛ ذلك أن انتصار الثورة الشعبية هو الذي حشد المبدعين صوب تجمُّع أدبي التأمت به أهدافهم، واتضحت عنده رؤاهم، ونضجت في خضمه أحاسيسهم بالمسئولية الاجتماعية، وتلك نقلة تقدمية بالتأكيد. وأمام تجربة انتصار تاريخي وواقع اجتماعي جديد، انبعثت طاقات الحماس السياسي لدى الكتاب، فمضوا مدفوعين بإرادة الواجب الطوعي لاستقصاء ملامح الحياة الاجتماعية، من وجهة سياسية شابة ومنتصرة، حتى أن عددًا من المبدعين القدامى ألقى جانبًا بمساره الفكري لينخرط ضمن حياة مختلفة وجماهير جديدة، وتجربة حياة بطولية واعدة، بمداخل إبداع لا حدود لها. وكان زخم الحركة السياسية الاجتماعية- بواقعها الهائل- يلهم غير قليل من الأقلام المبدعة؛ حتى خاضت تجربة الكتابة في موضوعات ذات طابع سياسي، التحامًا بوسائل وأغراض التعبير عن أحوال التغيير الكبرى السائرة قدمًا"*.

---

* **Dang dai zhong guo wen xue gai gaun** "الأدب الصيني المعاصر" (بالصينية)، جانغ تشون وآخرون، عن Beijing chu ban she ، بكين:

المرحلة الثالثة والأخيرة- في تاريخ الأدب الصيني- بدأت عام 1979، ويطلق عليها اصطلاحاً "**الفترة الأدبية الجديدة**"، وهي التي ستشهد ظهور مُو يَان ضمن أجيال شابة. وكانت اضطرابات السنوات العشر السابقة- إبان الثورة الثقافية- قد شكلت اتجاهًا داعيًا للخلاص الفكري، وتبلورت عوامل تدفع نحو تبديل ملامح الإبداع القصصي، منها: انقلاب البناء الاجتماعي، اختلاف الحالة الذهنية والنفسية عند الناس، ظهور تيارات فكرية جديدة، بروز اتجاهات جديدة على مختلف الأصعدة؛ أهمها- في الكتابة الروائية- هو التحول من القالب السياسي إلى الاجتماعي، من الوعظي الأحادي إلى الجمالي المتنوع، من النمط الأساسي القاعدي إلى الخلق الإبداعي المستقل؛ مما أتاح لـ"**الفترة الجديدة**"- بتياراتها في التحرر الفكري والتغيير الاجتماعي- أن تحدث انطلاقة أدبية تحررية، هيأت الظروف لخلق بيئة مواتية لإبداع متجدد؛ فتشكلت عدة تيارات في الإبداع الروائي، توالى ظهورها من نهاية السبعينيات حتى منتصف الثمانينات تقريبًا، منها: "**أدب الجراح**"، "**أدب المراجعة**"، "**أدب الإصلاح**"، "**أدب البحث عن الجذور**". كان "**أدب الجراح**" مع "**المراجعة**" قد "**اقتحما كلاهما المنطقة المحرمة في الموضوعات الأدبية، وعملا على تكسير القالب الفكري القديم**" (هنا، لاحظ جيداً أنها بداية العودة- قُل الدعوة مجدداً- إلى تقاليد الكتابة الأدبية التي دعت إليها حركة الرابع من مايو 1919.. فقد كانت تلك هي

1986، ص 3.

أهـدافها بعينهـا، وإن اختلـف الـزمن والظـروف!)، وظهـرت أجيـال مـن المبدعين- الشبان على الأكثر- انتقلت بوجهة الإبداع من الاهتمام بـالأطر الخارجية للحياة الاجتماعية (يعـني كتابـة التـدفق الحيـاتي ذاتـه، وملامـح سيرورته، ومدى ارتبـاط وجـود الشخـصيات بالحركـة والمـسار وضرورات الأحداث) إلى كتابة مظاهر الحياة عبر تشكلها بشروط أحوالها الداخليـة، في أجوائها وبدلالاتها المتفردة (أي تعيين مسار أقدارها، ومدى ارتباط مـصير الفرد بمجتمعه، حيث انتقلت بؤرة الاهتمام من المجتمع إلى الإنسان الفرد).

وقد اختلف جيل الفترة الجديدة تمامًا عـن جيـل الخمـسينيات، إذ لـم تكن بداية الطريق أمامه نحو الأدب، تفرض الامتثال لقالب أدبي؛ ذلـك أن ما قدمته حركة التاريخ من محتويات غنية في واقعهـا وتطورهـا، مـع أوائـل الثمانينات في الصين، منحت أدب الفترة الجديدة جوانب متعددة من الوعي بواقع مختلف يفرض المراجعة والتـصحيح، ويلمـح اتجاهـات تطـور الحيـاة الاجتماعية، ويدفع- من ثم- لإحداث نقلة في الوعي الجمالي، فاتسعت رؤية المبدعين تجاه عالم بأسره. قل إنه انقـلاب تجديـدي إذن، لكـن في سـاحة الابداع الأدبي بخاصة، وتحديدًا في منطقة الكتابة الروائية. صحيحٌ أن بعضًا من موضوعات القصة بقي متشبثًا بالقالب والشخـصيات والمـنحى القـديم، لكن الاتجاه الرئيسي والسمات الأساسية كانت لصالح حـساسية جديـدة، وخصوصًا في الكتابة القصصية القصيرة التي اكتسبت- بأساليبها الفنيـة- وجودًا أكثر وضوحًا وثراءً من الرواية، في الفترة مـن 1979 إلى 1985. وكان "وانغ منغ"، و"رو جي جـوان" يـشقان النهـر الأدبي بموجـة جماليـة جديـدة،

مغايرة لتيار أدب الجراح والمراجعة، فأدخلا التجريب في الخيال والرمزية والكوميديا السوداء، بإضافة "تيار الوعي" إلى أساليب الكتابة الصينية. ثم تدفقت وراءهما موجةٌ أكثر عنفوانًا منحت سلطة التقييم الأدبي كاملة للقارئ. وكان المحك في جدية هذا المنحى يأتي مباشرةً- وعبر أشياء كثيرة- من تلك الكتابات التي استلهمت **مشاهد الريف الصيني الحديث**، والمدن العمرانية والجامعات والمصانع، أي باختصار، كل المواقع التي تبرز ملامح الحداثة (مرةً أخرى..استلهامًا لمبادئ حركة التحديث "الرابع من مايو").

لكن، لنا هنا ملحوظة مهمة للغاية- وعلى مسئولية كاتب هذه الكلمات، ليس غير- وهي أن التجريب- في تيار الوعي، على يد وانغ منغ وآخرين غيره، شأنه شأن غيره من اتجاهات نقدية وتيارات فكرية مأخوذة من مصادر غير صينية- كانت (وفقط) في سطحها القشري محل استفادة، كمعطًى شكلي، باعتبارها رافعةً لعناصر تجديد صينية في روحها وجذورها؛ فقد ساد تيار الوعي بطابعه الشكلي وسماته المظهرية دون فحواه الفلسفية، إذ تمت معالجته وفق مزاج صيني تقليدي. لذا، فقد أطلقت عليه مدارس النقد الأدبي "تيار الوعي الشرقي" (هذه، ليست من عنديات كاتب المقدمة)، وكانت تسمي قصص وانغ منغ، وروايات (الكاتبة) تسونغ بو بـ"تيار الوعي الصيني"، باعتبار أن الكتابة هنا كانت تستلهم مذاقًا محليًا يستبعد العبث من طياته. كانت موجة الرواية تضم أسماء: ليو سولا، شو شين، تسان شيو، **مُو يَان**، هونفن، يو هوا، سو تون، كا يفي؛ وكلهم يمثلون الحداثة، ذات الطابع

الصيني (كذا يقال)، ولو أن كتاباتهم- سواء في اتجاه موضوعاتها، أو أدواتها السردية، أو أساليبها الفنية- بعيدةُ المدى عن الطابع الجوهري لأدب الحداثة. وربما مع بدء دخول مفاهيم جديدة إلى ساحة النقد، مع حركة الترجمة النشطة والمتزايدة، ظهر تأثير عاجل لآثار ما بعد الحداثة، عبر نصوص مترجمة؛ فتشكَّل، بالتوازي، اتجاه أدبي (وفلسفي) يبحث عن قيمة ومعنى حياة الانسان من وجوده الذاتي. ولما كانت أجواء الكتابة- فيما بعد الثورة الثقافية- يسيطر عليها مسعى البحث عن الحقائق وسط غابات اللامعقول، حيث الأجيال بلا أب أو أساتذة أو حبل أمومي سُري يربطها بالتاريخ والتقاليد الثقافية، ولم يكن ثمة بيت عائلة صيني يرجعون إليه، فقد اضطُرت جحافل المبدعين الشبان إلى الهرب بعيدًا في أغوار الماضي السحيق (على المستوى النفسي)، أو زوايا اقتراب مباشر من غرائبيات الفولكلور، أو حتى لدى مساقط الأنهار، والقرى البعيدة والتلال، بحثا عن علائق تربطهم **بجذور** حياة.

وبالتالي، فقد اتضحت ملامح موجة أدبية جديدة في عام 1985، بدت غريبة على أجواء الكتابة الروائية، أطلق عليها "**الموجة الجديدة**" غمرت الساحة، وشكلت اتجاهًا جماليًّا مختلفًا عن الواقعية التقليدية، ذلك هو "**أدب البحث عن الجذور**"، كان من روادها: هان شاوكون، آ تشنغ، جنغ وانلون، ليو سولان، **مُو يَان**؛ حيث شقوا لأنفسهم مرحلة مختلفة في الوعي الجمالي الروائي، تنأى عن الوضوح والخط السردي الواحد، وأهملت القالب الروائي المكثَّف المكتمل الأركان، فأخذت بنصيب وافر من الدلالة الفلسفية

الحديثة، وبنصيب أعظم من التلوين الأسطوري، استقصاءً للاوعي الضمير الجمعي وأعماقه غير العقلانية (تأثير الاتجاهات السيكولوجية ملحوظٌ بقوة)، في منحى يكاد يتناقض مع منظومة الإبداع القصصي عموماً.

وراح أحد مجالات "**البحث عن الجذور**" يتخذ موضوعاته من الحياة البدائية، بينما انصب اتجاه آخر على الاهتمام بتيمات الكتابة عن القوميات الصينية، وقبائل الأحراش والمراعي وقوافل الخيول؛ وأبرز الأعمال في هذا المجال، رواية "رومانسية ملء الأرض والسماء" للكاتب آتشنغ. أما السمة الأخرى لهذا الاتجاه، فتتمثل في اتخاذ موضوعاته من التراث الصيني القديم، بما فيه المأثور الشعبي، بما تضافر معه من مواريث التقاليد الكونفوشية والطاوية. وكانت قصص هذا الجيل تجسد في معظمها إحساسًا بعبثية الوجود، لكنها كانت تختلف عما يقابلها في الغرب؛ إذ كان الكتاب الصينيون يحاولون التمرد على ما يعترض طرقهم الخاصة في التعبير عن ذواتهم.. فمن ثم، كانت محاولتهم الدائبة في استكشاف أشكال جديدة للسرد، تقوم على تنوع أساليب الحكي. وهكذا، نجد عند مُو يَان وهونفن ويو هوا، وسو تون، وكايفي- وكلهم يشكلون اتجاه ما بعد الحداثة- سمات تتجاوز المنحى الحداثي، خصوصاً وقد تحول مرتكز الكتابة عندهم من "ماذا نكتب؟" إلى "كيف نكتب؟"، حيث وضعوا القَصَّ فوق القصة، في انقلاب جذري على أساليب ورؤى الإبداع الروائي الصيني. وحسب تعبير إحدى القراءات النقدية المعتبرة لإنتاجهم.. "فإن ذلك قد يمثل نقلة نوعية في الوعي بنمط جديد في الكتابة، ولو أن خلخلة الحدث الحياتي قد أضعفت دلالة الواقع الاجتماعي

في الرواية، وهو ما أتاح لإنجاز الحداثة ومابعدها أن يسهم في تحطيم جمود القالب الأدبي؛ ليفسح الطريق أمام طاقات الكتابة، ويضيف مدداً لمجموع السمات اللغوية والحس الروائي".

وقد تأثرت عبثية هذا الجيل من الكتاب بفلسفة الحياة عند برغسون، وتحليلات فرويد؛ وأبرز مَن يمثلون هذا التأثر اثنان: هونفن، ومُو يَان؛ علماً بأن الأساس في إبداعهم يقوم، في بعضه، على فكرة الانتصار لطاقةالحياة البدائية (الليبيدية)، وكشف الجوهر العبثي للإنسان.

بهذه الخلفية دخل مُو يَان إلى الساحة الأدبية، لأول مرة، عام 1981 عندما نشرت له مجلة "lian Chi" قصة بعنوان "قطرات مطر في ليلة ربيعية"، وكان وقتها يقضي مدة الخدمة العسكرية بمدينة باوآن بمقاطعة "هيبي". قبل ذلك بعدة سنوات، كان قد كتب عدة مسودات لقصص قصيرة، وأرسلها إلى مطبوعات أدبية مختلفة، لكنها لم تنشر. ولطالما كان يؤرقه الحنين إلى قريته "كاومي"، بإقليم شاندونغ شمال شرق الصين (حيث ولد في 1955)، وذلك على الرغم من سنوات طفولته البائسة، في أجواء فقيرة لم تتح له سوى القليل من فرص التعلم والقراءة؛ حتى إذا فرغ من قراءة أعداد الكتب الضئيلة، لم يجد إلا قاموس "شينهوا"، فأخذ يطالعه مرارًا ويحفظ بعض مواده! ضاقت سبل العيش به حتى عمل أجيراً في مصنع للزيوت، وهو شاب في الثامنة عشر من عمره (ضائقته لن تنتهي حتى بعد حصوله على المكافأة النقدية لجائزة نوبل؛ إذ لن تسمح له إلا بشراء ما لا يزيد عن مائة وعشرين

مترًا فقط من أرض بناء لا تكاد تكفي مساحة ڤيلـلا كان يحلـم بهـا!). عمل لفترة في رئاسة أركان جيش التحرير الشعبي (قسم التوجيه السياسي)، والتحق- في 1984-بالقسم الأدبي بكلية الفنون الجميلة التابعة للجـيش الصيني؛ وفي 1985، نشر روايته "الفجل الأحمر"، ثم انتهى من روايـة "الذرة الرفيعة الحمراء" في 1986، لكن كتابة الرواية كانت تتطلب وعيًا واطلاعًا مدروساً؛ فبادر إلى مواصـلة دراسـاته التكميليـة، ملتحقـاً بمعهـد لوشـون للدراسات الأدبية في 1989. وفي تلك الـسنة نفـسها، كانـت مجلـة "رنمـين ونشيو" (أدب الشعب) قد أجرت استطلاعًا بين القراء حول معـدل القـراءة التي يحظى بها الأدباء الشبان، ففاز بالمركز الأول، باعتباره "الكاتب الحاصل على أكبر نسبة قراءة". لم يتخـل عـن أملـه في فرصـة تعلـيم راق، وواصـل دراساته العليا في جامعـة "شـيفان" ببكـين (إحـدى المؤسـسات التعليميـة المرموقة حينئذ).

كان لوشون، عميد الأدب الصيني الحديث، يقول في دراسة مهمة له عـن تاريخ القصة الصينية، إن أهم ملمحين يلفتان نظر الدارس المدقق في أحوال الرواية الصينية، على مرِّ التـاريخ، همـا: 1- "النكـوص".. أي تـشبث مـسار الإبداع بنمط أو مثال أو أسلوب قصصي انتهى زمنه، 2- "الدمج"، فأنت تجد لونًا من الكتابة القصصية قد عفا عليه الزمن، لكنه يعـاود الظهـور، تحـت قناع مختلف، بل يوجد لنفسه طرائـق خاصـة يتخلـل بهـا نـسيج الكتابـة القائمة، ويندمج في طياتها، منسجمًا مع ذائقة العـصر الجماليـة.. شيءٌ مـن هذا، تقريبًا، نلحظه في رؤية مُو يَان للاتجاه التاريخي في الرواية (خصوصا في

كتابات جيل "**البحث عن الجذور**"، وهو يعيد كتابة فصول منسية من تاريخ قديم، بحسبانه جذرًا ملهمًا لاستقصاء الحقائق)، حيث يعتبر أن القصة التاريخية الجديدة ليست نفياً لتراث القصة الثورية- كما عهدناها في المراحل السابقة- بل هي استمرار طبيعي لها، مؤكداً أن إبداعاته الأولى قد تأثرت بالقصة الثورية؛ ذلك أن قصة "القنبيط المر" للكاتب "فنغ ديين" Feng De ying تركت آثاراً عميقة في كتابته لرواية "الذرة الرفيعة الحمراء". فبعد قراءته لها في شبابه، أحس أن وصفها للحب واقعي جداً ووحشي أيضًا للغاية. فلما قرأها ثانيةً، تأكد من أن هذه الكتابة لا يبدعها إلا عبقري رواية؛ وأضاف أن جوانب من وصف مشاهد الحرب- في روايته المشار إليها- تكاد تتماثل مع أسلوب قصة "القنبيط المر" في كثير من فصولها؛ وهي رواية ثورية بمعنى الكلمة. ومع ذلك، فقد وجد في الكثير من وقائعها عناصر تقبل الاندماج في أسلوبه الإبداعي.

"مُو يَان" جزءٌ- بإبداعه وعبقريته- من مرحلة أدبية تعرف بـ"المعاصرة" (ولو أني أجد من بين الدراسات، تحت يدي، رسالة دكتوراه (بالصينية) غير منشورة، يؤكد فيها الباحث الصيني المجتهد خطل الرأي القائل بـ"المعاصرة"، على نحو مطلق، في اصطلاحات النقد الأدبي. "فالمعاصرة فكرة أدبية نقدية تلاحق خطوات الحياة، وليست مجرد توصيف جاهز لمرحلة ضمن تاريخ أدبي؛ فلكل زمن تعريفه المحدد والخاص لأدبه المعاصر"؛ تلك ليست صفة مطلقة بل مرهونة، يعني، بخصائص موقعية في زمن معلوم، ولمنطقة ثقافية محددة).. ما علينا لو قلنا إن مُو يَان- بأي معنى- أحد

أبناء جيل له سماته المشتركة وموقعه وتاريخه؛ فالفكرة أن الكثير من الدوائر النقدية "غير الناضجة"، بحق، وللغرابة، قد رأت في استفادة كاتب صيني من عنصر جمالي عالـمي مجـرد نقـل تـام لبـضاعة جـاهزة ومعتـبرة؛ فالذهنيـة الإبداعية عند مُو يَان أروع كثيرًا من إيحاءات الفهم حسب هـذا التقيـيم. فإبداعه يملك ملامح وسمات متفردة بشكل واضح. وهو إذ يحـاول مـثلاً أن يجرب تقليد كاتب من أمريكا اللاتينية، متـأثرًا بكتابـة "سـحرية"، فهـو يلجأ- على غير وعي أحيانًا- إلى النهل من معين الحكايات الـشعبية، وتـبقى "الـسمة الـسحرية" بالنـسبة له، رغـم أي شيء، مفهومًـا غريبًـا يـستوجب الاطلاع الدراسي بهدف التعرُّف والتعريـف، لا أكـثر. ولمـا كان عـدد مـن الكتاب البارزين ينضوون تحت هذا اللون مـن الكتابـة، المتـأثرة بمـصادر شعبية، فقد حرص مُو يَان على تأكيد انتمائه إلى كتلة إبداعية يعرف، تمامًا وبوعي شديد، موقعه ضمن حدودها.

في عالم مُو يَان الروائي، فإن الخلفية، والحدث، وفصول الكتابـة، وطبـائع الشخصيات، والتعيين الوصفي للبيئة، كل ذلك يتحول إلى سيرورة اسـتجابة عفوية لأحاسيس ذاتية. والفرق بينه وبين باقي الكتاب يتمثل في عدم وقوفه طويلاً أمام جذوره الثقافية القديمة يتأملها بلا نهاية، حرصًا على اكتـشاف ونشر وتعميم طاقة الحياة المستمدة من الجدود الأقدمين. لذلـك، فهـو يجعـل من تاريخ حياة الذين مضوا- منذ زمان بعيد- لحظة بينية تنقضي سريعًـا في حاضر مَن يتناولهم السرد؛ مما يخلق تـوترًا حـادا بـين الشخـصية في القـصة والراوي في الحكايـة؛ ومـن ثـم، فـالوعي يمثـل جـسر انتقـال، عـبر الرؤيـة

السحرية، بين الموتى والأحياء، بين الأولاد المعاقين والأبطال الراحلين؛ فيتخلَّق عالم رابط بين نقيضين.. ومثلاً، ففي رواية "الذرة الرفيعة الحمراء"، لا يسعى الكاتب إلى حكاية وقائع الحرب التاريخية، بل يحكي آماله وسط الفراغات البينية التي تخلفها حوارات الفلاحين.

قيل إن لقب "مُو يَان" يعني الزجر بالصمت، امتثالاً لفضيلة استحسان السكوت، في "زمن المتاعب الجاهزة لمن يتكلمون". وأظن أن الزجر يرجع إلى تلك الفكرة القديمة عن صناع القصة القصيرة، بأنهم ثرثارون بما لا يفيد؛ فالكتابة أوقع، والرواية أبقى؛ ولئن كان لقبه- بهذا المعنى- يفيد احتفاءه بكتابة الرواية، فإن أحدًا لم يقل لنا ماذا يعني اسمه الأصلي.."كوان مو يا"!

ذلك عن **الكاتب، والأجيال**، والزمان، ولمحة **إلى الأدب الصيني الحديث**، فماذا عن الترجمة؟

بأمانة، أقول إننا، دارسي الثقافة واللغة الصينية من الباحثين العرب، مقصرون في ترجمة الأدب الصيني الحديث. ولن ألتمس غفرانًا من ثنايا التعلاَّت. لكني بجد ألمح إلى أن الثقافة الصينية وآدابها، بقديمها الباقي وجديدها الطامح، أضخم وأصعب من أن يضطلع بترجمة آثارها (قُل الأدبية فقط) عددٌ لا يتجاوز بضعة الدارسين القريبين من فهم اللغة والخصائص الثقافية؛ حتى لقد أشرت- وأعود للتأكيد- على أهمية الاعتداد بالترجمات التي تتم عبر لغات وسيطة، بل تشجيعها ودعمها كلما أمكن. وإليك مثلاً، وبصدد ما نحن فيه، تلك الإحصائية التي تشير إلى أن مجموع ما صدر في

الإنتاج الروائي الصيني المعاصر، منذ نهاية الثورة الثقافية حتى أوائل الفترة الجديدة، أي في المدة من 1976 إلى 1985 بلغ نحو ألف رواية، مقابل ما نُشر طوال زمن الثورة الثقافية ومجموعه نحو ثلاثمائة رواية، في حين كان العدد- منذ تأسيس الجمهورية حتى عام 1959- لا يزيد كثيرًا عن اثنتين وثلاثين رواية. أتظن أن ستة أو سبعة مترجمين، على الأكثر، ممن يعرفون لغة الأصل بطول العالم العربي وعرضه، يقدرون على الوفاء بترجمة أهم خلاصة من هذا الرصيد، مما قد لا يقل عن ثمانين رواية، بالتقريب؟ هذا في حين أن عملاً إبداعيًّا واحدًا قد يستغرق سنوات من المترجم الواحد.

أعي ما أقول جيداً، بالرغم مما هو معهود (ومفهوم) فيما يعتور النقل عن لغات وسيطة؛ وهذا واحد من أشهر مترجمي مُو يَان في الانكليزية Howard Goldblat ، وهو، أيضًا، أحد خبراء الدراسات الصينية المرموقين، يجيد الصينية كأهلها، بحكم أنه قضى سنوات من الخدمة العسكرية في تايوان، بالإضافة إلى دراسته الجامعية المتخصصة، بل معرفته الشخصية بالكاتب مُو يَان وصداقته الطويلة له؛ ومع ذلك، فهو عندما يترجم رائعته "الذرة الرفيعة الحمراء" إلى الانكليزية، يسمح لنفسه- متذرعاً بمفاهيم متداولة حديثًا في نظريات الترجمة المعاصرة- بأن يلحق بالنص المصدر تغييرات تلائم سياسات نشر ومزاج قارئ وشروط مقروئية قائمة في ثقافة المتلقي الأمريكي، دون الاعتداد كثيرًا بما قد يلحق الأصل من تشوهات (كذا)، حتى إنه حذف كثيرًا مما كان يرد من ذكر لألفاظ وتسميات تتعلق بالحزب الشيوعي الصيني، متعللاً بضيق صدر القارئ الأمريكي من

ذكر "تلك الأشياء"!!.. ويلجأ- في مثال آخر- إلى تعديل سن إحدى الفتيات، من الشخصيات الرئيسية في الرواية، إلى خمسة عشر عاماً بدلاً من ثلاثة عشر؛ بزعم إنه قد حسب عمرها بالنسبة إلى عمر ابنتها، طبقًا لما ورد في النص الأصلي، فوجد أنه من الأوفق تعديل السن، تصحيحاً لسقطة حسابية وقع فيها الكاتب الصيني، تجعل الأم حاملاً في سن أصغر كثيرًا من المعقول(!!)

لستُ- بالأساس أو بالتخصص- دارساً للأدب الصيني (أو أي أدب آخر..معذرة!)، فلستُ إلا باحثًا لغويًّا، أحاول التخصص في مجال التراث الصيني القديم، ولم يكن لي أن أخوض بقلمي في مجال لا أملك فهم قواعده ومنهاجه وخصائص موضوعاته؛ فأعتذر لقارئي في ترجمات التراث الصيني، وأرجو أن يتفضل متسامحًا كريما بتقدير ظرف لم يكن فيه ثمة مفر من ضرورة التعريف بكاتب، كان- حتى وقت قريب- غير معروف، حتى لمعظم قرائه الصينيين؛ على أن أعود، لاحقًا، إلى مواصلة ترجمة المصادر التراثية الأساسية في الحضارة الصينية.

وعلى كل حال، فقد اخترتُ أن أقدم للقارئ، في اللغة العربية؛ ومن بين الأعمال الروائية لـ مُو يَان، رواية "الثور". ولأسباب كثيرة، كانت هذه الرواية تفرض نفسها في ظروف كانت تتطلب تقديم مُو يَان إلى القارئ العربي، من لغة المصدر مباشرةً، وفي توقيت معاصر أو تال مباشرةً لحصول الكاتب على نوبل في الأدب لعام 2012. ومن ثم، كان هذا النص الروائي أقرب الأعمال

الابداعية تلبية لهذا التصور؛ هذا فضلاً عن أنه نموذج سردي ينسجم تماماً مع خصائص الكتابة كما عرفناها في معظم إبداعات جيل "الفترة الجديدة"؛ ولو أن جانباً من سمات "أدب الجراح" يتجلى بوضوح في ذلك التنديد الصارخ بأجواء المحنة العاصفة التي هزت المجتمع الصيني في ظل الثورة الثقافية. (وهنا، فربما كان من الضروري الإشارة إلى أن تقييماً عادلاً لآثار "الثورة الثقافية الكبري" التي شهدتها الصين، منذ منتصف الستينات حتى منتصف السبعينات، سيبقى رهن المستقبل لفترة طويلة؛ فلم يكن هناك، حتى الآن، إلا وجهات نظر، وأحكام مبتسرة، ومواقف مطلقة تمتثل لضرورات عملية تراها الصين محققة لآمالها في التطور؛ لكن، وبرغم التقييم السلبي المعهود لأثار الثورة الثقافية، فقد كانت تلك الثورة، في زمانها، أملاً يصبو إلى التحول من المرحلة الاشتراكية إلى الشيوعية، في محاولة لتقليل فجوة التفاوتات، بين حجم الإمكانات السياسية والاقتصادية والثقافية، باعتبارها تناقضات تستوجب الحل الحاسم عبر الحملات السياسية والنضال الشاق، لتمكين الجماهير من السيطرة على مقدرات حياتها. وربما كانت تلك الفترة، برغم كل ما يُشاع، هي التي أتاحت ظروف تحول ثوري أشبه بالمعجزات.. فقد تحققت للمرأة الصينية مكانتها باعتبارها "نصف الأرض والسماء"، بعد عهود من العبودية، وأتيح لملايين الفلاحين الفقراء الالتحاق بمراحل التعليم فوق المتوسط والجامعي..إلخ). لكن الروائي يكتب، هنا، تاريخاً نفسيا لمحنة قرويين يضطرون إلى التجول طوال النهار والليل بثور أجريت له عملية إخصاء، تحت ضغط موارد شحيحة لا

تكفي لتلبية احتياجات مزارع المواشي. وتتفاقم الأوضاع سوءًا مع إصابة الثور بمرض مُعدٍ، حتى تطال المحنة عدداً هائلا من القرويين في ذروة المشهد القصصي. فالنص يصور أجواء محنة، في وقت شهد ندرة موارد العيش، لكن مورد الكتابة لم ينقطع، وبقيت الكلمة أهم عنصر في تسجيل أسطورة البقاء. وكان مُو يَان قد أشار، عرضاً، إلى هذا النص في ثنايا حديثه أمام الأكاديمية السويدية خلال حفل استلام الجائزة، حيث قال: "كنت أفهم ما اعترى والدتي من قلق وهواجس، لأن صبيًّا تعود على الثرثرة، مثلي، سيصبح سبباً لجلب المتاعب والمضايقات، ليس على نفسه فقط، وإنما على أفراد عائلته في القرية أيضاً؛ ومن ثم كانت خلفية السرد في رواية "الثور" تشتق تصوراتها من فكرة ما سيقع على رأس الولد من مصائب جمة، بسبب ميله إلى الفضول وانفراط اللسان. وكم نصحتني أمي بالتعقل والتزام الصمت، لكن أقداري كانت تسير بي عكس أمانيها؛ وذلك لما جُبلت عليه من شغف بهذر القول وتضلع في المماراة واللجاج. وبلا شك، فقد كان ذلك مكمن خطر، ولو أن شيئًا من المقدرة على الحكي كان يدخل السعادة إلى قلب أمه، فمن هنا تشكل إحساسه بالتناقض والحيرة".

من واقع تجربة عاشها مُو يَان، كتب فصول "الثور"، ومن خيال مشبع بتقاليد الحكي العجائبي في تراث القص الصيني، كان الولد "روهان" في الرواية يحاور الثيران ويتعاطف مع مأساتها، منددا بهمجية المسئولين، وعبث الظروف التي فرضت على جيل بأكمله أن يبقى ساهراً طوال مسيرة شاقة، مواصلاً الليل بالنهار، وهو يحرس ثماراً معطوبة..لكنه (مُو يَان.. يعني)

يقتحم إسار الصمت ويثرثر طويلاً، ويقتحم حدوداً كانت مفروضة عليه قسراً (هكذا، يتصوَّر!) في مواجهة جمع حاشد يضيق ذرعاً بكلماته وعفوية تعليقاته الصبيانية.. التي تنكأ مواطن جرح عميق، وتلمح إلى بواطن مأساة وملابسات جرائم كاملة، ولو أنها لا تشير جهاراً إلى رؤوس منسر، ولا تمنح الطيبين شهادة عرفان، وإنما تتوسل بالسرد في تلمس مفاصل وقائع عبثية، لتكتب تاريخ بقاء لمن وقفوا دون عتبات التدوين الرسمي، ولو أنهم كانوا من صنَّاع التاريخ، في حقبة ما.

أما عن الكاتب، مُو يَان، فلم يكن مِن حظي أن أتعرَّف إليه عن قرب، إلا بشكل عابر جداً ولدقائق قليلة. كان ذلك أثناء المؤتمر الدولي الثاني للمترجمين الأجانب وخبراء الثقافة الصينية. وقد سعدت بحضوره، بناءً على دعوة من اتحاد كتاب الصين، في الثلث الأخير من أغسطس 2012 ببكين، أي قبل حصوله على الجائزة بنحو الشهرين. ولا أذكر من تفاصيل اللقاء إلا أنه كان يؤكد على أهمية تكثيف جهود الترجمة الأدبية عن الصينية إلى منطقتين تعانيان نقصاً حادًّا في التعريف بالأدب الصيني: المنطقة العربية، وأمريكا اللاتينية، وذلك في كلمة ألقاها بوصفه نائب رئيس اتحاد الكتاب. ولاشك أن مُو يَان يعتبر أحد أهم كتاب الرواية الصينية في ساحة الإبداع الصيني، منذ منتصف التسعينات، وحصوله على الجائزة جاء متأخراً جداً، ولأسباب تبعد كثيراً عما يشاع من مواءمات تتلون بانحيازات سياسية أو فكريةٍ ما؛ ومن بين هذه الأسباب افتقاد خبرة التقييم المؤهلة بمعرفة وثيقة

باللغة الصينية وآدابها، ولولا انضمام واحد مثل "مايوران"- بخبرتـه وثقلـه ومعرفته وتاريخه في شئون الثقافة الصينية- إلى لجنة التحكيم في الأكاديمية السويدية، لبقيت الجائزة في وادٍ بعيداً عن تقدير قيمـة الكتابـة الروائيـة في الأدب الصيني.

صحيحٌ أني لم أتعرف إلى مُو يَان عن قرب، لكني عرفت وقابلت آخـرين أظنهم يقفون على أرض إبداع روائي بقدم راسخة وعود أصـلب؛ كان هنـاك آخرون يمثلون علامات مرموقة في الرواية: ليو جنوين، شيو كون، تيه نينيغ (الكاتبة، رئيسة اتحاد الكتـاب) و"يـو هـوا" صـديقنا الـروائي المبـدع، الذي صادف أول أيام زيارته للقاهرة وقوع أحداث ثورة ينـاير 2011 ، فعـاد إلى بكين وقد نسي حقائبه في فنـادق القـاهرة المـشتعلة تحـت الغـضب! وفي أجيال الكتابة الروائية المعاصرة، ثمة كثـيرون أسـهموا في إبـداع علامـات فارقة في الرواية الصينية، كلهم من أجيال الفترة الجديدة الـتي تحـررت مـن أثقال الأمس (.. لتعود إلى ما قبل أمس!!) فلنقُل إذن، تواصـل الكتابـة مـن نقطـة تربطهـا بلحظـة انعتـاق الكتابـة مـن أغـلال التقاليـد.. سـاعة أن استشرفت الرواية الصينية آفاق عصر جديد، في مطلع القرن العشرين.

هذا عن الرواية والكاتب والجيل الأدبي، فماذا عن الترجمة؟ ليس ثمة مـا يُقال هنالك، سوى أن هذه الترجمة مجرد قـراءة، أو قُـل، إنهـا شـهادة تجربـة معايشة ثقافية ونقدية مع نص روائي، لا تغلق الباب دون أية رؤيـة أخـرى، من مصادر ترجمية متعددة، بما فيها النصوص المنقولة عـبر لغـات وسـيطة،

غير لغة الأصل. وقد درجت المؤسسات والهيئات الترجمية- عندنا في العالم العربي- على التوصية بعدم تكرار الترجمات؛ كأن النص المترجم خاتمة مطاف أو لوح أسرار، أو واقعة إلهام صوفي على قلب قطب نوراني؛ وإنما الترجمة، أية ترجمة، ليست إلا قراءة من زاوية معجمية وثقافية ونقدية، يحدها أفق التلقي، وتحصرها أهداف وآليات التواصل في فضاء محدد، وبمفاهيم وتصورات تخضع سلفاً لمقتضيات نشر وحركة سوق، وقابلية قراءة، وتفاعل جمهور، وشروط ساحة نقد، وذهنية مجتمع ثقافي، وخصوصية لحظة تتقاطع مع مناخات اجتماعية-سياسية، متباينة في طريقة صياغتها لذائقة عصرها ومجتمعاتها.. فلا معدًى من أن تتعدد الترجمات ورؤى أصحابها ومعالجاتهم للنصوص في مصادرها المختلفة. فليست هذه الترجمة، التي بين يدي القارئ، إلا مجرد معالجة للنص الأدبي المعروف في أصله الصيني بعنوان "الثور"، لم يكن لمترجمها سوى محاولة النقل عبر القراءة الثقافية لأحوال النص وظروف إنتاجه وأفكار كاتبه، لكن النص المترجم، وحسب المفاهيم النظرية الحديثة، لم يكن ينبغي له أن يقف عند هذا الحد، بل يتجاوزه إلى تقدير مقروئيته، وأفق التواصل معه، في مناخ ثقافي مغاير؛ وهو المنحى الذي ما كان له أن يثمر شيئًا، إلا بفضل كثيرين جداً شاركوا في عملية إنتاج هذا النص المترجم،على النحو الذي يجده القارئ بين يديه الآن..

فقد كان للصديق الأستاذ محمد إبراهيم مبروك (القاص والمترجم عن الإسبانية) الفضل في مراجعة النص المترجم، في مسودته الأولى، وإبداء ملاحظات وإضاءات ذات قيمة؛ ولئن كان المترجم قد استطاع أن يبدد بعض

الرطانة الصينية عن النص المترجم، فقد كان للأستاذ محمد مبروك الفضل في تخليصه من شوائب رطانة صينية بقيت في ثناياه، تتحدى الفصاحة، وتتهدد سبل البيان الرائق؛ بل لم يكن ممكنًا الدفع بالنص المترجم إلى النشر، إلا بفضل الحماس الذي أبدته الأستاذة مريم البنا، الصحفية بالأهرام (ملحق الجمعة) لترجمة هذه الرواية، وذلك في ثنايا تقديرها لقيمة النص الأصلي، وتلمسها لتشكيلة الخصائص الإنسانية التي تميز هذا النمط من الكتابة الأدبية الصينية. وكان الملفت هو ترادف هذا التقدير مع ما ركزت عليه بعض التعليقات الأدبية الصينية، على هذه الرواية بالذات، في سياق التناول النقدي للرواية القصيرة عند مُو يَان. كما لا يمكن، في هذا السياق، إغفال ما قامت به الأستاذة الدكتورة تشن دونغ يون، المستشار الثقافي بسفارة الصين بالقاهرة، من جهد في سبيل توفير مادة النص في لغة الأصلية، ومرفقاته من المصادر البحثية والكتابات النقدية التي استقيت منها موضوع الكتابة في هذه المقدمة، خصوصاً في وقت لم تكن مكتبات القسم العلمي في كليتنا تتوافر على نصوص أدبية لـ"مُو يَان"، في مصادرها الأصلية. ولابد أن أذكر هنا، بكل العرفان، ماقام به السيد ليو شي بينغ، المدير التنفيذي بالمركز الثقافي الصيني بالقاهرة، من جهد مشكور في توضيح ما لم أستطع إدراكه من سياقات لغوية ثقافية في النص الأصلي؛ وذلك لاستغراقها في التعبيرات ذات الخصوصية المحلية الصينية، فكان سيادته خير معين لي في استقصاء مدلولاتها.

وفي الختام، الذي هو بدء مصائر الكلمات، يبقى لك أنت، سيدي القارئ،

الفضل في استنهاض المعنى، فبيدك أعنةُ النصوص، وإليك تـذهب غاياتهـا، فابق بمجدٍ ما بقيت الكلمة.

محسـن فرجـاني

القاهرة في نوفمبر 2012

عنوان الرواية، حسب الأصل الصيني "**Niu**"، عن نسخة بعنـوان Moyan "zhongpian xiaoshuo ji-xia"، دار نشر: -Zuojia Chubanshe، سنة وجهة النشر: 2002 - Beijing

موقع وبريد النشر: www.zuojiachubanshe.com

wrtspub@public.bta.net.cn

خطـاب مُو يـان

في حفل جائزة "نوبل"، بالأكاديمية السويدية

حضرات الأعضاء في الأكاديمية السويدية، السيدات والسادة:

أتصور أن الحاضرين هنا يعرفون النذر اليسير، عبر التلفاز أو شبكات الانترنت، عن بلدة "كاومي" البعيدة في أقصى شمال شرق الصين. ولعل بعضاً من حضراتكم قد سمحت له الظروف بأن يرى أبي الذي شارف من العمر عامه التسعين، أو ، ربما، شاهد أحداً من أخوتي أو أخواتي الكبار، أو زوجتي وابنتي، أو حتى حفيدتي التي أكملت من عمرها عامها الأول؛ لكن أحداً لم ير الشخص الذي أشتاق إليه هذه اللحظة، ولا أظن أن بإمكان أي فرد أن يراها رأي العين أبدًا.. إنها أمي. وقد أتيح لكثيرين أن يشاركوني شرف

الحصول على الجائزة، لكن أمي لن يتاح لها أبدًا أن تشاركني هذا الشرف.

وُلدت أمي في 1922، وتوفيت في 1994. ومنذ هذا التاريخ بقي رفاتها مدفونًا في شرقي قريتنا، بالقرب من إحدى حدائق الخوخ. ولما تقرر- في العام الماضي- أن يمتد شريط للسكك الحديدية عبر المنطقة التي دفنت فيها والدتي، فقد اضطررنا إلى نقل مقبرتها إلى أبعد موضع من القرية. فلما أزحنا التراب عن مدفنها، وجدنا التابوت قد تهرّأ تماماً، وبدا الهيكل الجسدي مختلطاً بالطين، بل قد صار جزءاً من كتلة الأرض حوله، فلم نملك إلا أن نحفر قطعة من الرمال والطين الدبق، باعتبار أنها تمثل الرفات، على نحو رمزي لا غير، ونقلناها إلى المقبرة الجديدة. ومنذ تلك اللحظة، وأنا أعتبر أن الأم قد صارت جزءاً من الأرض، أو أن الأرض أصبحت هي الجزء المتبقي من والدتي، فكل بوح لي فوق الأرض، ليس إلا مناجاة لأمي.

لم يعد يتبقى في ذاكرتي من أحداث سنوات العمر الأولى إلا منظر إناء كبير كنت أهرع به إلى المطعم الشعبي كي أملأه بالماء. ولما كان الهزال قد بلغ بي مبلغه، فلم أقو على حمل الإناء، فسقط في عرض الطريق وتهشم، وارتعدت مفاصلي هلعاً، فلم أستطع العودة إلى البيت، واختبأت وسط كومة حشائش طيلة النهار. وفي أول المساء، سمعت صوت أمي تناديني باسمي الذي كانت تدللني به، فخرجت من مخبئي، وتوقعت أن أتعرَّض لقدرٍ من التوبيخ أو العقاب البدني؛ غير أن أمي لم تقدم على شيء من هذا، بل راحت تربت على رأسي، وملء آذاني كنت أسمع زفرات صدرها.

من أكثر الذكريات إيلاماً، ما وقع لي في طفولتي، عندما اصطحبتني أمي معها إلى إحدى المزارع الجماعية، حيث انهمكت في حصاد القمح. فبينما هي مشغولة بذلك، ظهر أمامنا المشرف الزراعي فجأة؛ فسارع صغار الفلاحين بالفرار، خشية بطشه، ولم تكن أمي تستطيع الجري بنفس سرعتهم، فلحق بها، وكان قوي البدن، هائل الجرم، ورفع كفه عالياً وصفعها بكل قوته، فارتج جسدها وسقطت أرضاً. فما كان من المشرف إلا أن صادر حصيلتها من الحصاد، ومضى في طريقه هادئًا، يطلق صفير الألحان. وعلى الأرض، كانت أمي جالسة تعالج نزيف الدم المحتشد بجانب فمها، وعلى وجهها ملامح انكسار، لن تزايل ذاكرتي ما حييت. والتقيت بهذا المشرف نفسه، بعد سنوات طويلة، وقد نالت منه الأيام وتقدم به العمر واشتعل منه الرأس شيبًا. كنا قد التقينا به على قارعة طريق، وسط سوق بلدتنا، فهممت بأن أبطش به، لولا أن حالت أمي بيني وبينه، قائلةً لي بهدوء: "اكفف يدك عنه يا ولدي، فشتان بين مَن ضربني يومئذٍ، وبين مَن تراه الآن".

مِن بين ما أذكره أيضاً، أمرٌ كان له أبلغ الأثر في نفسي، إذ كنا قد أعددنا وجبة "جياو تسي" ظهيرة أحد الأيام، احتفالاً بعيد منتصف الخريف، وكانت وجبة عامرة قلَّما أتاحت لنا الظروف الاستمتاع بمثلها. ولم يزد نصيب كل فرد في بيتنا عن طبق واحد، لا غير. فما إن جلسنا إلى المائدة وتهيَّأنا للطعام، حتى دق الباب شحاذٌ طاعنٌ في السن، فأردت أن أصرفه بإحدى ثمار البطاطا الحلوة، إلا أنه هتف بي متذمراً: "كيف ترضون لي بقطعة ضئيلة من البطاطا، في حين تأكلون الـ"جياو تسي"؛ أين القلوب الرحيمة؟"؛ فلم أتمالك

نفسي من الانفعال، ورددت عليه قائلاً: "نحن قد يمر علينا العام بطوله، دون أن نشم رائحة الـ"جياو تسي". وحتى عندما يتاح لنا أن نصنع منه شيئًا قليلاً، فلا يطول الواحد منا سوى طبق صغير لا يشبع جوعه! وها قد أعطيتك البطاطا الحلوة وفيها كفايتك، فإن لم تعجبك فامض بعيداً لشأنك ولا توجع رؤوسنا!". واستاءت والدتي من طريقتي في الرد على المسكين، وأنحت عليَّ باللائمة، وأسرعت لتفرغ طبقها كله في مخلاة الرجل!

ولم أندم في حياتي كلها قدر ندمي على ما بدر مني ذات يوم من أيام صباي؛ إذ كنت قد ذهبت مع أمي إلى السوق لكي نبيع كمية من الخضراوات، وحدث أنّي، ودون قصد، غاليت في السعر مقدار "جياو" واحد [نحو عشرة قروش]، وذهبت بعد إتمام عملية البيع إلى المدرسة. فلما عدت إلى البيت بعد انتهاء الحصص، لاحظت أن وجه الأم غارق في الأسى والدموع، ودون أن توجه إليَّ أية انتقادات أو تعليقات جارحة، راحت تقول لي بروح متسامحة للغاية: "صحيح أن ما فعلته اليوم وضعني في حرج بالغ، لكن لا عليك من كل هذه الأشياء!".

ما كدت أبلغ التاسعة عشرة من عمري، حتى أصيبت أمي بمرض السُّل، فلم يلبث البيت كله أن وقع في إسار الجوع والضيق والمشقة، حتى ضاقت بنا سبل العيش، ولم يكن ثمة بصيص من الأمل. وسيطرت على أفكاري، وقتئذٍ، وساوس غريبة صوَّرت لي أن أمي قد تلجأ إلى الانتحار؛ فكنت كلما عدت إلى البيت، بنهاية وقت الدوام، أهرع إلى الغرف الداخلية، أنادي

عليها، حتى إذا أجابتني وتأكدت من وجودها، تبددت من صدري أثقال الخوف؛ أما إذا لم أجد لها صوتاً، فقد كان قلبي يرتجف هلعاً، فأظل أجوب البيت: في المطبخ تارةً، وفي غرفة الطحين تارةً أخرى؛ بحثاً عنها. وذات مرة ظللت أجوب الغرف والدهاليز، ألتمس وجودها دون جدوى، فارتميت وسط الحوش أبكي. وفي تلك اللحظة، كانت قد انتهت من جمع بعض الحشائش خارج الدار، ودخلت من البوابة الكبيرة وعبرت من ورائي، دون أن أشعر بها. فلما رأتني أبكي، تحسَّرت على أحوالي، ولم أشأ أن أخبرها عما اعتلج به صدري. بيد أنها سبرت أغواري، وقالت لي: "اطمئن يا بني، فمهما حرمتني الحياة من السعادة، لن أفكر في الرحيل عنها بإرادتي، بل سأنتظر إرادة ملك الموت".

وُلدت دميم الخلقة، فكان أهل القرية يلقونني ساخرين من شكلي، وكنت أثناء سنوات الدراسة أتعرض، من جراء ذلك، للبطش والإهانة على يد زملائي المشاغبين؛ فكنت أعود إلى البيت كاسف البال، فتلقاني أمي وتقول لي: "دعك من هذا الكلام الفارغ.. لست دميماً بحال، ثم إنك لا تنقص عن أحد أنفاً ولاعيناً، جسمك سليم وأعضاؤك كاملة، فأين المشكلة؟ ومادام قلبك عامراً بالنوايا الطيبة، ويدك معطاءة بالخير، فستكون أجمل واحد في الدنيا، حتى لو لم يكن لك حظ من وسامة!" بل إنني- عندما استقررت بالمدينة فيما بعد- لاحظتُ أن عدداً ممن يقال بأنهم مستنيرون، وعلى قدر رفيع من الثقافة، يسخرون من ملامح وجهي، فمنهم مَن كان يجهر بملاحظاته أمامي، ومنهم مَن كان يخفيها دوني، فكنت أتذكر قول والدتي،

وألتمس للتعليقات أعذارها.

لم تكن الوالدة تقرأ ولا تكتب، بيد أنها كانت تبجِّل المتعلمين والدارسين، كأحسن مايكون التبجيل والاحترام. وبرغم ظروف حياتنا القاسية، فلم تكن تصم آذانها عما أطلبه من كتب وأقلام. لم أر في حياتي شخصاً يحب الدأب والمثابرة مثلها، ومن ناحيتها، فلم تكن تبغض شيئًا في الدنيا مثل الكسالى والمسوِّفين، سوى مَن كان يقعد عن عمله؛ رغبة في تحصيل علم أو مطالعة درس.

في وقتٍ ما، كان يفد علينا، من الأسواق العامة، الرواة والقصاصون للسير الشعبية، فكنت أسرع إلى حلقاتهم وأجلس متخفياً في ركن، أستمع لفصول من الحكايا والقصص، غافلاً عما كنتُ مكلفاً بعمله، فكانت تنحي عليَّ باللائمة. وعندما تجلس تحت ضوء مصباح شحيح الزيت، في الليالي الطويلة، تحيك ثوباً أو ترتق أردية، كنت أنتهز الفرصة فأقص عليها ما سمعته في حلقات الرواة الشعبيين، وهو ما لم تكن تستسيغه، أول الأمر؛ لاعتقادها بأن الرواة ليسوا إلا طائفة ممن يرتزقون بألسنة الكذب وأفواه الخرافة، من باب التكسُّب بالأقاويل، دون جهد مثمر، خلاَّق. غير أنها كانت، بمرور الوقت، تنصت ملياً إلى ما أنقله لها من حكايات، حتى لاحظت أنها كانت تعفيني من المهام الشاقة كلما حان يوم التسوق، في موافقة ضمنية على ذهابي إلى منتديات الرواة والحكائين؛ ومن جانبي، فقد حرصتُ على أن أرد لها الجميل بأن أضيف إلى ما أعيده على آذانها من السير نتفاً من خيال

وبعضاً من وقائع، في ثنايا الحكي؛ ولم تكن الذاكرة تضن عليَّ وقت الحاجة.

لم ألبث أن ضقتُ ذَرعاً بفكرة النقل المباشر لما أسمعه من الرواة، فكنت أعمد إلى زيادة رقعة الحكايات بشيء من الوشي في أهداب التفاصيل، وكثيراً ما كنت أبتكر من عندي فصولاً ومشاهد أتخلل بها نسيج القصص، وأحياناً كنت أضع حبكة روائية مختلفة، وأصنع خاتمة مغايرة. ولم يقتصر جمهور المستمعين إلى حكاياتي على الوالدة فقط، وإنما امتد ليشمل أختي الكبرى وعمتي والجدة. وكلما انتهيت من حكاية، كانت أمي تنظر إليَّ، وملامحها مثقلة بالهموم، كأنها تريد أن تقول لي: "وماذا بعد يا ولدي.. ماذا عندما تكبر، وكيف سيصير مستقبلك؟ أمعقول أن تصبح واحداً من أولئك الحكائين، المرتزقين بأفواههم في الساحات؟ وهل تضمن عيشك بهذا؟"

كنت أستطيع أن أقدِّر أسباب مثل هذا القلق الذي سيطر على قلب أم؛ لأن آفة الثرثرة إذا أصابت فتى في قرية، فهي مدعاة إلى نفور الناس منه وابتعادهم عنه، بل قد يمتد أثر النفور والكراهية إلى أهل بيته أيضاً. **ولعل بعضاً مما أوردته في روايتي «الثور» من فصول تروي شيئاً عن استياء أهل القرية من الولد الذي لا يكف عن هذر القول، إنما يرجع أساساً إلى جذور عميقة في سني طفولتي.** وهكذا، فلم تكن الوالدة تكف عن النصح لي بأن أحفظ لساني عن الخوض في شتى الأقاويل، بل تمنَّت لو استطعت أن ألزم الصمت والهدوء. وعلى الرغم من هذا، فقد كانت طبيعتي تأبى إلا أن تتسلح

بأقصى ما في طاقتها من طلاقة لسان، بلغت حد الإفراط في مواهب الحكي. وهو الأمر الذي لم تكن تُحمد عقباه، بأية حال؛ بيد أن موهبة الحكي هذه، كانت مصدر رضا وسعادة لا تخفى آثارها على وجه الأم؛ مما أوقع بي في شعور بالتناقض الشديد.

يقول المثل السائر: "قد تتزحزح الجبال الراسيات، ولا تتبدل الخصال والسمات؛ ولربما يتحول مجرى نهر، دون أن يحيد جَرَيان طبع!" فكثيراً ما حاول والداي، بعزم وإصرار، أن يسديا لي النصح، دون أن يبدل ذلك شيئًا من غلبة طبع الحكي في أعماقي؛ وهو ما لا يستقيم مع اللقب "مو يان" [الساكت] الذي يُعد ضرباً من السخرية أو المنابذة اللاذعة!

توقفتُ عن الدراسة قبل إتمام المرحلة الابتدائية، ولم يكن هناك ما أفعله بعد هذا، سوى أن أرعى قطعان الماشية، خصوصاً أني لم أكن أستطيع القيام بأعمال تتطلب جهدًا عضليًّا؛ بسبب صغر سني وهشاشة بنيتي، ولطالما قادتني الخطى إلى منطقة عشبية أمام بوابة المدرسة، فكنت ألمح، من بعيد، زملاء الدراسة السابقين، وهم يمرحون في الفناء، فتمتلئ نفسي حسرة، وينتابني شعور بالوحدة. حتى وأنا طفل، كنت أعاني مرارة الشعور بالوحدة، إثر مفارقة جماعة الأقران.

في المراعي، كنت أطلق للمواشي العنان، تمرح وسط العشب على هواها، فوق حقول ممتدة حتى آخر الأفق، والسماء فوقنا شطآنها فيروز، وصفحتها بحور اللازَوَرْد، وليس في الأنحاء حس ولا حركة، إلا شقشقة طيور. والعزلة

تضرب بأطنابها من حولي، وبأعماقي خلاء واسع المدى. كنت أستلقي على ظهري، أحياناً، وأرقب الغيم الأبيض عالقاً بالأجواء، يتسحَّب في تراخٍ، فيغرق رأسي في بحار الخيال، وتجمح بي الصور جموح أحلام طافرة.. وكانت حكايا بلدتنا تموج بخرافات شتى، من بينها خرافة قديمة عن ثعالب تنقلب، في عين الرائي، إلى حسناوات وبنات خدور، فتنتُهن شَرَك، ولحظُهن مصائد عشاق؛ فبدا لعيني- بمرأى خيالات الصحو- أن لو نزل عليَّ من رُبى الخيال، أحد تلك الثعالب المسحورة، وانقلب في عيني فتاةً أنظرها وأتملَّى فيها؛ إذن، لصارت لي رفيق أوقات، تبدد وحشة تجوالي وحيداً وسط المراعي. بيد أن شيئًا من ذلك لم يقع. غير أني لمحت، ذات مرة، ثعلباً ذا فراء أحمر قان، يتوثب بين العشب، ويمرق سريعاً في الخلاء، فتراجعتُ حتى وقعت على الأرض مفزوعاً، وبقيت مكاني وقد انتابتني الرجفة، حتى بعد أن غاب الثعلب وراء المدى. كثيراً ما كنت أقعي بجوار الثيران، فأتأمل لمعان عيونها، وأنظر إلى صورتي المنعكسة فوق أحداقها، وأنشغل، بالساعات الطويلة، في تقليد زقزقة الطيور، آملاً الاهتداء إلى أسرار رطانتها؛ عسى أن أحاورها، فتدور بيننا الأحاديث وتتصل عُرى التفاهم، وتنفك حُبسة العي بين الطير والإنسان. وحدث- في بعض المرات- أن ناجيت إحدى الأشجار وبثثتها شكواي. وبرغم كل هذا، فلا الطير حادثني ولا الشجر واساني. وانقضت سنواتٌ شققت بعدها طريقي إلى الكتابة، ودوَّنت فوق الأسطر عدداً يفوق الحصر من تلك الصور الخيالية التي تراءت لي وسط المراعي؛ ولقد يقول بعضهم بأن ثمة "فانتازيا" وشطحات صور عجائبية، بكثرة وافرة، في ثنايا ما أكتب،

حتى كلمني بعض هواة الأدب في هذا، على أمل أن أكشف لهم عن سر ذلك المخزون الهائل من العجائبيات والخيالات الجامحة، ولم أكن أملك إلا الرد بابتسامة متكلفة.. مريرة إلى حد التعاسة.

يؤثر عن الحكيم الصيني القديم، لاو تسو، قوله: "كثيراً ما تنطوي الأتراح على بواطن فرح، مثلما يأتي ركاب السعادة تتبعه مواكب شقاء". وربما كان يصدق على حالي شيءٌ من هذا القول؛ فقد حُرمت من مواصلة الدراسة في طفولتي، وبقيت طويلاً في إسار الجوع والوحدة فلم يتيسر لي شراء الكتب، فقُدِّر لي أن أسلك على غرار أحد الكتاب الصينين ممن سبقوا جيلي، وهو "شن تسونغ وين"، حيث لم يكن أمامه إلا أن يطالع كتاب الحياة الاجتماعية، بوقائعه الملموسة عن قرب. وهكذا، فقد وجدتُ في رواة السير الشعبية المتجولين في الأسواق صفحة أطالع فيها مفردات الحياة.

بعد الحرمان من الدراسة، اندسستُ وسط معترك الحياة، وأضحت أذناي هي وسيلتي الحية في القراءة، وبهذا النمط من القراءة بدأت مشوار حياة. ولم يكن غريباً على قريتنا أن تلهم كثيرين بالمقدرة على الحكي، فقد سبق أن أنجبت هذه البلدة عينها، منذ أكثر من مائتي عام، أحد أعظم كتاب الرواية في تاريخ الصين، وهو الكاتب "بو سونلين" الذي كنت، مع كثيرين غيري في القرية، أعد نفسي وريث حرفته. ولطالما كنت أفتح أذني، سواء كنت في المزارع الجماعية أم تحت سقيفة الأبقار وحظائر الخيل، أم فوق الكانغ [الكنبة الريفية] الدافئ، أم حتى فوق عربات تجرها الثيران؛ كنت أنصت

بكياني كله إلى السير والروايات الشعبية، وحكايات الخوارق والمعجزات والملاحم التاريخية، والنوادر والطرائف. وكانت كلها عبارة عن مادة روائية مرتبطة بأرضنا، مثلها في ذلك مثل الظواهر الطبيعية وتقاليد حياتنا الاجتماعية؛ فكانت خصائص الحكي، هي ذاتها مفردات الواقعية كما لمسناها بأحاسيسنا.

لم أكن يومئذٍ أتوقع- حتى في أكثر الأحلام جموحاً- أن تدخل تلك المواد القصصية ضمن نسيج كتابة روائية، إذ لم يكن يملك عليَّ حواسي، في ذلك الوقت، سوى الإنصات ملياً إلى الرواة والحكائين، وكنت أؤمن بعالم الروح والإله، وبأن للمخلوقات روحًا واعية، حتى إذا صادفت شجرات باسقات عظيمة الأفرع، وقفت قبالتها في خشوع. وكلما لمحت طائراً يحلق في فضاء، أدركت بحس غريزي أنه سيدخل إهاب إنسان، ويتحول يوماً إلى بشر يسعى مثل باقي الناس. وإذا لقيتُ بمحض مصادفة شخصاً مجهول الهوية، شككتُ في أنه مظهر جسدي لروح دابة من الدواب. هذا، بينما، أثناء عودتي آخر الليل من عملي بمكتب الأشغال التابع للوحدة الإنتاجية، كانت تنتابني مشاعر الذعر، فأقاومها بالصفير والغناء والهرولة فوق دروب حالكة المسير، وكنت أيامها في سني النضج والمراهقة، وصوتي يمر بعتبات متباينة الرنين، وتغلب عليه نبرة زاعقة ناشزة، فكان غنائي عذاباً لا يوصف في أسماع أبناء قريتي من رفاق الطريق.

عشت في قريتي واحداً وعشرين عاماً، لم أغترب فيها سوى مرة واحدة

فقط، حين ركبت القطار في رحلة إلى "تشينغ داو"، وهناك كدت أضل طريقي بين ألواح خشب طويلة في مصنع كبير للأخشاب. وعندما سألتني والدتي عما رأيت في سفري هذا، أجبتها قائلاً في أسى: "لم أر شيئاً بالمرة، ليس إلا أكوام نشارة وألواحاً خشبية". بيد أنها كانت الرحلة التي حفزتني إلى السفر، وشدت انتباهي إلى تجاوز أفق الموضع القروي الذي نشأت فيه.

التحقت بالجيش في فبراير من عام 1976، أحمل مخلاة تحوي أجزاء أربعة من كتاب "موجز تاريخ الصين"، كنت اشتريته بما توفر لي بعد أن باعت أمي ما تبقى من حلي زفافها، تاركاً ورائي "كاو مي"، تلك البلدة التي أحببتُها وأبغضتُها في آن واحد، مبتدئاً أهم رحلة في مشوار حياتي. وهنا، فمن الواجب أن أعترف بأنه لولا ما حققته الصين على مدى الثلاثين عاماً الماضية من تقدم وازدهار، ولولا الانفتاح والتغيير، لما أمكن لي أن أكون كاتباً روائياً اليوم.

وسط حياة الجندية الصارمة الخشنة، تعرفتُ إلى موجة الكتابة الأدبية ذات الطابع الفكري التحرري، التي اجتاحت ساحات الإبداع الصيني في الثمانينيات، وتحولتُ من مجرد صبي منصت حيناً إلى الرواة في الأسواق، وحكاء يعيد سرد القصص، حيناً آخر، على أسماع أصدقائه وأهله؛ إلى تجربة التدوين الروائي بالكتابة. لم تكن المحاولة سهلة ولا الطريق ممهداً أول الأمر، كما لم أكن أدرك أن تجربة حياتي في القرية، التي امتدت عشرين عاماً تقريباً، قد صارت رصيدا لا ينفد، وكنزاً وافر الغنى. كنت أتصور- في تلك

الأيام- أن الكتابة الأدبية تنحصر في الاقتراب من الصور الإيجابية للشخصية القصصية، في نموذجها المعهود وقالبها البطولي الذائع؛ فمن ثم بقيت القيمة الأدبية لما أكتب ضئيلة للغاية، برغم ما نُشر لي من أعمال قليلة.

في خريف 1984، التحقت بالقسم الأدبي بكلية الفنون الجميلة، التابعة لجيش التحرير. وتحت إشراف أستاذي العظيم، الروائي الكبير "شيو هوايجون"، انتهيت من كتابة عدة قصص قصيرة، منها: "**مياه خريفية رائقة**"، "**النهر الجاف**"، "**الفجل الشفاف**"، "**الذرة الحمراء**". وكانت قصة "مياه خريفية رائقة" هي التي ذكرتُ فيها، لأول مرة، اسم قريتي "كاومي- دونغبي". ومنذ ذلك الحين، أصبحتُ مثل فلاح معدم وجد لنفسه أرضاً، تمنحه كيانًا وقيمةً ووجوداً، حيث أمكن للكاتب الشريد في أعماقي أن يجد لنفسه مستقراً وملاذاً. ولابد هنا من أن أعترف بفضل الأمريكي "وليام فوكنر"، والكولومبي "غابرييل غارثيا ماركيز"، لما أتاحاه لي من وعي هائل، كان له دوره في تعيين منطقة "كاومي دونغبي" بوصفها موطن إبداع أدبي في كتاباتي. ولئن كنتُ قد قرأت بعض إنتاجهما، بصورة غير وافية، فأستطيع القول بأن روح الابتكار الجريء، والمبادرة الإبداعية الشجاعة، وتأسيس مناطق جمالية متفردة، قد ألهمني- بكثير من الحماس والوعي- ضرورة أن يصنع الكاتب لنفسه منطقته الأدبية الفريدة، وموطن استلهام طاقاته. وإذا كان صحيحاً أن المرء، في مسيرة حياته اليومية، مطالب بالتزام سلوك قائم على التواضع والإيثار، فإن ظروف الإبداع في الحياة الأدبية تتطلب قدراً هائلاً من الثقة

بالنفس والصلابة والقوة. وقد بقيتُ لمدة سنتين كاملتين أقتفي أثر هذين الكاتبين الكبيرين، ثم أدركت أنه من الضروري جداً أن أبتعد عن مسارهما بأسرع ما في وسعي؛ وكنت قد كتبتُ ذات مرة في مقال لي، أقول: "مثل هذين الكاتبين كمثل أفران الصهر اللاهبة؛ أما أنا فلست إلا قطعة من جليد، فإذا اقتربتُ منهما تبدد كياني، وتبخرت مادتي. وما أفهمه بوعي، هو أن ما يجعل أحد الكتاب متأثراً بمبدع آخر، يكمن في أن المؤثر والمتأثر كليهما تجمعهما نقطة التقاء روحي مشتركة؛ وهو ما يقال له "التقاء القلوب على نبض واحد"؛ ولذلك، فلم يكن يعوزني أن أقرأ لهما كثيراً لكي أدرك ماذا فعلاه، وكيفية ما قاما به، ومن ثم، فقد عرفت تماماً ما الذي يتوجَّب عليَّ عمله، وكيفية أدائه.

أما ما يتوجَّب عليَّ عمله، فسهل جداً، ويكمن في أن أنتهج أسلوبي الخاص، وأكتب روايتي ابنة قلمي. ولا يختلف أسلوبي عما ألفته من طرائق الرواة وحكاياتهم في الأسواق، وهي نفسها طريقة جدي وجدتي وكل أهل قريتنا في رواية الأحداث. وبكل صراحة ووضوح، فهي الطريقة التي يُغض فيها الطرف عن المستمع، فقد يكون جمهور المستمعين أشخاصاً بسطاء، مثل والدتي، أو يكون الراوي في الحكاية هو ذاته المستمع، فتكون حكايتي لنفسي. من ذلك أن قصصي الأولى كانت من واقع تجاربي الشخصية؛ ففي قصة "**النهر الجاف**"- مثلاً- كان الصبي الذي تلقى ضرباً مبرحاً علي يد أبيه، هو الكاتب نفسه؛ وكذلك في رواية "الفجل الشفاف"، كان الفتى الذي لم ينطق بكلمة طوال أحداث الرواية، من البدء إلى المنتهى، هو نفسه صاحب التجربة المعاشة. وقد حدث فعلاً أني تلقيت ضرباً مبرحاً على يد أبي؛ بسبب

خطأ وقعت فيه، ثم إنني ارتكبتُ ما لايمكن التسامح معه، عندما أقدمت على نفخ الكير لأحد الحدادين فوق الجسر. وبالطبع، فمهما كانت غرائبية الوقائع التي عاشها شخصٌ ما، في تجربته الحياتية المباشرة، فلن يتصور أبداً أن يعكسها، في هيكلها الأصلي وبحرفية وقائعها، على نسيجه القصصي؛ ذلك أن الكتابة تتطلب قدراً من الاختلاق والتصور والخيال. وكان كثير من الأصدقاء قد أبدوا تقديرهم لرواية "**الفجل الشفاف**"، باعتبارها أفضل كتابة قصصية، وهو ما لا أستطيع أن أدحضه، ولا أن أُقرَّه؛ وإن كنت أرى أن الرواية من أكثر أعمالي احتفاء بالرمزية والدلالات العميقة. فالولد ذو البشرة الداكنة، في تلك الرواية، يتميز بقدرات خارقة وطاقة احتمال هائلة، تفوق ما يستطيعه البشر.. هذا الولد يمثل الروح العامة في السرد. ورغم أني وضعت ملامح كثير من الشخصيات في أعمال قصصية تالية، فلم يكن من بينها جميعاً مَن أستطيع القول بأنه يقترب من سماتي الروحية، ولعلي أقول، بصيغة أخرى، إن الكاتب- مهما استعرض من شخصيات في روايته- فلابد أن تكون هناك شخصية "قاطرة"، تتقدم الجميع. وفي رأيي، فإن ذلك الولد الذي أشرت إليه آنفاً، يُعد شخصيةً من هذا النمط، ولو أنه لم ينطق بكلمة واحدة طوال الوقت، لكنه يقود باقي الشخصيات التي تمارس دورها على مسرح الحياة في قرية "كاومي- دونغبي".

ما أحكيه عن نفسي محدود للغاية، فسرعان ما أنتهي مما أقصه عن الذات، لكي أنتقل سريعاً إلى سرد حكاية الآخرين. أما الجوانب القصصية من حياة أسرتي وأقاربي، وما دار حول أهل القرية من حكايات، وما سمعته

بنفسي من أفواه الكهول والجدات من أحاديث وروايات قديمة.. فذلك كله يحتشد لديَّ، يحضُرني من ركن قصي، مثلما تحتشد صفوف جند، لدى ساحة طابور، إثر صيحة نفير. يطل عليَّ حشد الذكريات بعيون تترقب إشارة البدء.. بدء لحظة الكتابة. وفي الكتابة يتبدَّى الجميع: جدي، جدتي، أمي، الوالد، أخي الأكبر، أختي، عمتي، أعمامي، امرأتي، ابنتي؛ كل هؤلاء يطلون برؤوسهم من بين أسطر الروايات، بالإضافة إلى كثيرين آخرين من أهالي قرية كاومي دونغبي؛ وبالطبع، يتطلب الأمر معالجة أدبية لظهور تلك الشخصيات، بطريقة تمنح ذواتهم وجوداً متجاوزاً لحقائق فردانيتهم المعطاة في وقائع علاقاتها المباشرة؛ لكي تكتسب ملامح جديدة في سياق تخلُّق كيانها الأدبي.

ومثلاً، فقد ظهرت صورة تمثل شخصية عمتي، في أحدث رواية لي، وهي "الضِّفدَعْ"، فلما فزت بجائزة نوبل، هرع الصحفيون إلى بيت العمة التي تمالكت أعصابها وتجشمت عناء الرد على أسئلتهم الكثيرة، ثم ما لبثت أن نفد صبرها، وأسرعت تلوذ ببيت ولدها في المدينة. حقاً، كانت عمتي النموذج الذي استلهمته لبناء إحدى شخصيات "الضفدع"، لكن صورة الشخصية في الرواية كانت تختلف تماماً عن السمات الحقيقية للعمة في واقع الحياة. في الرواية، كانت المرأة عنيدة مستبدة، تغلب عليها سمات الصلف والتحفز والاستعداء؛ بينما كانت العمة الحقيقية هادئة الطبع، لطيفة المعشر، بالإضافة إلى كونها أماً مثالية وزوجة وفية، تعيش حياة الكهولة في هناءة واستقرار. نموذج الشخصية الروائية كان يصوِّرها بوصفها شريرة عجوز،

تكالبت عليها في سني الشيخوخة ضغائن قلبها، فصارت تعاني الأرق المزمن، ولا تفارقها عباءتها السوداء، تتشح بها دوماً، فتبدو مثل شبح هائم تحت دُكنة ليل. ولا بد من توجيه الشكر إلى عمتي؛ لسعة صدرها واحتمالها ما تضمنته فصول الرواية من صور سلبية لها؛ وإني لمعجب بذكائها إذ تفهَّمَتْ ملابسات علاقة معقدة بين ملامح شخصية واقعية، ونموذجها الإبداعي على نحو ما تعكسه كتابة روائية.

عقب وفاة والدتي بلغ بي الأسى مداه، فقررت أن أهديها عملاً روائيا، وهكذا كتبت "**صدور ممتلئة وأرداف كبيرة**". ولما كانت المشاعر متدفقة وملامح الرواية مكتملة في ذهني، فلم أستغرق في كتابتها أكثر من ثلاثة وثمانين يوماً، استطعت خلالها أن أنجز فصول مسودتها الأولى، التي بلغ عدد مفرداتها نحو خمسين ألف كلمة.

في "صدور ممتلئة وأرداف كبيرة" أقدمت، بجرأة، على الإفادة من وقائع تجربة حياتية مباشرة، ولو أن الجانب الدرامي كان مستمدًّا من خيال كتابة في بعض منه، وفي بعضه الآخر استوحيت نماذج كثير من الأمهات في قرية كاومي دونغبي. وقد كتبت في صفحة الإهداء هذه العبارة: "إلى روح أمي في السماء!" لكن الرواية، في الحقيقة، مهداة إلى كل الأمهات فوق الأرض، انطلاقاً من رغبة طامحة تتملكني في أن تكون أمي صورة ذات تجريد مطلق، وبالقدر نفسه، أجعل من ملامح قرية "كاومي دونغبي" صورة مصغرة للصين، بل للعالم أجمع.

لكل عملية إبداعية خصائصها المميزة؛ وبالنسبة لي، فلم تكن كل التصورات الفكرية ومنابع الإلهام الروائي متماثلةً إلى حد التطابق المطلق. ومثلاً، فقد وردت على خاطري بعض كتاباتي القصصية أثناء الأحلام، أهم هذه القصص "الفجل الشفاف"، بينما انبثقت أفكار بعضها الآخر عن وقائع وحوادث حقيقية، في تجربة حياة، مثل **"مواويل الثوم"**؛ وأياً ما كان الإلهام الباعث على كتابة القصة أو الرواية، فلابد أن تجري على منوال التجربة الشخصية المعاشة؛ لكي تكتسب سمات تفرد أصيل، بنماذج شخصيات صاغتها تفاصيل نابضة بالحياة، في إطار لغة ذات مستويات مختلفة ومحتوى بالغ الثراء، ومهارة إبداع لها خصوصيتها.

في "مواويل الثوم" استحضرت- على ساحة المشهد القصصي- صورة حقيقية لأحد رواة الملاحم الشعبية، وقُدر لهذه الشخصية أن تؤدي دوراً بالغ الأهمية، واضطررتُ- بكل أسف- إلى استخدام الإسم الحقيقي، ولو أن مجرى الأحداث داخل الرواية اتخذ طابعاً مستقلاً عن مسار الوقائع، خارج المتن. وكثيراً ما تكررت في رواياتي نماذج متواترة من هذا المثال، والحقيقة أني كنت أعمد- في بداية التدوين- إلى استخدام الأسماء الحقيقية للشخصيات، أملاً في استبقاء جو من الاقتراب الحميمي مع الناس في قالب روائي، لكن المشكلة كانت تكمن في استعصاء تغيير التسميات عند الانتهاء من الكتابة؛ وهكذا فقد كان كثيرون ممن يرد ذكر أسمائهم في الكتابات المنشورة، يلجأون إلى أبي شاكين ما حاق بهم، جراء هذا التصرف، من انتهاك لخصوصياتهم، فكان يعتذر إليهم، ويجتهد في لفت أنظارهم إلى

عدم الأخذ بما يرد في القصص مأخذ الجد، قائلاً لهم: "انظروا.. فهو قد كتب عني في أول سطر من "الذرة الحمراء"، أيضاً هكذا: "أبي، ذلك الشقي قاطع الطريق.." ومع ذلك فقد تغاضيت، فما لكم تعطون الأمر أكثر من حقه؟"

لم تكن مشكلتي الكبرى عند كتابة "مواويل الثوم"- وهي نمط من الكتابة يقترب من معالجة قضايا الواقع الاجتماعي- تتمثل في مدى جرأتي على انتقاد الظواهر السلبية في المجتمع، بل في المدى الذي يمكن أن يصل إليه التصوير الدرامي لمشاهد تموج بالغضب والانفعالات المتأججة، إلى الدرجة التي قد تهدد بطغيان التناول السياسي على المعالجة الروائية، مما قد يؤطر الرواية في خانة التقرير التسجيلي حول وقائع أحداث اجتماعية. القاص جزء من مجتمع، هذا صحيح، وبالطبع فهو صاحب موقف ورؤية ذاتية، لكنه مرهون، أثناء الكتابة، بموقف إزاء الناس.. إزاء الجمع الحاشد من البشر الذين يتحتم اتخاذ موقف منحاز إليهم، بهذا الاعتبار. هنالك، فقط، ينبثق الأدب عن أحداث، ولا يلبث أن يتجاوزها؛ يبدي اهتماماً بالسياسي، لكن يفوقه متعدياً إلى ما هو أرحب.

ربما بسبب معايشتي الطويلة لمشاق الحياة، أتيح لي أن أقترب كثيرًا من حدود الإدراك العميق للطبع الإنساني. أعرف تماماً الدلالة الحقيقية للشجاعة، مثلما أفهم المعنى الأصيل للتعاطف. وأدرك أن بقلب كل إنسان منطقة غائمة تتأبَّى على الخضوع لمعايير قاطعة بالصواب والخطأ، ولا تنضبط وفق أطر الخير والشر، فتلك هي المنطقة التي يجيد الكاتب استعراض موهبته

في فضاءاتها العريضة؛ فهو إذ يملك ناصية الوصف الدقيق والحي لتلك المنطقة الضبابية المليئة بالتناقضات، يتمكن بالضرورة من تجاوز السياسي صُعداً نحو استحقاق جدارة المستوى الإبداعي المتميز في الأدب.

إن الاستطراد في حديث مطوَّل عن أعمالي الروائية مدعاة للملل والضيق، بيد أن مسيرة حياتي هي نفسها مسيرة إنتاجي الأدبي، سواء بسواء؛ ولو أمسكت عن ذكر أحوال كتابتي الروائية، فلن أجد ما يستحق القول، فأرجو المعذرة منكم جميعاً!

في أعمالي الأولى، كنت أقوم بدور حكَّاء شعبي يتناول نصوصاً حديثة، ويتوارى بين ثنايا سطورها، حتى إذا جاء الوقت لكتابة رواية "**الإعدام فوق خشب الصندل**"، أخرجت الراوي من مخبئه ليتربَّع في صدارة المشهد. ولئن كنتُ- في كتاباتي القصصية الأولى- مكتفياً بالمناجاة الذاتية، مغضياً عن الانتباه إلى القارئ، فقد بدأتُ- مع تلك الرواية تحديداً- أشعر كأني وسط ساحة عريضة وأمامي جمهور حاشد ينصت لما أقصه عليه من متن روائي نابض بالحياة.. ذلك هو التقليد القصصي المعهود في العالم أجمع، مثله في ذلك مثل التقاليد القصصية في الصين. وقد سبق لي أن حاولت التعلم من اتجاهات القصة الحديثة في الغرب، وجرَّبت أساليب مختلفة في السرد، وحاولتُ أن أطرق مداخل متنوعة للكتابة والرؤى القصصية، ثم عدت أخيراً إلى النمط التقليدي. وبالطبع، فلم تكن تلك العودة إلى تقاليد الكتابة القصصية نهاية الشوط، وانقطاع المدار؛ ذلك أن الكتابات التي

أعقبت رواية "الإعدام فوق خشب الصندل" كانت تجمع بين تقاليد الكتابة القصصية الصينية التراثية وبين تقنيات القصة الغربية. وليس الابتكار في الكتابة القصصية سوى حاصل ذلك المزيج وخلاصة تفاعلات الدمج بين تشكيلة فارقة من خصائص، بل هو خلاصة ومظهر الالتقاء بين القصة وألوان شتى من الفنون؛ وبهذا المعنى، فقد كانت كتابة "الإعدام فوق خشب الصندل" محاولة دمج أسلوب السرد في الكتابة الروائية بأنماط من فنون المسرح الغنائي الشعبي، مثلما كانت بعض كتاباتي الأولى تفيد من عناصر مستقاة من الموسيقى والفنون، بل استعراضات الأكروبات والسيرك الشعبي.

وأخيراً، فاسمحوا لي بأن أحدثكم قليلاً عن رواية "**مكابدة الحياة والموت**"، والعنوان مقتبس عن التراث البوذي. وترجمته، فيما أعلم، تشكل عبئاً على عاتق أي مترجم. ولست ضليعاً في التراث البوذي القديم، وكل ما أعرفه في هذا الباب لا يعدو مجرد قشور، أما السبب الذي دعاني إلى الحديث عنه الآن، فينبع من إحساسي بأن كثيراً من المبادئ الفكرية البوذية تمثل وعياً كونياً أصيلاً، فتنظر إلى كثير من النزاعات بين الناس، بوصفها ترّهات وخصومات جوفاء، ومن ثم يبدو عالم البشر، وفق هذه الرؤية المتعالية، محل أسًى، مستحق للرثاء والإشفاق. ولم أحفل في روايتي تلك بكتابة وعظية، بل تناولت الجانب الانفعالي ونوازع القدر الإنساني. وكان التركيز كله على الإنسان في تسامحه وكرم خصاله، مقابل ضيق أفقه ودناءته؛ ثم وهو يبذل روحه إخلاصاً لمبادئه، أو ساعياً بدأب لأجل سعادته. إن شخصية "لان ليان" بوقوفها، موقفاً فردياً متحدياً، في وجه تيار الزمن، تبدو لي مكتملة لمعاني

البطولة الحقيقية؛ والنموذج الأصلي لهذه الصورة، مأخوذ عن شخصية حقيقية لأحد القرويين ممن يقيمون في بلدة متاخمة لنا، كنت أراه دائماً، في صباي الباكر، ماراً أمام بيتنا على الطريق الرئيسي، يدفع عربة بعجلات خشبية تصدر صريراً حاداً وهي تدور بصعوبة، والعربة يجرها حمار أعرج، وثمة امرأة قصيرة الساقين تسحب الدابة بجهد خارق. فكان هذا المنظر الذي بدا لنا غريباً بدأبه الانعزالي، وفريق عمله المحدود، في زمن العمل الجماعي ومجتمع الكتل العاملة.. أقول، كان المنظر لافتًا بغرابته، وتحديه لسمة العصر السائدة وقتئذٍ، فكنا نراه، حتى ونحن صبية، مشهداً لأحد المهرجين ممن يعاندون مسار الزمن، حتى صرنا نقذف الرجل بالطوب والحجارة كلما مرّ بطريقنا. وبعد سنوات طوال، ولما كنت جالساً ذات مرة، وقد تناولت القلم وهممت بالكتابة، لاحت في ذهني فجأة صورة تلك الشخصية، فأدركت أني لابد سأكتب يوماً رواية أضمنها إياها، وأني سأقص على الناس، حتماً، حكايته. وبقيت الفكرة في رأسي حتى زرت أحد المعابد في 2005، وطالعت على الجدران صورة "الأقسام الستة الكبرى في عجلة الكارما المقدسة"، وهنالك تجلت أمامي الطريقة المثلى لكتابة الرواية.

كان حصولي على جائزة نوبل مثار جدل واختلاف في الآراء. وفي بداية اللجاج حول هذا الموضوع، ظننت أن موضوع الجدل يتعلّق بي شخصياً، ثم ما لبثت أن شعرت بأن الجدل يدور حول شخص آخر غيري، وبأني مثل أي واحد من مشاهدي عرض مسرحي يدور أمامه، أنظر إلى أحد الحاصلين على الجوائز، وقد نُثرت فوقه الورود تارةً، ورُمي بالحجارة تارةً أخرى، أو ألقيت

عليه قاذورات الطريق، حتى خفت عليه أن تنحطم معنوياته، إلا أنه شق طريقه وسط الورود والأحجار، وراح يزيل ما علق به من أوضار، ويواجه الجمهور بكل هدوء وثقة، قائلاً: إن الطريقة المثلى التي يكشف فيها الكاتب عن مكنوناته هي إبداع الكلمة بالكتابة، وقد قلتُ كلمتي في ثنايا كتاباتي، وربما تبدد الحديث الشفاهي أدراج الرياح، بينما تبقى الكلمة المكتوبة مدى الآباد. كم أتمنى لو صبرتم على قراءة ماخطَّه قلمي، وليس لي أن أدفعكم دفعاً إلى قراءة أعمالي، بل حتى لو قرأتموها فلست أطمح إلى أن تبدلوا أفكاركم عني أو تغيروا وجهة نظركم فيّ؛ ولاأظن أن في الدنيا كلها كاتب استطاع أن يقنع الناس بأن تجتمع على حبه والشغف بإبداعه، لا سيما في عصرنا الحالي.

رغم أني لا أجد ما يستحق الذكر، فلابد في هذه المناسبة أن أقول شيئاً، وإني لمحدثكم بإيجاز بضع كلمات أُخرى.

بما أني قاص، فسأروي عليكم حكاية قصيرة.

في ستينيات القرن الماضي، كنت- وأنا تلميذ في الصف الثالث الابتدائي- قد ذهبت في رحلة مدرسية إلى معرض يضم صوراً للمحن والمآسي والأوقات العصيبة. وتحت إشراف معلم الفصل وبتوجيه منه، انهمكنا في البكاء والعويل، ولم أشأ أن أمسح الدموع؛ إمعاناً في إظهار ملامح الحزن، ترضيةً للمعلم المرافق لنا. ولمحت بعض الزملاء يعتصرون عيونهم ويجتهدون بكل طريقة في إغراق وجوههم بمظاهر الحزن، مثلما كان هناك

آخرون ينتحبون بانفعال حقيقي، سوى زميل واحد فقط لم يشاطرنا تلك الانفعالات، المزعوم منها والأصيل، بوجه خال من دموع وفم لا يفتر عن نأمة أسى، ولم يكن يحاول حتى أن يداري ملامحه التي لم يبن فيها أي أثر لمشاعر متجاوبة مع مظاهر الانفعال من حوله، بل كان ينظر إلينا مشدوهاً ووجهه مليء بالحيرة والذهول؛ مما دعاني فيما بعد أن أبلغ أمره إلى معلم الفصل، حيث تقرر لفت نظر الدارس بإنذار عقابي. وبعد مرور عدة سنوات على هذه الواقعة، قابلت المدرس، وأبديت له ندمي عن قيامي بالإبلاغ عن سلوك زميلي هذا، وأن الأمر لم يكن يقتضي مني التصرُّف على هذا النحو؛ وإذا بالرجل يفاجئني بأني لم أكن الوحيد المبلغ عن زميل لي، فقد كان هناك عدد آخر من الدارسين ذهب إليه، وتم الإبلاغ عن السلوك نفسه، وبالطريقة نفسها. وإذ علمت أن زميلنا هذا توفّي منذ سنوات، فقد تعاظم إحساسي بالندم، كلما طاف بذهني ذكر ما جرى. إن أهم ما رسخ في وعيي بعد سنوات من هذه الحكاية يتمثل في أنه: عندما ينخرط جمهور عريض في البكاء، فلا بأس من أن يستعصي الدمع على بعض العيون، فعندما يصير النحيب لوناً من الاستعراض الدرامي، فلا بد أن يبقى هناك بعض ممن لا تنحدر من أحداقهم الدموع.

ثمة حكاية أخرى: منذ ثلاثين عاماً، وأثناء مدة خدمتي بالجيش، كنت ذات مساء جالساً بالمكتب أطالع كتاباً، وإذا بالباب يوارب ويدلف منه أحد الضباط، ليلقى نظرة سريعة على المكتب المقابل لي، ثم يقول، كالمحدث نفسه: "أوه، أليس من إنسان هنا؟" فانتبهت واقفاً، وأجبته بأعلى صوتي قائلاً:

"ألستُ بإنسان موجود أمامك هنا!" تأملني الرجل مضطرباً، وتراجع خارجاً في حرج بالغ. ظللتُ بعدها أحسد نفسي على شجاعتي في هذا الموقف، وأعده أحد مآثر البطولة. لكني وبعد مرور عدد من السنين، صرت أشعر بوخز الندم.

أرجو ألا تضيق صدوركم بحكاية أخيرة كان جدي قد رواها لي، منذ أعوام خلت: كان ثمانيةٌ من عمال البناء قد خرجوا للعمل، فلما اشتدت العاصفة بالخلاء وانهمر المطر مدراراً، احتموا بأحد المعابد، ريثما يصفو الجو وتهدأ الأحوال. لكن الرعود بالخارج تزايد قصفها، وأخذ البرق يلقي على الأرض بشواظ من لهب، حتى اكتنفت النار جدران المعبد، واشتد عزيف الريح في الأجواء، وصارت دمدمتها تحاكي هدير تنين في خلاء، فاستولى الذعر على قلوب أولئك النفر المختبئين بالمعبد، وقال أحدهم لرفاقه: "لست أظن إلا أن أحدنا قد ارتكب مثالب أحنقت علينا أقدار السماء، فترصدت لنا وأحدقت بنا من كل صوب، نقمةً وعقابًا، فلينظر الآثم لنفسه مخرجاً، وليتقدم خارج المعبد ليلقى جريرة فعله، فيجنِّب الأبرار والمظلومين جناية شروره، فلايؤخذ البريء منا بذنب الجاني." وبالطبع، فلم يكن ثمة مَن يخرج بنفسه إلى حتفه تلك الساعة. وبادر أحدهم إلى فكرة اقترحها عليهم، قائلاً: "مادام الجميع قد بقي مكانه يعاف الخروج، فليرمِ كل واحد منا بقبعته خارج باب المعبد، حتى إذا رأينا الريح قد جرفت إحداها، كانت تلك علامة على تأثيم صاحبها، وإشارة إلى وجوب خروجه ليمثل طائعاً أمام عدالة مؤاخذته وحسابه". فلم يلبث الكل أن قذفوا بقبعاتهم إلى خارج المعبد، بيد

أن سبعاً من القبعات رجع بها تيار الهواء إلى الداخل، سوى واحدة دارت بها دوامات عاتية، فنصح العمال زميلهم بالخروج ليلقى عاقبة أمره، لكنه أحجم عن البروز إلى الخارج، فحملوه جميعاً وألقوا به خارج البوابة. وأظن أن خاتمة القصة يمكن التنبؤ بها، وتقدير ما انتهت إليه.. ذلك أن العمال، فور إلقائهم بزميلهم خارج الأسوار، انهدم المعبد فوق رؤوسهم.

فأنا مشتغلٌ بالحكي والرواية.

ولأني مشتغلٌ بالحكايا، فقد حصلت على جائزة نوبل.

ومنذ حصولي على الجائزة، وقعت أحداث وحكايات بالغة الدلالة، أهم ما فيها أنها زادت ثقتي وإيماني بالحق والعدل.

سأبقى، فيما هو آتٍ من الأيام والسنين، أواصل الحكي دائماً أبدًا!

شكراً لكم جميعاً!

مُو يَـــان

الثَّــور

(1)

أيام تلك الأحداث، كنتُ صبيًا يافعًا.

أيامها كنتُ مُزعجاً، جلاَّب مصائب.

كنت أكثر شبان القرية طيشًا؛ فـأعرض عـني النـاس، وفـاض مـنِّي الكيل.

إعراض النـاس عـني- في تلـك الأيـام- ونفـورهم كان أمـرًا واقعًـا وحقيقيًا، لم أدركه رغم أني كنـت موجـودًا بيـنهم، أتنقـل في الأنحـاء مـع الرائحين والغادين. وكثـيرًا مـا كانـت قـدماي تقـوداني إلى حيـث تقـوم المشاكل ويثور اللغط دائماً، فأمد أذني أسترق السمع، أيًّا مـا كان موضـوع الكلام أو أشخاص المتجادلين. وسرعان ما أندس بين الـصفوف أتـابع كل ما يُقال كلمةً بكلمة، سواء أكنت فاهماً للقضية موضوع النقاش أو غير

فاهم؛ ثم أقوم وأطير طيرانًا إلى كل ركن في القرية، أنقل وأذيع ما سمعته ورأيته إلى كل من يصادفني، كبيراً كان أو صغيرًا. فإذا لم أجد في طريقي لا الكبير ولا الصغير، رحت أكلِّم نفسي، وأردد لحالي سيرة الوقائع التي رأيتها؛ خشية أن تنكتم الأخبار فتنفجر في باطني. ولم تكن المشكلة في حدوث مثل هذا الانفجار، بحد ذاته، لكن في أن تطيح شظاياه بما أتصوره من حب الناس لي. ومن جانبي، فلم أتوان عن أن أسلك أي طريق يجلب إليَّ اهتمامهم ورضاهم، حتى أوقعني هذا المطلب في ارتكاب سخافات مهولة.

مِن ذلك مثلاً، ما حدث عصر ذاك اليوم الذي اجتمع فيه عدد من الناس عند شجرة الصفصاف يلعبون "البوكر"، فدنوت منهم، وفكرتُ في أن أجذب انتباههم، فوثبت وثبة فهد على جذع الشجرة، وجلست على فرعها أقلِّد صوت طائر الوقواق، وبقيت طويلاً أردد هتافه دون أن يكترث لي أيٌّ من الموجودين بالقرب مني. فانتابني الضيق، واتخذت من موقعي- أعلى الفرع- مرصدًا لساحة اللعب، ورحتُ أرمق اللاعبين والأوراق. وما هي إلا لحظات حتى كان فمي يتشوق إلى الفضول والثرثرة، وقلت في نفسي ها هي ذي اللحظة قد حانت من تلقاء نفسها، فزعقت بأعلى صوتي: "فلان سحب الآن ورقة الشايب!". ورفع فلان رأسه متطلعًا إليَّ يتوعدني: "إن لم تبطِّل، فسأطلع إليك أُزهق روحك". فلما سحب علاَّن الآخر ورقة الآس، لم أتمالك أن صحتُ في الجمع الواقف تحت

الشجرة: "الحقوا.. علاَّن يمسك الآن في يده بورقة الآس!". فما كان من علاَّن هذا إلا أن صرخ فيَّ: "إن كان فمُك يوجعك من الحكَّة، فسأُلقمك حجراً يشفي أوجاعك!". ولم أبطِّل، ولا حتى أُلقي في فمي بحجر يشفيني، بل ظللت أنادي وأزعق وأثرثر حتى ضج الناس، وراحوا ينعتونني بكل رذيلة على ألسنة القُبح السبعة، فأجبتهم من جنس ألفاظهم، ورددتُ عليهم شتماً بشتم؛ فلم يطيقوا الاستمرار على طاولة البوكر، وأخذوا يجمعون الحصى والزلط من تحت أرجلهم، وهم يصطفون كصفوف مشاة جيش، ويرمونني في نفَس واحد، في محاولة هجومية كنت أظنها - أول الأمر - مجرد مناوشة، سرعان ما تنقضي، شأنها شأن المزاح الثقيل، إلى أن ارتطمت برأسي زلطة مترصِّدة ارتجَّت لها دماغي رجةً عنيفةً تردد صداها كمثل جلجلة النواقيس.. ووونننننغ.. وفي إثرها ثلَّةٌ من نجوم لامعة انبهر لمرآها النظر. ولحسن الحظ أني كنت مستندًا إلى فرع متين أحتضنه، فمنعني من السقوط، وقد كدتُ يُغشى عليَّ. وأدركت أن الأمر أبعد ما يكون عن التهريج السخيف، وأردت الاحتماء من الأذى، فتسلقت أعلى فرع ظننته مأوًى في ساعة الشدة، فإذا هو حطبٌ ذابل، ما إن أسرعت إليه حتى أسرع بي فأخذني من ذراعي، فنزلنا معاً، إلى البركة الآسنة الموحلة. وأصدر الارتطام طرطشة مهولة تناثر منها الماء، ما سال منه وما تطيَّن.. أي كان وحلاً فتيبَّس كالصلصال، وصارت له قرقعة مسموعة أثارت ضحك الواقفين، فأسعدني ضحكهم بحكم ما كان يعنيه

من زوال الـضغينة عـليَّ. أسـعدني فعـلاً، بـرغم هيجـان الدم في دمـاغي المرضوضة، وكتل الوحل الذي غرقت فيه، وأغرقني مـن رأسي إلى إخمـص القدم، حتى أيقنت- وأنا أتملص زحفاً للخروج من البركة الطينية كالقرد الموحول في شبرٍ ماء- بأني أنا الذي اندفعتُ إلى الفرع عامداً، على نحو غير مفهوم، أن يحدث ما حدث فأكون موضع انتباههم، ويضحكون مما ألمَّ بي، وأصبح باعثًا على سرورهم. لكن رأسي كانت تـؤلمني إلى حـدٍ مـا، والدم يتدفق فيها مثل حشرات تزحف نازلةً من قشرة يافوخي، دافئةً طريـةً إلى وجـهي ورقبـتي. وكان الواقفـون يحملقـون فيَّ، وأنـا أنظـر إليهـم وألحـظ ملامحهم المتفحِّصة. فلما أسـندتُ جـسمي المـترنح إلى جـذع الـشجرة، سمعت أحدهم يزعق في فزع: "يا خبر.. يظهر أن الـولد مقطـوع النفـس، وليس ببعيد أن تطلع روحـه"؛ فحـطَّ الذهـول على الجميـع، ثـم صـاحوا ببعضهم بعضًا وتفرقوا من حـولي، كمـا تتفـرق الـريح أشـتاتاً في خـلاء، فتضايقتُ وملتُ بظهري إلى الوراء، وغام الوجود أمـامي، ووقـع على عيـني النوم فنمت.

عندما صحوت، كانت جمهرةٌ من الناس تتحلق حول الشجرة، عرفت من بينهم عمي "ماليـان" ذا الوجـه المجـدور، وكان وقتهـا يتـولى منـصب رئيس إحدى وحدات الإنتاج. نظرتُ فوجدته يُنهضني من رقـدتي.. "قُـم، اصح يا روهان". كان يناديني باسمي الذي عُرفت به أيـام طفـولتي الأولى، قال: "مالك؟..ولماذا جئتَ إلى هنا؟.. كيف جرحتَ رأسك هكذا؟ انظر إلى

نفسك، وأنت في غاية البهدلة.. وأمك دارت بالبلد لم تترك ركنًا إلا بحثت عنك فيه، وهي تنادي وتسأل حتى ضاع صوتها صياحاً عليك، وأنت هنا تتسكع في منتهى الاستهتار.. قُم.. قُم بسرعة وعُد حالاً إلى البيت".

تحت شمس النهار، شعرتُ بدوخة تلف رأسي وسمعت عمي يقول: "نظِّف نفسك من الوحل الذي على رأسك وجسمك.. أسرع، لا تضيع الوقت".

أطعتُ أمره، فأقعيتُ لدى شط البركة، ونثرت الماء فوقي فوجدته باردًا يؤذي جرح رأسي كلما انغمر به، فيعاودني الشعور بالألم. ووقتها كنتُ قد نظرت فلمحت العم "دو"، المسئول عن تربية المواشي في فريق الإنتاج، وكان يسحب ثلاثة ثيران ويأتي بها ليسقيها، وهو يقودها ويزجرها بطريقته المميزة، متوعدًا إياها: "لا.. هذا لا ينفع أبدًا.. هيا أسرعوا، أسرعوا ولا تخافوا.. الخوف لا فائدة منه، المثل السائر يقول: "العروس ذات الوجه العبوس لابد ستلتقي بحماتها مهما طال الزمن".. يعني الشُّغل شغل مهما حصل!".

لم تكن الثيران الثلاثة تحمل في أنفها حلقات، وكانت ترفع رأسها عالياً تعاند سائقها وتختبر قوتها مع عضلاته، مثلما اعتادت- في مرات كثيرة- عندما كنت أراقبها وهي تتمرد وتتحدى، بحكم صداقتي الطويلة معها. ولطالما كنت أقودها مع العم دو، أيام الشدة الطاحنة،

الممتدة من الشتاء الماضي حتى أوائل هذا الربيع، إلى الأرض المغمورة بالجليد؛ فكانت تعرف بغريزتها- مثلها في ذلك مثل باقي ثيران بلدتنا- ما يجب عليها أن تعمله، إذ كانت تتصرف على طريقة الثور المغولي، فتذهب وتنبش بحوافرها طبقة الثلج، بحثاً عما تحتها من حشائش. وكانت صغيرة السن وقتئذٍ، فما كاد الشتاء ينقضي حتى كبرت، وصارت أقرب إلى حجم الثيران الكبيرة. كان اثنان منها متشابهين تمامًا، كأنهما من قالب واحد: الجسم كله لونه أصفر شاحب، بينما الفم وجزءٌ من الرأس يميلان إلى البياض، وقد نودي عليهما باسم "روشي"؛ أما الثور الآخر- ذو اللون الأحمر الداكن- فكان يصغرهما قليلاً، ويتميز بهضبتين بارزتين في ظهره، ربما لأنه كان الابن الأوحد للبقرة المغولية ذات الذيل المعوج؛ وبسبب تفرده هذا، فقد أسميته "شوانجين" (ذا الهضبتين). والمشكلة أنه تفرَّد أيضًا بخصال رديئة همجية؛ فكم رأيته في المرعى- إبان الشتاء الماضي- يطارد أمه ويثب فوق ظهرها. ولم يكن العم دو يكترث لهذا الانتزاء الغريب، باعتبار أن الأمر سيان، وأن امتطاءه لها مثل عدمه؛ لكنه سرعان ما اكتشف أن أخينا هذا ليس صغيرًا إلى ذاك الحد، وأن الموضوع يمكن أن يصل إلى اقتراف آثام بشعة بغير وازع من ضمير؛ فجاء بحبل غليظ وربط ساقيه الأماميتين. ثم بدا أن القيد- على هذا النحو- لن يسلبه مقدرة امتطاء أية أنثى، بما في ذلك أمه التي حبلت به. وكنتُ أذكر للعم دو كلمة قالها ذات مرة: "الخيول مثل أولاد الناس، لكن

النعاج والبقر أحقر الأجناس".

"اسمع يا عم دو.. أنت خطوتك بطيئة جـدًّا، ليتـك تحـاول أن تـسرع قليلاً!" هكذا صاح عمي ماليان، وهو يواصـل قـائلاً: "لـيس معقـولاً أن تمشي هكذا على مهل، ورفيقنا المحترم "لاو تونغ" ينتظـرك على أحـرٍّ مـن الجمر".

عند واجهة منزل آل "شياوجي"، كان الرفيق لاو تونغ جالسًا القرفصاء يدخن لفافة سجائر، ويقول: "كلها حاجاتٌ بسيطة.. لا تـستعجل، امـش على مهل.. على أقل من مهلك، لو أحببت".

الرفيق لاو تونغ رجلٌ طويل القامة، داكن البـشرة، شـفتاه رقيقتـان تميلان إلى السمرة، عيناه غائرتان في محجريهمـا، ويـضع فوقهمـا نظـارة سوداء، جسده يميل إلى النحافة، وهو- على أية حال- الطبيـب البيطـري المعين في النقطة البيطرية التابعة للكومونة الشعبية، التي هي عبـارة عـن مزرعة جماعية يملكها ويزرعها مجموعة من الفلاحين. رفيقنـا هـذا كان مُدخنًا شرهاً، السيجارة في يده يُشعلها من سيجارة، ويظل يسعل ويـشتد به السعال حتى يكاد ينشرخ صدره. ما بين إصبعه الوسطى والـسبابة في اليد اليمنى صُفرةٌ واضحة، تشي بتاريخه السجائري العريق. وطريقتـه في وضع اللفافة بين إصبعيه جذابـةٌ جـداً، أشـبه مـا تكـون بطريقـة أداء مغنيات المسارح، وهن يُدلين بزهرة "لان هوا" بين أصابعهن، في شيء من

الروعة الساحرة والفتنة التي ليس لها حدود؛ حتى صرت مولعاً بتقليده في هذا إبان مراهقتي.

أسرع العم ماليان وراء الثورين الأخوين "روشي"، فضرب كلاً منهما على قفاه، ثم انعطف على شوانجين فركله، فتواثبوا ثلاثتهم سراعاً حتى بلغوا شجرة الصفصاف.

لما هرولت الثيران سحبت وراءها العم دو، مع أنه هو الذي كان يجرها أصلاً، فأخذ يلهث في إثرها، ويغمغم قائلاً: ".. ما هذه العافية التي حلَّت عليكم.. هل تأكلون زلطاً!"

زجره عمي ماليان بشدة: "ما لك تهمس لنفسك وتتباطأ هكذا؟.. أليست عندك همَّة لكي تلحق بنا.. كم نبَّهتُ عليك بإحضار الثيران والمجيء إلى هنا قبلما يمضي الوقت".

قام الرفيق لاو تونغ واقفاً، وهو يقول: "ولماذا الاستعجال؟ المسألة كلها لا تحتاج إلى أكثر من بضع دقائق".

"بضع دقائق؟ تقصد أن إخصاء البهائم لا يأخذ إلا دقائق؟"، وأخذ العم دو يهز رأسه الصلعاء، ويحملق بعينيه متسائلاً: "كيف يكون الأمر هكذا، يا أستاذ لا تونغ.. هل تظن أنك تحكي لناس لا يفهمون كيف تُخصَى الثيران.. لعلمك، هذه ليست أول مرة أحضر فيها عملية إخصاء للمواشي".

بلفافة التبغ المائلة في طرف فمه، وحزام بنطاله في يده، جـرى الرفيـق لا تونغ وراء جذعِ الشجرة فاستقبل حافة البركـة، وأخـذ يبـول في المـاء. فلما انقطع صوت طرطشة البول استدار راجعاً، وهو يباعد ما بين سـاقيه قليلاً، ويشبك الأزرار في فتحة بنطاله، ثم يمسح كفيه ويزر بعينيه حـتى تضيقان، ويسأل محدثه: "وأنت.. متى بالـضبط شـاهدت عمليـة إخـصاء ثيران، على قولك؟"

قال له العم دو: "ذلك كان قبل زمن التحرير.. وكانت عملية الإخـصاء معروفة، وكثير من الناس يعملونها للثيران، بحيث كانـوا يجيئـون بفتائـل من كتان مُشرب بالزيت، ويربطونـه حـول الخـصيتين، ثـم يعتـصرونهما بدرجة تقطع عنهما دوران الدم، ويأتون بعصًا مـن الأبنـوس، زلقـة مـن كثرة التزييت، ويفتتون بها الخصية المغطاة بقطعة من القماش ومـسنودة فوق قالب من الحجر، ويستمرون في الدقّ بها حتى تنهرس الخصية، ومثل هذه العملية كانت تحتاج إلى نهار بطوله لثور واحد، وكنتَ تنظر في عيـني البهيمة فتجدها تدور كالمجنونة، حتى يتـوه الـسواد في البيـاض فيغـشى عليها، وتظل تخور وتزعق كأنها في طلوع الروح".

نفخ الرفيق لاو تونغ عُقب السيجارة المدلى من فمه فطار بعيداً، وقـال بشيء من الاحتقار: "تلك كانت طرقًا همجية عتيقة، تخلصنا منهـا الآن، لكن ما تقوله كان زمانًا ومضى.. زمانًا عانى فيه الإنسان والحيوان أيـضًا؛

فلم تكن الظروف ترحم أحداً".

أضاف عمي ماليان: "يا سلام.. هذا هو الكلام، نحن الآن في المجتمع الجديد.. الكل يعيش فرحانًا، سواء كان إنسانا أو بهيمة!"

تكلم العم دو بصوت خفيض جدًّا: "لكننا نحن لم نسمع في المجتمع القديم عن حكاية إخصاء الذكور هذه، أصبحنا الآن نسمع عن إخصاء الكل، سواء كان حيوانًا أو حتى إنسان".

قاطعه عمي ماليان قائلاً: "أنت يا كبير يا أهبل.. يا من اسمك دو.. اسمع، إذا كنت تحس بأنك عشت وزهقت من العيش، فاطلع إلى بيتكم الآن بسرعة واشنق نفسك.. وارحمنا من التخريف والكلام الفاضي!"

رمش دو بعينه، فظهرت القُرحة التي أصابت جزءًا من الجفن، وقال: "وأنا.. ما الذي قلته بالضبط؟ أنا لم أقل شيئًا".

رفع الرفيق لاو تونغ رسغه عاليًا، ونظر في ساعته، وقال: "نبدأ حالاً.. استعد ياريِّس.. ليتك تراقب الوقت وتنظر كم تستغرق العملية مع كل ثور من هؤلاء".

في الحال، كان الرفيق لاو تونغ يخلع ساعته ويسلمها إلى العم ماليان، وأخذ يشمِّر أكمامه ويعدل الحزام حول وسطه، ثم أخرج من جيبه مطواة

ذات نصل لامع، شكلها أشبه بأوراق شـجر الصفـصاف، لكنهـا- في عـز الشمس- كانت تبرق، وينعكس على سـطحها لألاء ضـوء النهـار. ومـن جيب بنطاله الكبير، أخرج علبة صغيرة داكنـة اللـون، وفـتح غطاءهـا، والتقط منها بإصبعيه قطنة مستديرة مغموسة بصبغة اليـود، فمـسح بهـا على نصل المديـة، ثـم ألـقى بهـا إلى الأرض؛ فـأسرع المـسكين "أوتـشي" بالتقاطها، ودلك بها ساقه المصابة بالجرب المزمن.

بانتباه شديد، قال الرفيق لاو تونغ: "لما أقول لك.. ابدأ.. فلا تتـأخر يـا ريس ماليان..هيَّا، الآن ابدأ".

وضع العم ماليان الساعة على أذنه، وأمال رأسه وهو يتنصت إلى دقات الوقت، وعلى وجهه أمارات اليقظة والجـد، فجريـتُ حـتى صرتُ أمامـه، وقفزت عالياً، وفي لمح البصر التقطتُ الساعة من يده، وأنـا أهتـف: "وأنـا أيضا أريد أن أنصت إلى الساعة".

ما إن وضعتُ الساعة على أذني حتى كانـت يـد العـم ماليـان تـسرع بالقبض على رسغي بقوة، فتخطفهـا مـن يـدي دون أن أسـمع شـيئًا مـن دقاتها، وبكفه الغليظة ضربني على رأسي: "كيف، وأنت ولد مثل اللعبة، تتنطط هكذا مثل العفاريت". ثم انهال عليّ شتماً: "أنت مقـرف، جـلاب مشاكل ووجع دماغ!" ويبدو أنه لم يكن ينـوي أن تنـتهي نوبـة التـوبيخ هـذه دون أن يـصفعني بكـف حانقـة للمـرة الثانيـة. وبـرغم هـاتين

الصفعتين، فقد شملني إحساسٌ بالرضا التام؛ ذلك أني استطعت أن ألمس بكفي ساعة الرفيق لاو تونغ، وفوق ذلك فقد تمكنت حقًّا وفعلاً من أن أضعها لصق أذني، محاولاً الإنصات إلى دقاتها، وهو ما يعني أني كنت على وشك سماع دقات الساعة بأذني هاتين.

قال الرفيق لاو تونغ للعم دو إنه يحتاج الآن إلى ثور واحد فقط، وإن عليه تسليم الاثنين الآخرين إلى أي واحد من الواقفين إلى أن ينتهي من العملية؛ فاستجاب له وسحب الثورين: شوانجين، وروشي الكبير؛ فقال له لاو تونغ- بلكنته المحلية، الغريبة على أسماع أهل هذه المناطق: "عظيمٌ جدًّا.. اتركني الآن وشأني، وعليك فقط أن تسحب المواشي التي معك بعيدًا عن هنا".

أطاع دو الأمر، وهو يغمغم بكلام غير مسموع، فتكلم لاو تونغ مع العم ماليان: "أريد منك خدمةً ياريس.. عندما تراني قد مددتُ يدي في العمل، فلتبدأ فورا في حساب الوقت. وساعة أن تراني اعتدلت واقفًا، فليس عليك إلا أن تنتهي من العد.. أهذا مضبوط؟"

تردد العم ماليان، وقال له: "بصراحة يا أستاذ لاو تونغ، وبلا مؤاخذة.. أنا لا أفهم في تلك الحاجات، ولا أعرف كيف أقرأ هذا العدّاد الذي أعطيته لي".

أسرع إليه الرفيق لاو تونغ، وأخذ يشرح له كيف ينظر في الساعة

ويحسب الوقت. ولم أحفظ مما ذكره سوى بضع كلمات، قالها لماليان: "ليس عليك سوى أن تتابع هذا العقرب الرفيع، ذا رأس السهم الأحمر.. هذه سهلةٌ جداً.. ولما يدور ويرجع إلى مكانه، مرة ثانية.. يكون قد دار مرةً وتبقى هذه دقيقة، ودورة ثانية.. تبقى دقيقة بعدها، وهكذا.. سهلةٌ جداً كما ترى".

في هذا الوقت، كان العم دو قد استدار ناحيتنا، وهو يسحب روشي الصغير.

قال له الرفيق لاو تونغ: "طيب.. حوّل وجهك إلى الناحية الأخرى، وخذ الثور، واجعل وجهه إلى قُدام، ولا تُدِر وجهك إلا عندما أقول لك".

قال دو: "فماذا يحدث لو استدرت تجاهك.. على الرغم مني؟"

قال لاوتونغ: "لو استدرت فسأغرق لك وجهك بالدم".

كانت الشمس في أوج طلعتها، فبدت حواف شعر الشيران كأنها مدهونة بطبقة من زبد، والعم دو يقف أمام الثور، ويمد الحبل المربوط به على امتداده، كأنه يسحبه إلى الأمام، فإذا بالثور يثبت مكانه معانداً، وهو يرفع رأسه المربوطة بالحبل ويتقهقر بجسده إلى الوراء. كان عليه أن يتقدم، لا أن يتأخر، باعتبار أن الخطر يكمن وراءه بالضبط، حيث كان الرفيق لاو تونغ يقف ويراقب حركاته، فيما نحن جميعًا نقف وراءهما على مبعدة نحو أربعة أو خمسة أمتار، ونكاد نكتم أنفاسنا، ونحن نتابع

عكوفه على ما بيده؛ ولو أننا لم نكن نرى سوى ظهره، فسمعناه يصدر أمراً سريعا حاسما في عبارة قصيرة للغاية: "هيا يا ريس.. ابدأ الآن!" ثم تطلعنا إلى الرفيق وهو ينحني بقامته النحيلة، ورأسه في وقفته هذه قد أصبحت بحذاء القتب البارز في ظهر روشي الصغير، وقد أدخل يديه بين ساقي الثور الخلفيتين؛ ثم لم يتضح لأعيننا تمامًا ما كان يفعله في ذلك الجزء من جسم الثور، ولو أننا كنا نعرف أن ثمة ما يتوجب عليه إنجازه في الموضع المشار إليه، وهو ما كان يبدو أنه منهمك في أدائه، حتى بدأت رأسه وقفاه- وهما بحذاء قتب الثور- يتأرجحان ويتناوبان الحركة. لكن الواحد منا كان يستغرب أن يجري كل هذا، بينما الثور باقٍ مكانه دون أدنى حركة أو اضطراب، مع أن صوت لهاثه كان يتردد في آذاننا ثقيلاً للغاية، فكنت أتساءل: لماذا لا يقلب روشي الصغير أظلافه، ويرفس وجه الرفيق لاو تونغ! فبينما نحن في ذلك، إذا بالرجل قد فرد طوله واعتدل واقفاً. فلما تنحَّى عن مكانه، تراءت لعيوننا كتلةٌ بيضاويةٌ من اللحم مطروحة فوق الأرض، لونها يميل إلى الرمادي الداكن، وكانت تنقبض وتنبسط قليلاً، فيما كانت خصية الثور الأخرى مستقرة فوق كف لاو تونغ المفرودة وهو يتطلع إليها، وفي جانب فمه تدلّت المدية التي تتخذ شكل ورقة الصفصاف. فلما تكلم، نطق بلهجته المحلية في شيء من الخنَّة الواضحة، وكأن الكلام يخرج من أنفه رأساً، قال: "خلاص يا ريس.. انتهت العملية بالتمام".

"ولو أن العقرب لم يتم ثلاث لفَّات". أشار ماليان."فلنقل إنها ثلاث لفات.. يعني بالتقريب!"

بقيتْ عينا العم ماليان تدقق في ميناء الساعة، ففات عليه منظر "العرض الجماهيري" الذي قدمه الرفيق لاو تونغ، بصحبة العِجل روشي، بل إنه زعق مستغرباً: "هه؟.. يعني.. انتهيتَ من العملية؟" انتقلت عينه بسرعة إلى الكتلة البيضاوية في كف لاو تونغ، واندهش جداً: "عجيبة! في أقل من ثلاث دقائق.. تخصي عجلاً بحاله! بهذا، أنت تستأهل أن يقول الواحد عنك، بحق، إنك عفريت ثيران!"

استدار العم دو ونظر إلى مؤخرة العجل وساقيه المنفرجتين، فإذا كيس الصفن فارغ من البيضتين، والدم يقطر منه؛ فلم يلبث أن أشار عليه بمسألة ضرورية: "لكن.. مطلوب الآن يا أستاذ لاو تونغ أن تخيّط الجرح!"

أجابه الرفيق، قائلاً: "إذا كنتم تريدون أن أخيطه لكم، فليس عندي مانع، سأقوم فوراً وأخيطه، لكن ما أعرفه- بحكم خبرتي على مرِّ السنين- هو أنه يستحسن عدم الخياطة".

صاح العم ماليان بصوته الجهوري: "ما هذا التخريف الذي تقوله ياعم دو.. ألا تعرف أن الرفيق لاو تونغ طبيب بيطري متخرِّج في الجامعة وكل دراسته وخبرته- طوال عمره- في هذا الشغل.. بصراحة لا بد أن أقول

لكم كلمة.. وعساها كلمة صعبة، لكن احتملوني.. إن عدد الخُصَى التي استأصلها هذا الرجل أكثر من أرغفة الخبز التي حشوتم بها بطونكم".

"هذه مجاملة منك يا ريس!" وبينما مد إصبعيه الغارقين في الدماء، وضبط بهما النظارة السميكة فوق أنفه، مال والتقط الخصية المطروحة فوق الأرض، ووضعها مع أختها عند حافة ناتئة من جذر الصفصافة، وقال: "أسرع يا عم دو.. هات الثور، وتعال".

أخذ الثور الأصغر فسلَّمه إلى بعض الواقفين، ثم استلم من بعضهم الآخر الثور "روشي" الكبير، وتطلَّع في قلق واضح ناحية الرفيق لاو تونغ، الذي أومأ له ، بالإشارة بإحضار الثور حالاً، فلم يلبث أن سحب العجل إلى أن أصبح قُدامه. وكان "روشي" الكبير كأخيه الأصغر حروناً، يحجم عن المشي كلما نخسوه، فتعاطفتُ معه، وداخلني الهم لأجله.. فما الذي يمنعك يا روشي الكبير من أن تهرب، تقفز وتنسل ناجياً بجلدك مما يسوقونك إليه. أما دريت بما حصل لأخيك الأصغر؟ وأقعى الرفيق لاو تونغ على الأرض دون أن تتردد في حلقه نأمة صوت، بينما انشغل العم دو عن النظر في ميناء الساعة بمراقبة الطبيب لاو تونغ. ثم إننا خطونا بأقدام لا نملك لها تقييدًا صوب الموضع الذي استلمه الطبيب ذو الدراية؛ فما هو إلا أن لمحنا كتلة بيضاوية رمادية اللون تتدحرج فوق كومة تراب ساخنة. ولم نلبث حتى رأيناه يستلم بكفه الخصية الثانية، ويضع

المدية المسحوبة الشكل كورقة صفصافة في جانب فمــه، فيعتــدل واقفــاً. وحينئذٍ، سمعنا العم دو وهو يخبط على فخــذه قـائلا: "اســمع يـارفيق لاو تونغ.. أنا من هذه اللحظة مُصدقك لو قلت أي شيء.. وسأكون ابن كلــب لو جادلتك في أي حاجة!.. هذه بحق خفة يد لـم أر لها مثـيلاً.. ولا حــتى خفة يد "سونزي"، الذي قيل في الأمثال إنه يقطف الثمر من يد الحــارس، وعينه مفتوحة!"

أخذ رفيقنا خصيتي "روشي" الكبير، ووضعهما أسفل الـشجرة بجـوار الاثنتين الأخريين، ثم استدار عائداً وهو يثبت النظـارة على حافـة أنفــه، بطرف إصبعيه المصبوغين بالدماء، وأشار بحركة من ذقنه إلى العم دو بـأن يأتيه بالثور شوانجين.. ذي السنامين، لكن الرجـل نظـر باسـتعطاف إلى ماليان قائلاً له: "هل يمكن يـا ريـس أن تـدع هـذا الثـور، على سـبيل الاحتياط للظروف؟"

رد عليــه: "احتيــاط لمــاذا؟ فأنــا سـبق أن قلــت لكــم مائــة مــرة، وأوصيتكم بأن تأخذوا بالكم من هذا العجل، فماذا فعلتم؟ لم تفعلــوا شيئًا، وتركتم العجل ينزو على البقر.. وكل خوفي أنه قد يتـسبب في إفــساد السلالة التي في بطون الأمهات!"

ألقى الرفيق لا وتونغ بالمدية المدلاة من جانب فمــه؛ أو قُــل بالـضبط، إنه تفلها، أي نثرها كالبصاق، وسأل مأخوذاً: "ماذا تقولون؟ هل هذا الثــور

يُسافد الإناث؟ هل سبق له نتاج من البقر؟"

انبرى لساني على الفور، مقاطعاً المتحدثين: "كل البقرات في وحدتنا الإنتاجية.. الثلاث عشرة بقرة كلها انتزى عليها، وحملت منه.. حتى أمه، وثب عليها وأولدها عجولاً!"

صاح بي العم دو: "أنت ولد عبيط، وقليل الأدب.. لم تتأدب وتعرف أن التدخل في كلام الناس عيب.. هل أدبك أحد؟ ما شأنك بهذا الكلام، وأنت حتى لا تعرف من أية فتحة يبول البقر!"

قلت: "رأيته بعيني هاتين، وهو يسافد كل البقر في الوحدة، أنا وحدي الذي أعرف ذلك من دون الناس جميعاً، ولما أقول هذا، يكون كلامي صادقاً، العم دو لم يشاهد شوانجين إلا وهو يقفز على ظهر أمه فقط، وظن أنه إذا ربطه من رجليه انتهت المشكلة، وسحب البالطو الثخين المبطن بالفراء وراح ينام عند شاطيء المصرف، وقال لي: اقعد هنا، اجعل عينك على العجول؛ لكني كنت أنا الذي شاهدتُ الواقعة كلها التي حصلت بعد ذلك، لما قامت قومة "روشي" الكبير وأخيه الأصغر، وصارت ديوكهما تنتصب من تحت بطنهما، رفيعةً وحمراء مثل قرون الفلفل، وراحا ينطان على ظهر البقرة، فاستدارت هي ونطحتهما؛ لكن شوانجين غيرهما؛ لأنه كان لئيمًا يخفض رأسه، ويتظاهر بأنه يأكل العلف، وبهدوء تام وبكل خبث يلتصق بجانب البقرة ويبقى ساكنًا لفترة، ثم.. بم بم.. ينطلق ديكه

الصغير فجأةً ويقفـز بقوائمـه على ظهرهـا. وسـاعتها جريـت وأمسـكت العصا، وبقيت أنخسه في مؤخرته حتى ينزل عنها، وهـو لا يـنزل ولا يهـتم بأي شيء".

كنت فرحاناً أني تكلمتُ على راحتي، لكني سمعت العم ماليان يـزأر غاضبًا، فخُيِّل إليَّ أن الأرض وقعت عليها صاعقة، وركبـني الخـوف وأنـا أرى وجهه ينقلب إلى الزرقة من الغضب، بينما عينـاه تـصوبان نظـرات تهديد تكاد تنغرس فيَّ كالمخرز.

"كل المشرفين هنا- سـواء الـسابقين أو الحـاليين، الذيـن تعـاونوا مـع المجلس المحلي، وأنا واحدٌ منهم- كانوا ناس طيبـين وأخلاقهـم عظيمـة، ولا يمكن أن يحصل في وجودهم هذا الـكلام الدنيء!" وبخبطـة مـن كفـه المفرودة، أطاح بي العم ماليان بعيداً، ثم قلب وجهـه ناحيـة دو وقـال له: "ماذا تنتظر.. اسحب الثور، وتعال!"

قال الرفيق لاو تونغ: "اهدأ قليلاً.. وأمهلني حتى أرى".

مال الرجل بوسطه، ومد يده بـين سـاقي شـوانجين يتحـسس الموضـع المقصود، فتقلص جسد الثور، ودفع ساقيه القـويتين إلى الخلـف، فـرفس الرفيق في ركبته، فتأوَّه من الألم وسقط على إليته.

أسرع إليه ماليان، وأسنده حتى وقف، وسأله باهتمـام: "على مهـل يـا أستاذنا.. خير، هل حصل لك مكروه؟"

انحنى لاو تونغ، وهو يمسح على ركبته برفق، ويزم شفتيه حيناً، ثم قال: "لا.. جاءت سليمة.. هذا شيء بسيط".

راح العم دو يضرب ظَهر شوانجين بكفه، وهو يبستم ضاحكاً، ويقول: "يا ابن الأنذال..كيف تجرؤ على رفس الرفيق لاو تونغ؟ أنت هكذا طوال عمرك.. حَرُون وطائش!"

مشى الطبيب- وهو يعرج بقدمه- حتى وصل إلى جدار بيت عائلة شياوجي. ولما وجد نفسه تحت تعريشة البوابة، واطمأن إلى الظل المفروش عندها، أقعى على الأرض، وقال: "ابحث لي عن حل يا ريس ماليان.. فهذا الثور لن أعمل له عملية إخصاء!"

سأله بلهفة: "لماذا؟"

أجابه قائلاً: "إذا كان قد نزا كثيرًا وتسافد مع البقر، فمعنى هذا أن شرايينه أصبحت غليظة، وأية محاولة قطع غير مضبوطة، سوف تسبب نزيفاً دامياً".

قال ماليان: "وهل تصدق أنت هذه التخاريف التي يقولونها؟ هذا مجرد ثور صغير، أصغر حتى من الاثنين الآخرين؛ ثم إنه مولود بعدهما بشهرين!"

مد الطبيب يده، وقال لـ ماليان: "أعطني.. بعد إذنك".

سأله مستفسراً: "أعطيك ماذا؟"

قال: "الساعة.. ساعتي من فضلك".

رفع ماليان يده، وتأمل الساعة وهي مشدودة فوق معصمه، وقال: "وهل معقول أن أحجب عنك ساعتك، وآخذها لنفسي؟ شيء غريب فعلاً!"

قال له الطبيب: "وهل فتحتُ فمي بهذا؟ أنا لم أقل إنك تحجبها عني، وتأخذها لنفسك".

كلمه ماليان: "اسمع يا أستاذ لاو تونغ.. نحن عملنا المستحيل لكي نأتي بك اليوم؛ فقط لكي تأتي مرةً واحدةً إلى هنا.. اسمعني بهدوء، وافتح أذنيك جيداً، فنحن هنا ظروفنا صعبة بأكثر مما تتخيل.. ليس فقط بالنسبة للمحاصيل وخلافه، بل حتى الحشيش الأخضر نلاقيه بصعوبة.. وإلا ما كنا نضطر إلى أن نرعى البقر في عِز البرد. ويا ليتنا نجد له العلف على قدر المطلوب دون نقص أو زيادة؛ فالعجول هي عصب حياة الأهالي، وأساس عملهم وعيشتهم، ومن يذبح بهيمته يخربوا له بيته، ويجرجروه بين المحاكم والغرامات والتحقيقات، وحاجات ما يعلم بها ولا يتصورها إلا من اكتوى بنارها. ولذلك، تبقى المواشي قدامنا تطلب الذبح وليس من يقدر على أن يذبحها، فيصبح الواحد منا في أزمة: لا هو قادر على أن يحيي البقرة ولا يميتها، يكون عاجزاً عن إيوائها، وفي نفس الوقت ممنوعٌ عليه

غرس السكين في بدنها. وأنا قلتُ السنة التي فاتت للمعلم دو، ونبَّهت عليه أنه إذا أصبح البقر في البلد عِشاراً، فسأخصم له مكافأة العمل في الوردية. لكن الكل سد آذانه، وامتلأت البيوت ببطون بقر حوامل؛ فاجعل نفسك مكاني، يا رفيق لاو تونغ، وفكِّر في المسألة بعقل هادئ.. فنحن بجد، مضطرون لما نفعل، وإذا لم نعمل على إخصاء الثيران، فسيخرب مشروع وحداتنا الإنتاجية، ولن نجد ماناأكله.. تصور أننا- السنة الفائتة- أخذنا ثلاثة عجول صغيرة ورميناها، بالعمد، في سوق "جياو تشو"، ورجعنا إلى بيوتنا في منتهى السعادة، بعد ما تخلصنا من عبئها علينا؛ لكن الفرحة ما تمت، لأنها رجعت لنا بعد يومين؛ ويا ليتها عادت وحدها، لا.. بل جاءت معها بعجلين آخرين. وجرينا وراءها بالعصي وضربناها، لترجع من حيث جاءت، بلا فائدة. والأدهى من هذا كله، أنه لما قام أحد أمناء المزارع بضرب العجول لطردها، راح واحدٌ من الناس وبلَّغ لجنة الكومونة الشعبية بهذه الواقعة، فما كان منها إلا إنها بعثت في طلب حضور السيد الأمين المشار إليه؛ وأوصت بإرساله إلى مشتل القطاع الجنوبي، في دورة تقويم دراسي لمدة شهر، بحجة أنه محتاج إلى تقويم وتعديل في السلوك.. وإذا قلت لواحد اذهب إلى مشتل القطاع الجنوبي، يقول لك: الجحيم أرحم!.. المهم إنهم استلموا أخينا هذا، واتهموه بأنه يخرِّب الإنتاج، ويعطل القوى الشعبية المنتجة، ويقوم بأعمال معادية للثورة.. وضربوه علقةً مُعتبرة حتى كسروا رجله، فأصيب بعاهة

مستديمة، ما يزال يعاني منها إلى وقتنا هذا، وانتهى به الأمر إلى أن قعد في بيته، وهو يحبو على الأرض عاجزاً عن المشي".

قاطعه الرفيق لاو تونغ: "خلاص.. اعفني من المشاكل.. وكلامك هذا يا ريس ماليان يجعلني أرفض بشدة أن أفكر حتى في الاقتراب من المواشي عندكم؛ لأني- حسب قولك- لو حاولتُ إخصاء الثور ومات من النزيف، فسيرسلوني إلى دورة التهذيب بالمشتل الجنوبي إياه.. وأنت تعرف الباقي". قام الرجل واقفاً، وهو يقبض على حفنة من التراب فرك بها يديه، ومشى يعرج برجله ناحية الدراجة، فركبها وداس على البدَّال وتهيَّأ للمضي في طريقه.

أسرع إليه ماليان وسد عليه الطريق، وجذب المقود عنوة، ثم أغلق القفل، وأخذ المفتاح وألقاه في جيبه، قال: "إذا لم تقم بإخصاء هذا الثور الآن، يا عم لاو تونغ، فلا تفكر في الذهاب من هنا، بأي شكل من الأشكال!"

احمرَّ وجه الطبيب، وأخذته رعدة الغضب حتى صارت شفتاه ترتعشان، وهو يزعق: "ما لك يا رجل.. ما شأنك بي، وكيف تتصرف معي هكذا؟"

ضحك ماليان قائلاً: "أنا هكذا.. افعل ماشئت بي، لكني لن أتركك تمضي".

انفجر فيه الرفيق لاو تونغ من الغيظ: "أنت نذل.. جبان".

ضحك ماليان مستأنفًا قوله: "بالضبط.. أنا نذل وجبان فعلاً.. فليس لك معي حيلة!"

أجابه: "الناس أصبحت، هذه الأيام، في منتهى السفالة. الكل تعلم اللؤم والخسة.. لا حيلة مع أمثالك طبعًا.. هل بيدي شيء؟ أبداً.. وقت الجد، سيقال إنني ورطتُ نفسي مع الفلاحين المعدمين.. الكوادر القيادية.. المسئولين الإداريين".

قال له ماليان: "لا داعٍ لهذا الكلام الذي يغضب الناس من بعضهم بعضاً، يا رفيق لاو تونغ. وإذا كنت معنا بقلبك وعزمك، فتعال اقطع خصيتي الثور هذا، وخلِّصنا من المصائب. أما إن كنت غير قادر على تقدير ظروفنا.. فما باليد حيلة.. فماذا نفعل؟ كل ما نستطيعه هو أننا سنأخذ ساعتك ودراجتك، ونذهب بها جميعًا إلى السوق، نبيعها ونشتري بثمنها قش الأرز وعلف العجول. وليكن في علمك أن تعريض مواشي الفلاحين- في المزارع الجماعية- للموت أو الهلاك جوعاً يُعتبر مشكلة خطيرة".

رد عليه: "ما هذا التخريف، يا رجل.. ماشأني أنا بالهلاك والخراء الذي أنتم فيه، ما علاقتي أنا بموت المواشي؟"

قال ماليان: "طبعًا لك علاقة..كيف لاتكون لك علاقة بهذا؟ لا بد

أن تعرف أنها مشكلتك أيضًا.. لأن العجول في المزارع لو ماتت، فسيتوجه إليكم السؤال في الوحدة البيطرية.. ماذا فعلتم لأجلها، وما دوركم بالضبط؟ فلولا المواشي الموجودة هنا، ما كان أحدٌ قد أنشأ لكم وحدة صحية.. فالمواشي جاءت أولاً وأنتم وراءها".

لم يجد الرفيق لاو تونغ فائدةً من مجادلته، وقال له: "الكلام مع ماكر خبيث مثلك لا رجاء معه! صدق من قال في المثل.. "لو كان بين العشرة مشرفين تسعة ملاعين، لكان العاشر أسخم من الشياطين".. هذه هي أحوال المشرفين من أمثالكم!".

"قُل ما بدا لك.. على راحتك.. لكن الوضع كما قلتُ لك بالتفصيل وبكل وضوح.. ضع عقلك في رأسك، واحسم أمرك.. تعمل العملية أو لا تعملها.. هذا كله يرجع لك". كان ماليان يتكلم عبر ابتسامة كبيرة على وجهه، ثم رفع ساعده، ووضع الساعة بجانب أذنه متصنتاً إلى دقاتها، متصنعاً الزهو بها قائلاً: "يا سلاام.. صوت ذهبي.. دقات ساعة أصيلة.. محترمة!".

قال له الرفيق لاو تونغ: "هات الساعة.. قلتُ لك!".

والريس ماليان زرَّ عينيه قليلاً، وقال: "هل معك إثبات أن هذه الساعة ملكك؟ أنت طوال الوقت متمسك بهذا الادعاء بأنها ساعتك.. طيب، هل يمكن أن تنادي عليها؟ قل لها أن ترد عليك.. فإذا ردت

فسأعطيها لك فوراً!".

قال له لاو تونغ، وقد فاض به الكيل: "كان يومي هذا يوم نحس.. من لحظة أن تطلعتُ إلى منظرك المقرف! خلاص.. خلاص، هات العجل وتعال لأستأصل له خصيته.. وحتى أنت أيضًا، يا أقذر نذل، لو أحببت أن أقطع لك ذكورتك بالمرة، فليس عندي مانع!".

رد ماليان عليه: "كان بودي فعلاً.. على يدك الخبيرة هذه، لكن للأسف، فقد أرحتُ نفسي منذ زمان، منذ السنة قبل الماضية على يد عمنا الجراح ليو "كوايداو" [ذي المشرط الحامي] في مستشفى الكومونة".

أمسك الرفيق لاوتونغ بالمشرط، وقال: "اسمع، ياريس ماليان.. نحن قلنا كل ما عندنا من حلو الكلام ومُرِّه؛ لكن اعمل حسابك أنه لو حدث أي شيء طارئ لهذا الثور، فستتحمل أنت المسئولية كاملة.. المسئولية كلها.. كاملة يعني كاملة!".

أجابه ماليان: "حادث طارئ؟ ماذا يعني حادث طارئ! وعلى أي شيء كل هذا.. هي مجرد قطعة لحم مدلاة، وجودها مثل عدمه، وتقول لي.. حادثاً طارئاً!"

تطلع لاو تونغ ناحية جمهرة الواقفين، متوجهاً بكلامه إلى الجميع، قائلاً: "اشهدوا يا كل الموجودين.. من أجراء وفلاحين.. أنني رفضت عملية إخصاء الثور، لكن الريس ماليان أرغمني عليها بالغصب".

لحقه ماليان قائلاً: "حاااضر.. موافق، أنـا أرغمـك على العمليـة.. وأنـا أيضًا المسئول مسئولية كاملة، لو حصل أي شيء".

قال لاو تونغ: "اتفقنا.. وكل واحد عند كلمته.. مـن يقُـل كلمـة يلـتزم بها.. ليت كل واحد يكون عند قوله حقًّا".

استعجله ماليان: "يا سيدنا الأستاذ.. ليتك تختـصر كلامـك، وتـشوف شغلك!"

أخذ الطبيب يرقب الثور شوانجين، بينما كان هذا يتطلـع إليـه شزرًا بجانب عينه، فما كاد لاو تونغ يقترب من ذيلـه حـتى اسـتدار بمؤخرتـه، واستتر بالعم دو، فأسرع الرجل ودار به دورة كاملة ليكـون في الـصدارة، فلم يلبث الثور أن لفَّ بجُرمه هو الآخر، وعاد مرةً ثانيـةً ليحـتمي بظهـر العم دو، الذي تأفف مستنكراً: "ياه.. هذا ليس ثوراً، بل عفريتا!".

نظر لاو تونغ إلى الريس ماليان، وقال له: "ما رأيـك؟.. لـستُ أنـا الآن الذي أرفض الشغل".

رد عليه قائلاً: "مَن كان يستمع إليك منذ قليل، كان يتصور أنك قادر على أن تخصي الأسـد في عرينـه.. ومَـن ينظـر إليـك الآن يـستغرب قلـة حيلتك أمام عجل صغير.. لك مدة وأنت عاجز عن ترويضه، يـا فـرحتي بك! هات المشرط، واسترح أنـت على جنبـك، وتفـرج عـليَّ أنـا الفـلاح الفقير، الذي ما دخلت جامعة الطب في حياتي.. أمد يدي بضربة واحـدة

أقطع له ذكورته!.. وخلِّ أمثالك يأخذون فلوسهم ومرتباتهم من الحكومة على الفاضي!"

تصاعد الدم الحار إلى وجه لاو تونغ، وقال له: "تعرف يا ماليان.. أنت- بلا مؤاخذة- مثل الكلب الذي ينبح على المهذبين، ويسكت على الأوغاد! وعمومًا، فأنا أُقسم لك ألا أعود إلى محل عملي في الكومونة، إن لم أعمل المطلوب من ناحية إخصاء العجل".

قال ماليان: "ليتك تتكلم على قدرك، وتترك هذه العنجهية".

سكت لاو تونغ، وأقعى تحت موخرة شوانجين، فلم يمكِّنه من لمسه، واستدار في الحال فلحق به، فدار حول العم دو، ودارت معه أنشوطة الحبل حول جسد المسكين ثلاث لفات أحكمت حصارها لحركته، فتقيد بقيده، وأخذ يزعق بأعلى ما في صوته: "ضيَّعني العجل الهائج".

انتهز لاو تونغ الفرصة السانحة فأدخل يديه بين ساقي شوانجين. وما كاد يلمس خصيته حتى كان حافر الدابة يلكمه في بطنه، فصرخ ووقع على الأرض من الألم، في حين كان الثور قد مال قليلاً بجسمه، وأصبحت ذؤابة ذيله تدور كالمروحة، وصادفت دورتها نظارته فطوَّحتها بعيداً، فلم يكترث لها الرفيق لاو تونغ؛ الذي ما كان لشيء كهذا أن يشتت انتباهه؛ إذ طالما خبر التعامل مع البهائم على مدى عمره، وعرف كيف يحمي نفسه وقت اللزوم من شيطنتها. وهكذا، فقد تدحرج بجسده على الأرض حتى

بلغ المنطقة "الآمنة"، أي التي تبعد عن حدود خطر الاحتكاك المباشر مع الثور العاصي، فهرع العم ماليان والتقط النظارة من تحت أرجل العجل، بينما أسرع بعض الواقفين إلى الطبيب فحملوه، ومشوا به حتى أجلسوه تحت نافذة بيت آل شياوجيا، وقد تلوَّن وجهه واربدت جبهته، طافحةً بالعرق الغزير، فترفق به ماليان، وسأله باهتمام: "قل لي.. هل جرى لك شيء يا رفيق لاو تونغ؟ هل أصبت بشيء؟"

لم ينطق الرجل بشيء، وكأنه صار عاجزاً حتى عن التنفس. وظل صوته مختنقاً فترة من الوقت، ثم إذا به ينهار فجأةً، ويقول لمحدثه: "اذهب عني يا أخي.. عليك وعلى أهلك ألف لعنة!".

اعتذر له ماليان: "لا تزعل مني.. أعتذر لك وأتأسف عن كل ما حصل بسببي.. انس موضوع الثور هذا، خلاص.. لا إخصاء ولا غيره هذا النهار، قُم تعال عندي في البيت.. أنا كنت أنوي أن أستضيفك اليوم، وقلت لامرأتي أن تشتري لنا زجاجتي "بايجو" [عرقي أبيض]".

ظهر أن أوجاع لاو تونغ سكنت بعض الشيء، خصوصاً عندما أخرج من جيبه لفافة تبغ مثنية تكاد تنفرط من انثنائها، فأشعلها بيد مرتعشة، وجذب منها نفساً عميقا، حبسه في صدره لفترة ثم نفثه من منخاري أنفه دفعةً واحدة.

"بكل أمانة وصدق، أعتذر لك يا عم لاو تونغ"، وأمسك ماليان

بالنظارة السوداء، فراح يمسح زجاجها في بنطاله، ثم أعادها إلى الطبيب المكروب، وسارع بخلع الساعة من يده، ومعها مفتاح الدراجة، وواصل قائلاً: "مدَّ يدك، خذ مني حاجاتك كلها.. الواجب أن أرجعها لك.. تفضل!".

أشاح الرفيق لاو تونغ بيده، ولم يأخذ شيئاً، بل هبَّ واقفًا فجأة.

"يا خبر.. أنت زعلان بجد؟ يا أخي، أنا كنت أمزح معك.. هذه مجرد دعابة لا أكثر!" هكذا قال له ماليان. "تعالَ معي نروح إلى البيت.. نقعد ونشرب معاً". كان يكلمه ويمسك بذراعه، وهو يمشي بجانبه يسنده ويسرِّي عنه، ثم يلتفت إلى العم دو ويصيح به: "خلِّ بالك يا عم دو.. خُذ العجول وارجع حالاً، ولاتتأخر!" واستدار، وقال لي: "اسمع ياروهان.. هات البيضات الأربع من عند الشجرة، وخذهم إلى البيت عندي، اعطهم لامرأة عمك هناك، وقل لها أن تقليهم وتحطهم في طبق بجانب زجاجة العرقي.. لاتنس أن تقول لها بأن تنزع عِرق البول منها.. وإلا فمَن ذا الذي سيأكلها وهي مليئة بالصِّنان".

امتثالاً لأمره، جريتُ ناحية بيضات الثور المطروحة بجانب الشجرة، ولاحظت أن العم دو يحدق فيها باهتمام شديد، بينما كان يجذب العجول ويجرها راجعاً من حيث جاء. وفي تلك اللحظة، ترامى إلى الأسماع صوت الرفيق لاو تونغ وهو يصيح: "تمهلوا".

أخذتنا المفاجأة، وسأله ماليان محاذراً: "ماذا جرى.. خيراً يا أستاذنا؟"

لم يكن لاو تونغ ينظر إلينا ولا إلى ماليـان المـاشي بجانبـه، بـل كان مصوباً نظراته المغتاظة إلى تلـك الكتلـة البيـضاوية المـدلاة بـين سـاقي شوانجين. وبحرقـة بالغـة، راح يجـز على جـذور أسـنانه، ويقـول: "أقـسم بعمري.. يا خُصَى الكلب، أن أقطعك اليوم تقطيعاً..وإلا فـسأكتب اسـمي بالمقلوب!"

أسرع ماليان بسحب الطبيب من ذراعه، ليواصل الطريق معه، قائلاً له: "خلاص.. أخرج هذا الموضوع من رأسك، يا أسـتاذ لاو تونـغ.. واحـد كبير مثلك.. طبيب بيطري قدر الدنيا، لا يحق له أن يشغل نفـسه بعجـل صغير، ويحرق دمه من أجله.. نحن طبعاً تضايقنا أنـه رفـسك في ركبتـك، فلما جـاءت الـضربة الثانيـة في بطنـك انـشغلنا عليـك، وعـن نفـسي أحسست بالقلق وتألمت لأجلك، صدقني".

فتح لاو تونغ عينيه على اتـساعهما، وقـال لمحدثـه: "اسـمع يـا ريـس ماليان.. ليس هناك داعٍ أبدا لأن تسخر مني بهذا الأسلوب الملتـف مـن وراء الكلام، ولا تحاول أن تثير غضبي وتخرجني عن شعوري أمام النـاس. ثم إن هذا الذي تراه ليس ثوراً عادياً.. بل هو فيل، أو ربما.. نمـر في هيئـة عجل.. أنا أقسمت أن أجـري له عمليـة الإخـصاء اليـوم.. واليـوم يعـني اليوم".

رد عليه ماليان: "أنا رأيي- يارفيقنا العزيز- أن الموضوع انـتهى عنـد هذا الحد".

شمَّر لاو تونغ عن أكمامه، وشد الحزام جيداً حول وسطه، ولمعت عينه ببريق إرادة ماضية لامعقِّب عليها، ووثب وراء الثور الذي أحس بما يُراد له، فأخذ يعدو هو الآخر. فأسرع العم دو يجذبه بقوة، ويميل بجسده كلـه إلى الخلف وهو يُثبـت كعبيـه في الأرض، ويلتفـت وراءه مـستنجداً بـ ماليان، ويصرخ بكل ما في طاقته: "يا ريس.. قُل لي ما العمـل.. سـيفلت العجل من يدي غصباً عني..".

صاح به ماليان: "إياك أن يغلبك يـا ابـن القحبـة.. إذا أفلـت منـك.. فسأخصيك أنا بيدي!"

جرى رئيس الوحدة الإنتاجية، العم ماليان بنفسه، ولحـق بـالعم دو، وراح يجذب معه العجل الهائج، ليعينه في السيطرة عليه.

قال الرفيق لاو تونغ: "يظهر أنه لن تنفع معه سوى طريقة واحـدة.. هي الطريقة الغبية".

سأله ماليان: "ماذا تعني بـ"الطريقة الغبية"؟.. قُل لنا ما هي بالضبط؟"

أجابه قائلاً: "لازم قبل أي شيء أن نربط العجل في جذع الشجرة".

وقام العم دو وربطه.

تطلَّع لاو تونغ إلى الشجرة من فوق إلى تحت، وقال لـــ دو: "هـات لنـا حبلين غليظين، ولوح خشب كبير".

وسأله دو: "هه؟ إذن، أنت تفكر تقريباً في أن تربطه!"

قال لاو تونغ: "ليست هناك سوى هذه الطريقة مع البهيمة المتعبة".

التفت ماليان، وأمر المدعو "خوبـا" بـأن يـسرع مـن فـوره إلى أمـين المخازن، ويأتي من عنده بالحبال واللوح، في أسرع وقـت، فأطـاع الرجـل الأمر، وانطلق كومضة مارقة.

من جيبه، أخرج لاو تونغ سيجارة وأشعلها؛ وقد راق مزاجه كثيراً، ثم أخرج أخرى وناولها إلى ماليان الذي شكره بامتنـان، والعـم دو بجانبهمـا يخنفر بأنفه في صوت مسموع، كأنه يلفت إليـه انتبـاه الطبيـب الغافـل، لكن الرجل لم يلحظه، بل كان مشغولاً بأن يوجه كلامه إلى ماليـان: "في السنة الفائتة، قالوا لنا إن المزرعة الحكوميـة الكائنـة بمنطقـة "جيـاوخي" يوجد بها أحد البغال البرية، واشتكى الأهالي مـن أنـه كان مـصدر خطـر عليهم، باعتبار أنه كثيرًا ماكان يرفس المارة ويعضهم في الطرقات.. المهـم أني ذهبت إلى هناك وكشفت عليه، فـإذا كـيس الـصفن عنـده، بخلقتـه الطبيعية، يحمل ثلاث بيضات. ثم إنهم قالوا لي إن الاقتراب منه مسألةٌ في غاية الخطورة. لكن هل كان ذلك يمنعني عـن مهمـتي؟ أبـداً.. بـرغم كل شيء، أديت عملي، وأخصيته في الحال!".

رد عليه ماليان مؤكداً: "لذلك كنت دائماً ما أقول إننا لو جئنا لك بنمر ابن نمر.. فلن يصعب عليك إخصاؤه، مهما حصل!"

واصل الرفيق لاو تونغ كلامه: "أتظن بأن بكلامك هذا مبالغة؟ لا، أنت فعلاً لو جئت لي بنمر فسأخصيه لك.. بجد، تسألني كيف؟... أقول لك إن عندي طريقتي لذلك. انظر لأقول لك شيئاً.. في حكاية الصحة والمرض، فأنا أستطيع أن أؤكد لك بأن هناك مرضًا يستعصي على العلاج.. لكن ليس هناك ثور يستعصي على الإخصاء.. مستحيل!".

غمغم العم دو بصوت خفيض: "صدق من قال.. أنت نافخ أبواق!"

وربما كان الطبيب لاو تونغ قد سمعه، لأنه حدجه بنظرة سريعة، دون تعليق.

أقبل خوبا يجري، وهو يحمل اللوح الخشبي على كتفه، وبيده حبل طويل.

هنالك، سحب لاو تونغ عدة أنفاس من سيجارته بعصبية واستعجال، ثم طوَّح بعقبها.

جريت، وتناولت عقب السيجارة بين إصبعيَّ، وسحبت نفسًا كأني أتذوق شيئًا شهيًّا.

وإلى جانبي، كان "شياولي" يتوسل ضارعاً: "روهان.. ليتك تعطيني أنا

الآخر نَفَساً من الدخان.. مجرد نَفَس واحد فقط".

قطعتُ جسم السيجارة، وأبقيت منها جزءاً ضئيلاً ملتصقاً بالفلتر.

ضحكتُ بخبث وقدمتها له، قلت: "خُذ..دخِّن على راحتك".

سبَّني ومضى قائلاً: "يجيئك يومٌ ياروهان وتُذل رقبتك لي، فتحتاجني بلا جدوى".

قام العم ماليان وزجرنا، فانتحينا جانبًا. ثم إنه أخذ مجموعة من البالغين الذين كانوا واقفين بالقرب منه، وأمرهم أن يمرروا اللوح الخشبي الكبير، بالعرض، من تحت بطن الثور، حتى ينتهوا به إلى تجويف ركبيه، أي ما بين آخر البطن وأولى رجليه الخلفيتين؛ ففعلوا كما قال لهم. وإذ بلغوا هذا الجزء من جسمه، صاح فيهم الرفيق لاو تونغ بأن يرفعوا طرفي اللوح من الجهتين، حتى ترتفع رجلاه الخلفيتان عن الأرض. فلما تصرفوا على هذا النحو، راح الثور يدفع بساقيه رفساً إلى الوراء، فأقبل إليه لاو تونغ وقيَّد كل رجل، على حدة، إلى طرف حبل، ثم سلَّم الطرف الآخر إلى مجموعة الرجال عن يمين وعن شمال، وأمر كل مجموعة أن تجذب طرفاً ناحيتها. أما لاو تونغ نفسه، فقد رفع الذيل وربطه في طرف حبل، وألقى الطرف الآخر فوق غصن الصفصافة حتى تدلَّى، فجذبه بقوة وأعطاه لي، قائلاً: "الشطارة ألا تفلته من يدك!"

بمنتهى الفخر، عكفتُ على المهمة التي شرفني بها لاو تونغ؛ فقبضت

على طرف الحبل الغليظ، لكي يبقى ذيل شوانجين مرفوعاً في الهواء.

بصوت خفيض جداً، غمغم العم دو: "أين الرحمة التي في القلوب؟ نفوس الناس أصبحت أقسى من الحجر".

كان شوانجين يلهث ويخور، مثلما كان الرجال الرافعين لوح الخشب تكاد تتقطع أنفاسهم من اللهاث، حتى اشتكى أحدهم التعب: "ما عدنا نحتمل يا ريس".

ضربه العم ماليان على رأسه وهو يسبُّه: "رجال من قش!.. خسارة فيكم الأكل الذي تأكلونه.. اشتغلوا بقوة. ولعلمكم جميعاً، بعد الظهر سيتم خصم نصف يوم عمل للكل!"

أقعى ماليان على الأرض في هدوء، وهو يستحث المساكين بلوح الخشب على بذل أقصى الجهد: "اعمل لك همَّة، أنت وهو.. أين العزم؟"

تناول الرفيق لاو تونغ كتلة بيضاوية كبيرة، وألقاها على الأرض في غيظ، قائلاً: "في داهية!"

ثم إنه تناول بيضةً أخرى بذات اليد، وألقى بها كسابقتها بكل مرارة: "في ستين داهية!"

اعتدل لاو تونغ واقفًا، قال: "خلاص.. فكوا الحبال".

ووضع كل واحد ما بيده، وأرخى ذراعه.

وفي الحال، اهتاج الثور شوانجين، وكاد أن يقطع قيده، فجرى العـم دو بعيداً؛ اتقاء غضبته، وراح يقول: "الثور أصابه الخبال، وركبه عفريت".

وفي آخر الأمر، هدأ الثور تماماً، وثبتت أقدامه دون رفس.

قال لاو تونغ: "هيـا ارفـس الآن، مـا الذي يمنعـك؟.. ابـذل عافيتـك وزمجر على هواك".

كالبول الفاتر، تقاطرت خيوط الدم السوداء على الأرض. لكن اللـون فوق ساقيه الخلفيتين استحال إلى الحمرة القانية، ثم افترشت الأرض بقعة دامية. مالت رأس شوانجين إلى جذع الشجرة، وضربت الرعشة مفاصله، وسرت في أنحاء جسده.

اصفرَّ وجه لاو تونغ، ونضح العرق في جبينه خيوطاً تمتلئ وتسيل.

صرخ العم دو: "نزيف.. نزيف كبير!"

شتمه ماليان: "ارحمنا من تخاريف أهلك! أنت يـا ابـن الــ.. مـا الذي تعرفه عن النزيف الكبير.. هه؟"

جرى الرفيق لاو تونغ إلى دراجته، ففتح الحقيبة الـسوداء المـدلاة مـن المقود، وأخذ منها علبة أنابيب الحقن، فأخرج منها واحـدة وركَّـب فيهـا سن إبرة، وفك لفافة طبية فالتقط منها ثلاث زجاجات دواء صغيرة.

قال له ماليان: "اسمع يا أستاذ لاو تونغ، نحن هنا فقـراء فقـرًا مـدوياً..

يلعلع في أذن الأطرش.. فوحياتك! لا تحمّلنا تكاليف الدواء الغالي الذي بيدك الآن".

لم يهتم الرجل بما يقوله رئيس الوحدة الريفية، فأخذ سن الإبرة ورشقه في فوهة الزجاجة المهشمة العنق، وشفط الدواء من قاعها.

أخذت ماليان الدهشة مما جرى، وراح يقول: "هل من المعقول أن فحلاً بهذا القدر.. يذبل ويقع هكذا من أقل شيء؟"

أقبل الطبيب على شوانجين، وغرس سن الإبرة بسرعة في كتفه، فلم يهتز العجل أقل هزة، ربما لأن الألم بين فخذيه كان أشد من هذه الوخزة الهينة جداً جداً، بالقياس إلى اقتطاع خصية.

تقرفص لاو تونغ خلف ذيل شوانجين، يراقب أحواله، غير عابئ بما قد يصيبه من رفسات العجل هذه المرة. وشيئًا فشيئًا، تضاءلت قطرات الدم النازف من فم الجرح، حتى أصبحت مجرد نقاط قليلة متتابعة.. نقطة بعد نقطة.

قام لاو تونغ واقفاً، وتنفس الصعداء.

نظر ماليان إلى الشمس الغاربة، وقال: "الأمر وانتهينا منه.. وكل واحد الآن ينتبه إلى شغله ومصالحه. مَن عنده زرع يذهب إلى زرعه، ومَن عنده مشوار يسرع قبل فوات الوقت.. وأنت يا ولد يا روهان.. خذ

الحاجات ورُح عند امرأة عمك، كما قلت لك.. أما أنت يارفيقنا لاو تونغ، فتعال معي نروح نشرب ونهدأ، بعد كل هذا القلق".

قال له لاو تونغ: "من الآن فصاعداً لابد أن تخصِّص واحداً لمرافقة العجول، يبقى معها في الليل والنهار، ويمنعها من الراحة؛ ولابد أن يأخذ حذره جيداً، بحيث يمنعها من الرقاد على بطنها؛ وإلا فلو انبطحت على الأرض، لانفتق الجرح، وعاود النزف من جديد".

أخذ ماليان قراره بسرعة: "اعمل حسابك ياعم دو.. أنتَ من الآن مسئولٌ عن متابعة العجول!"

"واعمل حسابك أيضاً أن تضع فوق ظهر العجول أجولة من الكتان، تحميها من البرد. وأهم من كل شيء.. أن تجعل عينك عليها، لئلا تبرك على بطنها". قال الرفيق لاو تونغ، وهو يشير إلى شوانجين: "وخصوصاً هذا الثور، دون الجميع!"

"اطمئن تماماً من جهة هذا الموضوع.. واجعل في صدرك قلباً هادئاً! تعال بنا الآن نطلع على البيت عندي". مدَّ ماليان يده، وأخذ لاو تونغ من ذراعه، ثم استدار وزعق فيَّ: "أنت يا ولد، يا ابن الحيوان.. هل تتذكر ماذا قلت لك، أم نسيت؟ مالك تقعد هنا مثل الفأر الجربان.. اجرِ حالاً، واذهب كما قلت لك".

احتضنتُ البيضات الست، وهي تقطر دماً، وهرعت نحو بيت العم.

(2)

انسللت إلى هناك، فألقيت الخُصَى قُدام امرأة عمي، وأنا مبهور الأنفاس. قلت: "عمي ماليان بعثني إليك، ويقول لك خذي بيض العجول هذا".

كانت تغسل شعرها وسط الحوش، وذراعاها عاريتان لا يسترهما شيء. فلما رأت خُصَى العجول مطروحة أمامها أجفلت، فعقصت شعرها المبتل وهي تزرّ عينيها، قائلة لي: "ما هذا.. ما هذا الذي بعثه معك يا ابن العبيطة؟"

"بيض عجول.. مِن العم ماليان،" أكملتُ قائلاً، "ويوصيك بشدة أن تنزعي منه عروق البول.. قبل كل شيء".

قالت امرأة عمي: "يا للقرف.. شيء يغمُّ النفس.. وأين عمك الآن؟"

قلت: "سيجيئك في الحال.. ومعه طبيب الوحدة البيطرية الأستاذ لاو تونغ.. قال إنه سيأتي ليشرب معه في البيت".

أسرعت المرأة فتلفَّحت بسترة فوق كتفيها، ومسحت شعرها بالمنشفة كيفما اتفق، وقالت: "جاءتك بلوى.. لماذا لم تقل لي ساعة أن دخلت.. الأستاذ لاو تونغ بنفسه؟ هذا ضيف عزيز، وقليلاً ما يزور أحداً في بيته".

وبينما نحن في هذا، إذا بالعمماليان داخلاً علينا يدفع دراجة ضيفه إلى مدخل الحوش، والرفيق لاو تونغ وراءه بقامته المائلة إلى الأمام، وعنقه الطويل كعنق إوزة، يمشي بعرج خفيف في رجليه، فبدا أشبه ما يكون بإوزة عرجاء.

صاح ماليان: "تعالوا يا حاضرين.. انظروا مَن عندنا اليوم؟"

تهللت امرأة عمي فرحاً، قالت: "معقول؟ أليس هذا هو الرفيق لاو تونغ، يا أهلاً وسهلاً.. يا لها من ريح طيبة التي جاءت بك عندنا!"

قال لها لاو تونغ: "ما كان الواحد يتوقع أن يجد من يعرفه هنا".

قالت: "وهل نقدر أن نجهل مقامك وقدرك عندنا؟ أنت منذ نحو سنة تقريبًا زرتنا، وعملت عملية إخصاء لخنزير بري صغير".

ردَّ عليها قائلاً: "يعني نحن لم نلتق منذ سنة.. لكنك ما تزالين مشرقة الوجه مثل آخر مرة رأيتك فيها".

قالت له: "أتعرف؟ نحن في عاداتنا المحلية لانستطيع أن نجامل بعضنا بعضاً بهذه الكلمة.. لأنك إذا قلت لواحد من الناس هذه العبارة، فمعناها أنه متسخ البدن، أسود الخلقة كأنه طالع من بئر فحم، لايشرق منه سوى وجهه.. ساعتها نقول إنه "مشرق الطلعة"!"

لحقها العم ماليان مصححاً: "لا .. هو يقصد مشرقة كطلوع النهار في اليوم الرائق، بهذا المعنى.. ولكن، لماذا بللتِ شعرك هكذا؟"

قالت له: "قلتُ في نفسي لا بد أن يكون مظهري طيبًا قدام الضيوف".

قال: "وماذا تفيد الزينة في وجه الدببة! عندك خُصَى الثيران هذه.. خذيها بسرعة واعملي لنا طبقاً يؤكل، مع كأسين لي وللرفيق لاو تونغ.. وانظري إذا ما كان عندنا بيض دجاج، فاعملي لنا طبق بيض مقلي".

سألته: "هكذا فقط؟ بيض دجاج، ولاشيء آخر!"

قال الرفيق لاو تونغ: "لا نريد أن نتعبك يا امرأة أخي!"

قالت: "لا تقل هذا، لا تعب هناك ولا أي شيء.. ما دمت قد جئت فمرحباً بك، تعال اجلس هنا على الكانغ*.. إلى حين الانتهاء من الطبخ".

"آه، صحيح.. مضبوط فعلاً"؛ مشى ماليان وهو يقود ضيفه: "اقعد على

---

* دِكة مصفحة مزودة بمدفأة من تحتها (المترجم).

الكانغ.. هنا".

أخذه من يده وأجلسه، ثم استدار ناحيتي، وقال لي: " اذهب بسرعة يا روهان مع امرأة عمك، وانظر ماذا تريد منك".

"اذهب بعيداً أو اجلس مع الضيف.. ولا تقعد معي هنا، وتربك لي الدنيا". هكذا قالت لي امرأة عمي، "طيب، اسمع.. اذهب حالاً، وهات لي الماء".

رحتُ وأحضرت لها دلوين من الماء.

قالت: "أسرع واقطف لي الكُراث من الحوش".

قطفت الكُراث من الحوش.

نظرت لي، وقالت: "ما لك تجلس هكذا.. قُم اغسل الكراث".

قمتُ وغسلته كله، ربطة واحدة على قدر ما تيسَّر.

جلست بجوارها أنظر إليها وهي تطرح خُصَى الثيران على الطاولة، ثم تقطِّعها بالسكين الكبير، لكن السكين لم يقطع جيداً، فوضعت النصل فوق حافة الجرة، وسحبت حدَّه عدة مرات.. تشيت تشيت تشيت.. فراح الشرر يتطاير من أثر الاحتكاك. ثم عادت بالسكين تقطع بها وهي حامية، فشقت كل خصية فلقتين، وبانت عروق البول داخلها، وكانت تتخللها مستعرضةً بدرجة تجعل من الصعب إزالتها بسهولة. وهنالك كان عمي

ماليان يدق على حافة الشباك الصغير ينبهنا، قائلاً: "لا تنسوا أن تنزعوا منها عروق البول.. وإلا فلن تؤكل!" ردَّت عليه امرأته تطمئنه: "هدئ نفسك.. كل هذا معمولٌ حسابه.. إذا كنت خائفًا، فتعال انزعها بيدك". وخفضت المرأة صوتها وغمغمت: "أنت تتكلم على مزاجك.. فكيف أنزعها وأنظفها لك؟ هذه تحتاج إلى أن نجيء لها بالجراح ليو كوايدو، يفصل عروقها عن اللحم.. وربما هو نفسه لا يمكنه أن ينزعها مهما حاول". وبالتالي، فقد أراحت نفسها من وجع الرأس، ولم تفصل عروق البول عن باقي اللحم، وأخذت تهوي بحد السكين على البيضات الست حتى صارت كومة مقطَّعة في شرائح، وقالت: "نحن حتى لو جئنا بأحسن طباخ في الدنيا لكي يزيل عنها رائحة الصِّنان فلن يقدر.. ولا حتى طباخ الرئيس "شيانغ كاي شيك".. لأن الرائحة ستبقى فيها حتى بعد ما تنزل البطن.. قُل لي أنت.. صح هذا أم غلط؟" وافقتُها تماماً، لكن العم ماليان راح يدق حافة الشباك ثانيةً: "بسرعة.. جهزوا الأكل"؛ فأجابته امرأته: "خلاص.. يجهز حالاً، ها هو فوق النار.. اسبقني ياروهان وأوقد الفرن".

ذهبت أمام الموقد، ومن بين كومة القش التقطت كمية فأشعلت فيها النار.

أمسكت المرأة بفرشاة الغسيل، فمسحت بها القدر مسحتين، ثم أخذت قنينة الزيت من وراء القدر وصبَّت فيها القطرات الضئيلة،

ففاحت الرائحة الزكية، وتدفقت في أنفي.

في تلك الساعة بالضبط، سمعتُ مَن يفتح الباب الكبير، وينادي بأعلى صوته: "يا ريِّس.. يا عم مليان.. أين أنت؟"

استطعت تمييز الصوت في الحال، وعرفت أنه العم دو.

دخل ووراءه بدت الثيران وراء البوابة، وهي مربوطة بالحبل في يده.. كانت ثلاثتها هي تلك التي لاقت العذاب في عملية الإخصاء، وكانت تحتشد متراصة أمام البيت. أما العم دو، فقد بدا مرهقًا للغاية، فتهيَّأ للجلوس على الأرض مكانه، فقفز الريس ماليان من فوق الكانغ، وجرى صوب الحوش، فزعاً: "ما لك؟ ماذا جرى؟"

كان الرفيق لاو تونغ في أعقابه، هو الآخر، يهرول قافزًا من جلسته إلى الفناء مباشرةً، يسأل باهتمام: "هل حصلت مشكلة؟"

لم يكترث للرد على لاو تونغ، لكنه راح يقول للعم ماليان في شيء من التذمر: "يا ريِّس.. أنت كبير الناس هنا، والكبير مثلك يجب أن يفكر في الناس من حوله. ومع ذلك، فأنت تأكل وتشرب، وتنسى أن هناك آخرين.. أنا مثلاً.. هل فكرت في أن تدعوني إلى مائدتك؟"

ردَّ عليه: "رجل في مثل سنك الكبير هذا.. هل من المعقول بحياتك، أن يتصرف هكذا كالأطفال! في الحكم المحلي والبلد كلها، هناك كثير من

الدعوات والولائم يقيمها المسئولون.. فهل عندما يستقبل القادة الكبار واحداً مثل كيسنجر.. هل يلزم، يعني، أن يوجهوا لحضرتك دعوة إلى العشاء؟"

"أنا ماقصدت شيئًا من هذا أبداً". قالها مضطرباً.

"إذن، فماذا تقصد بالضبط؟"، سأله ماليان.

قال دو: "أنت سمعت الرفيق دو وهو يؤكد علينا.. وكان يعيد ويزيد ويحذرنا من أن نتركها ترقد على الأرض، وخصوصاً العجل شوانجين.. أليس كذلك؟ ألم تسمعه يقول هذا الكلام؟ ألم تسمعه وهو يقول إنهم لو رقدوا، فربما يتلف الجرح، ويعاود النزف من جديد؟ وإن الجرح لو نزف هذه المرة فلن يتداوى؟ المشكلة الآن هي أن العجول تريد أن تستريح وتنام على الأرض. وحتى عندما أسرح بها وألهيها، فهي رغم ذلك مصممة على ما في دماغها. وإذا سهوت عنها وفارقتها لأي سبب، أسرعت إلى الرقاد على الأرض تريد الراحة".

قال له: "إذن.. مطلوبٌ منك ألا تسهو عنها أو تفارقها".

قال دو: "لكني أنا أيضًا أريد أن أرجع لبيتي وآكل.. فماذا أعمل؟ يعني أنا إذا لم أجلس وآكل الآن من خُصَى العجل مع الرفيق لاو تونغ، فلابد أن أعود إلى البيت وآكل.. لأني لابد أن أتناول طعامي مثل كل الناس. وفوق هذا كله، فمطلوبٌ مني أن أذهب وأعلف الثلاث عشرة بقرة في

الوحدة الإنتاجية، فكيف هذا؟ ثم إني- في الأول والآخر- ستجيء عليَّ ساعةٌ وأنام.. أصحيح أم لا؟"

"فهمت.. فهمت.. لا تقُل أي شيء آخر، وعموماً فالحزب لن يرضيه أن يظلمك". وراح العم ماليان يزعق في الحوش: "يا روهان.. روهان.. تعال! لك عندي شغل ستحبه للغاية، اذهب مع عمك دو، واسرح بالعجول معه.. ولك أجر يوم كامل".

اندلقت كومة اللحم في القدر المليء بالسمن، فأصدر صوت طشطشة مميزة، وبدا أن رائحة الطعام المختلط برائحة عروق البول تنطلق بقوتها في سقف البيت وتملأ جنباته.

"أنت سمعت الكلام يا روهان، أم انسدت أذناك ولم تسمع؟" صاح عمي ملء الحوش.

قالت لي المرأة في هدوء: "اذهب كما قال، وطبقك عندي أحفظه لك بجانبي، وبعدما يأتي المساء سأنادي عليك لتأخذ نصيبك".

قمتُ ومشيتُ إلى الحوش، ورأيت دائرة الشمس الحمراء تغوص تحت الغروب.

(3)

سلّمني العم دو مِقود العجول، ثم استدار ومشى في طريقه؛ فكنت أجرى وراءه، وأنادي عليه: "لا تنس يا عمي أن تسرع بالعودة إليَّ.. فأنا مثلك لم أضع شيئًا في جوفي منذ آخر لقمة". ومضى الرجل لشأنه، ولم يلتفت.

بقيت أنظر إلى العجول التي حملت جروحاً داميةً بين أفخاذها، وكان ثلاثتهم ينظرون أيضاً إليَّ وعيونهم الذكية اللامعة مغرورقة بالحزن والألم؛ فلن يعودوا- طوال عمرهم- بحاجة إلى الوثوب فوق ظهر إناثهم، ولعل شوانجين كان أحسنهم حظاً، إذ أنجب حفنةً لا بأس بها من الأولاد؛ فهو- من هذه الناحية- أفضل من الأخوين "روشي" اللذين لم يلمسا أية أنثى؛ فلم تكن لهما ذرية من الأصل. ولما تأملت نظرات عيونهم عن قُرب، وجدت فيها شيئًا آخر غير الحزن؛ فقد بان لي أنها تمتلئ ببريق أو

لمعان ذي معنى ما، ووقع في ظني أنه بريـق الكراهيـة الموقـدة ضـد بـني البشر، فداخلني الخوف منهم، ورحتُ أسحبهم وأمشي محاذراً أن ينتهـزوا الفرصة المتاحة لهم- بكل سهولة- لمباغتتي من ورائي، رغم إدراكي لمدى ما تحملوه من الجراح والآلام. لكـني أيـضًا توقعـتُ أن ينطحـوني بكـل سهولة بسن قرونهم، فيكسروا ظهري، وتكون نهايتي على أيـديهم؛ فلـم ألبث أن قلتُ لثلاثتهم: "اسمعوني يا رفاق.. أنا لا شأن لي بالموضـوع الذي حصل هذا النهار، فلا تحقد قلوبكم عليّ.. لقد كنا دائماً أصحابًا، نروح ونجيء معاً.. عشنا الفـرح والمـسرات والأيـام الـصعبة.. تتـذكرون أيـام الشتوية الفائتة، لما نزل الثلج وامـتلأت الأرض جليـداً، لمـا مـشينا وكاد الجبل يوقعنا في منحدراته، ونحن عند الجرف البحري، والدنيـا زمهريـر، والبرد يدخل في عظامنا. كنا نـرش نقطـة المـاء فتتجمـد قبلمـا تلمـس الأرض.. كانت أيامًا عشناها معاً، برغم الصعاب.. ولو كان الأمر بيدي مـا أخصيتكم عمري..". كنت أثناء تبرئة ذمتي- أمام الثيران- ألمح عيونهـا تترقرق بالفهم والمغفرة، وقد احتشدت دموعهـا في المـآقي تنتحـب مـلء أشداقها، فرحتُ أربت فوق الرؤوس وقد اعتراني شعور حقيقي بالتعاطف معها، فناديتها: "روشي.. شوانجين.. ابقوا معي وامـشوا.. لأجـل حيـاتكم وخاطري.. ورائي تمشون وأنا معكم". سمعت "روشي" يقول: "ومـا قيمـة الحياة وقد انتزعت منـا خـصياتنا؟" قلـت: "ابعـدوا هـذه الأفـكار عـن رؤوسكم، فالمثل السائر يقول.. "الموت الناجز أجدى من حياة خاملـة"..

تعالوا نمشي وخطانا تمشي بنا". سحبتهم ومشيت، ماراً بالحارة التي يطل عليها منزل ماليان، فتجاوزته حتى بلغت شاطئ النهر.

وقت أن بلغ بنا المطاف ذلك المكان، كانت الشمس قد سقطت في جوف الجبل، وخلفت وراءها بضع سحابات حمراء، ذكرتني بلون الدم النازف من شق الجرح في جسد شوانجين. وعلى جانبي سد النهر، قامت أشجار الصفيراء- بجموعها الكثيفة- تحوط براعمها الطالعة في مثل هذا الوقت من السنة، والشذا يضوع ملء أوراقها ويفوح في الأرجاء، ويفغم أنفي فتدوخ رأسي. كانت أوراق شجر الصفيراء من نوعين: نوع أبيض كالثلج، والآخر وردي؛ لكنهما- في ظل سحابات الغروب- صارا مشبعين بالحمرة القانية.

مشيتُ سارحاً بالثيران، هادئ الخطوات تحت غيوم المساء، ورأسي دائخة بعبق أوراق النبقيات، ولم يكن لسكرة الوقت نشوةٌ لأن القلب بات مختنقًا بأحزانه. حتى الثيران، بدت واجمةً أسيفةً، وبقلوبها من الكرب أعظم مما جاشت به نفسي، بيد أن شيئًا مما كنت أعانيه من القلق كان متصلاً بما هجس في ظني حول ما آلت إليه أحوال خُصَى العجول في مطبخ امرأة العم ماليان؛ فاللحم حتى لو كان مختلطاً بعروق بول العجول سيبقى لحماً على أية حال، خصوصاً في عيني، أنا الولد الذي لم يبق من آثار اللحوم في فمه إلا ما ذاقه عرضاً، وقت زفاف أخته الكبرى منذ خمس

سنوات. وكنت يومها قد خطفتُ طبق لحم خنزيـر، وانتحيـت بـه جانبـاً تحت جنح الظلام؛ أما اليوم، فتعاستي سـببها حرمـاني مـن لحـم الخُـصَى المفرومة. والثيران نكبتها أنها فقدت من بيـضها الذكـوري مـا لا راد له، فكلانا في البلوى سواء، والمنكوب يواسي "المفجوع".

أرخى الظلام سدوله، ولـم يظهـر أثـر لمـجيء العـم دو، وهـو أمـر لـم أستغربه، لاسيما وقد عهدت فيه النذالة، منـذ أن اشـتركت معـه في رعي البهائم مدة نصف العام، وكنت أراه بعيني هـاتين يلـتقط بقايـا الحبـوب وفتات الأكل من الشقوق الغائرة، الـتي صـنعتها الفـئران البريـة وسـط الغيطان، فيضعها في مخلاتي، ويوهمني بأنه أحضرها لي من بيته، باعتباري الفتى الذي أصبحتُ موضع اصطفائه وتفضيله دون الآخـرين، كي أكـون زوجاً لابنته الصغرى، آملاً أن أمشي وراءه كالكلب في كل خطـوة، وأطيـع أوامره، لا أفتح فمي بنصف كلمة. وكم كلفني ذلك من مكابدات لا أول لها ولا آخر. ويشهد عليَّ في ذلك غيط الخضار المتاخم لبيته، عند سدِّ النهـر.. يشهد عليَّ في الساعات الطويلة من العمل المضني، الذي لم أبخل به حـتى ارتوت أرضه من عرق جبيني بأكثر مما شربـت مـن مـاء المـصارف. وكان الغيط عبارة عن تسعة حقول مزروعة بالكُرَّاث، أمكن لهـا- في مواسـم الحصاد- أن تغل دخلاً بالمئات، بل إن حصاد موسم الربيع وحده كان يأتي بما لا يُعد ولا يُحصى. المهم، أني أثنـاء تفكـيري في غـيط الخـضار هـذا، وجدتُ نفسي قد وصلتُ إليه، فوجـدت دغـلاً مـن أشـجار "البـاوتونغ"

الفواحة بالعطر كالريحان، وقد نبتت عند حافته ببالغ الزهو والعنفوان؛ خصوصًا أنها كانت من فصائل ممتازة استحضرها أحد رجال الإدارة أثناء عمله بمحافظة "لانكاو". ثم إن الكراث في الغيط كان يطلب الحصاد، وقد بلغ طول سيقانه نصف الذراع. فكنت كلما اقتربتُ اتضحت في عيني المشاهد، حتى لمحت العم دو يميل على الزرع ويبذر السماد. والسماد عبارة عن خليط من فضلات بشرية، كانت تندرج في باب الملكية العامة التابعة للكومونات، وكانت بالتالي جزءاً من ملكية الوحدة الإنتاجية. ومع ذلك، فها هو ذا العم دو يستأثر لأرضه بأجولة السماد كلها، جهاراً وبقلب جامد. فمِن أين جاء بهذه الجرأة.. وعلى أي ظهر يستند؟ بالطبع، لم يكن سنده في ذلك سوى زوج ابنته الكبرى، الذي يعمل طباخاً في الكومونة. وزوج ابنته هذا كان نحيفاً مقفَّعًا، شبيهًا بجرادة الحقول التي تشبه حشرة نطاطة يقال لها حصان إبليس. ومشكلة مَن عملوا بمطبخ الكومونة، كما أشيع منذ سنوات، أنهم كانوا يستلمون عملهم فيه وهم نحفاء؛ فلا يكاد يمر عليهم عام واحد فقط، حتى تغلظ رقابهم، وتمتلئ أجسادهم صحة وعافية مع سمنة مفرطة، فيظهرون مثل أكياس منتفخة بالهواء، ويصبح شكلهم مفلطحاً على غير ما كان يألفه الرائي من قبل. وكان أن ثارت غضبة السيد أمين الوحدة الفرعية، متهماً الطباخين بالسطو على كميات المواد الغذائية التي تحت حوزتهم، والتهامها سراً، فيما يُعد سرقةً وتبديداً لممتلكات عامة؛ ولذلك، فقد

طُردوا جميعاً، ما عدا صهر العم دو، ذلك الطباخ المهزول الأعجف، إذ وقف السيد الأمين إلى جانبه، وبرَّأه من تهمة الجشع والسعار الذي أصاب زملاءه، بينما مال العم دو على أذني، وأفضى إليَّ بسر خفي عن الجميع.. قال إن صهره هذا أعظم مبطون في العالم، فهو يلتهم من الأكل ما لا يتصوره أحد، حتى إنه قد يأتي- في وجبة واحدة- على ثلاثة فطائر من المانتو، أي الفطائر المخبوزة بالبخار، وطبق كبير من اللحم.. فهل سمعت في حياتك بشيء اسمه البطن السعيد؟ -هكذا سألني العم دو- إن لم تكن تعرف، فإن هذا هو اسم زوج ابنتي.. دو فو، أي المبطان السعيد، الذي لم يأتِ إلى هذه الدنيا عبثاً، بل ليملأ بطنه من لحم البر والبحر مدى الأيام... وكنتُ أنظر إلى العم دو- في الحقل- وأنا أكاد أنفجر من الغيظ. فما إن فتحت فمي لأنادي عليه، حتى رأيت أوهوا، ابنته الصغرى، وهي نازلة إليه من سد النهر تحمل دلوين من الماء، تطير طيرانًا بثوبها الهفهاف، الذي يرف مختلجًا كرفة جناح الطير.

خطبها لي العم دو ، فيما بيني وبينه؛ فكان يطوف بها في رأسي طائف الأحلام الحلوة. وحدث- ذات مرة- أن مددتُ يدي في جيب العم ماليان والتقطت ورقتين من فئة "الماو" [نحو عشرين قرشًا] من النقود، وقصدتُ سوق الجمعية التعاونية، فاشتريت عشرين قطعة من حلوى بطعم الفواكه، لم أبخل على نفسي باثنتين منها، وحملت الباقي إليها، فأخذتها جميعاً، وهي تقهقه ملء صدرها. فلما مددتُ يدي أتحسس هذا الصدر،

دفعتني في بطني بكل عافيتها، فأوقعتني على ظهري. قالت: "حتى الصبية الصغار الذين لم يخط الشعر في شواربهم يملأون رؤوسهم بهذه الأشياء!" فرحتُ أفكر فيما حصل لي، وأغتاظ من جفوة الحظ المنحوس، وحبات الحلوى التي راحت عليَّ هباءً. قلت لها مستعطفاً: "أرجعي لي حاجاتي". تفلت في وجهي بصاقًا بطعم الفواكه، صائحة: "وتأخذ خراءك بعدما رميته؟ .. تهديني الهدية وتطلبها؟" قلت: "اجعلي الحلوى معك لا أريدها.. لكن دعيني أتحسس صدرك!" قالت: "اذهب إلى بيتكم.. تحسس است اختك!" قلت: "أنا ليست بي حاجة إلى است اختي.. أريد أن أتحسسك أنت". قالت: "إذا كنت وأنت صغير غبي بمؤخرة كبيرة، تتحرش بالفتيات هكذا.. فماذا تفعل وأنت كبير!" قلت: "إذا لم تتركيني أتحسسك.. فأعيدي لي حاجاتي". قالت: "يا ابن الدببة الغبية.. أنت لحوح مثل لصق الغراء". وأخذت تتلفَّت حواليها، ثم بصوت خافت جداً قالت: "لازم.. يعني؟" أومأت برأسي، ولم أكن- من شدة الإثارة- أملك الكلام. واستترت وراء جذع شجرة، فقبضت على طرف سترتها وعرَّت ثدييها، وقالت في اضطراب كبير: "إذا كان لازماً.. فبسرعة". مددت يدي مرتعشاً.. ثم قالت: "خلاص.. كفى هكذا!" احتججتُ قائلاً إنه لايكفي شيئاً، فدفعتني بعيداً، قائلة: "غُر في داهية.. أنت أخذت كفايتك". قالت أيضًا: "إذا وقعت بلسانك لأحد.. فسأضع في فمك السكين". قلت: "لكن أبيك خطبك لي زوجة". ذُهلتْ، ثم كتمت فمها ضاحكة، فقلتُ: "على ماذا

تضحكين؟ هذا ماحصل فعلاً، واسألي أبيك، إن لـم تـصدقيني". أشـارت نحوي قائلة: "ألم يبق إلا أنت أيها الصغير العبيط؟" نشطت ذاكرتي فجـأةً بما حكاه العم ماليان ذات مرة، مـن قـصة الكنَّـة الكبـيرة وزوج الإبنـة الصغرى، ضئيل القامة، فاقتبست شيئًا من عباراتها، قلت: "قـد يكـون مؤشر الميزان صغيراً ضئيل القامة، لكنه هو الذي يحدد الموازين الثقيلـة.. والفلفل- بطرفه الضئيل- يشعل الجوف ناراً حامية، فلا تستهيني بجسمي الصغير هذا، فبين عشية وضـحاها يكـبر الـصغير.. وتنـصلح أحـواله". قالت: "من علَّمك هذا الكلام الكبير؟" أجبت: "ليس شأنك". قالت: "مـا دام الموضوع هكذا، فأمامك أن تكبر على راحتك. وعندما تكـبر قـدر الكبار.. تعال وتزوجني". لمَّا خلصت كلامها، تركتني ومضت في طريقها.

بعد هذه الواقعة بفترة قليلة، حدثت الحادثة الـتي سـببت لي عـذاباً يفوق الوصف، لأن البنت "أوهوا"- بعد أن انتهت من كلامها معي، قائلـة إنها في الانتظار إلى أن أكبر وأتزوجهـا- إذا بهـا تـتم خطوبتهـا إلى شـاب يعمل نجاراً في قرية مجاورة، ولم تكن قامته أطول مـني إلا بالـشيء الذي لا يُذكر. وكان من عادته أن يقلِّص شفتيه فتتراجعان عـن أسـنان سـوداء كالقطران، بالإضافة إلى أن مفرق شعره من الخلف توسطته دوامـة كانـت تدور بفروة رأسه، فيتشعث منها شعره دائمًا أبدًا. وكم اعتـاد النـاس- في قريتنا- أن يلتقوه ماشياً بينهم، وهو يحمل على ظهره منشاراً ضخمًا وبلطة صغيرة، بزعم أنه جاء يشتري جذوع الشجر. ولطالما حـشر فـوق طـرف

أذنه قلم رصاص منظره غريب، وإن كان ظريفًا بعض الشيء، حتى وقع في ظني أن وضع القلم بهذه الطريقة خلف الأذن هو السبب في انعقاد أواصر المحبة والإعجاب بين أوهوا وفتاها النجار.

فلما حان يوم زفافهما، تحلق جمعٌ من الناس حول بيتها للفرجة على وقائع تلك المناسبة، فاندسستُ وسط الواقفين، وسمعت حديث العجائز، وهن يمتدحن بنات العم دو، وما تميزن به من بشرة نضرة ووجوه مستديرة، جلبت إليهن حظوظ زواج سعيدة؛ حيث تزوجت الكبرى من طباخ الكومونة، فأصبح بيتها عامراً بالخير، تكاد لا تخلو مائدتها من اللحوم والأسماك؛ أما الثانية، فتزوجت من عامل بالغابات الكائنة بمنطقة جبال "شينان" الكبرى، في إقليم دونبي، حيث الجلود والفراء الثمينة، حتى إنها لما جاءت مع زوجها لزيارة بيت أبيها بعد قرانها مباشرةً، كانت مغطاة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها في الفراء الغالي.. من غطاء رأسها إلى البالطو إلى الحذاء إلى البنطال المتموّج والسترة المخملية، التي لم يُر مثلها في النواحي كافة؛ وكان من حظ البنت الثالثة الاقتران بمدرِّب الكلاب البوليسية في إدارة الأمن العامة بالمحافظة. ورغم أن الناس أطلقت عليه لقب "فضلة الكلب".. فما هو باللقب الفاحش كما يتصورون؛ لأن "فضلة الكلب" هذه ليست إلا اللحوم الطازجة، بصريح الكلمة. لكن كل هذا شيء وما نالته الفتاة الرابعة، ابنته "كينيو"، شيء آخر؛ فيا لسعدها، إذ تزوجها شيخ الجزارين "سونغو لوين"، ذلك الذي

يمشي في الأسواق وبيده لفافات اللحوم.. عشرات اللفافات التي لا تجدها إلا مع أمثاله.. وأين لباقي الناس مثل هذا الحظ! وحتى البنت الخامسة، أصغرهن، فلم يتخل عنها نصيبها، عندما اقترن بها الولد النجَّار، الذي يبدو عليه أنه "مجرفة أوراق"، أي أنه أشبه ما يكون بالمجرفة التي يستخدمها البستاني في لملمة الحشائش والورق السائب.. فالولد كذلك أيضاً، تشعر لأول ما تراه بأن لديه موهبة خاصة في تجميع أو، قُل، "تقشيط" النقود من جيب الزبائن.

وبينما الجميع منهمكون في هذا، إذا بموكب الزفاف قد وصل.. كان هناك صف من أربع دراجات ماركة "الغزال الذهبي"، فوق كل واحدة منها ثلاث سلال من اليواندو المصنوعة من شرائح البامبو، وقد احتوت كل سلة منها على صرَّة حمراء. فلما توقفت الدراجات، هرعت النسوة إليها وتحلقن حولها، فكشفن عنها الغطاء، فإذا هي مليئة بأرغفة المانتو الناضجة على البخار، وقد نثرت فوقها نقاط من السكر الأحمر، أبرزت بياض الخبز الناصع. وفي الحال، خرج العم دو وامرأته، في الملابس الملونة لاستقبال أنسبائهما بالوجوه الضاحكة المنشرحة. وفكَّرت أن أستطلع ملامح البنت أوهوا، لكنها كانت متخفيةً وراء قناع، مثل جواسيس "تشيانغ كاي شيك".

وسمعت- فيما بعد ذلك- أن أهل العريس قد أهدوها ثلاثة أطقم من

الملابس: طقم مخملي مضلّع، وآخر من القطيفة السادة، أما الثالث فكان من النوع الثمين المعروف عندنا باسم "الفاردينغ"، بالإضافة إلى ثلاثة أزواج من الجوارب النايلون، تتراوح ألوانها بين الأحمر والأزرق والبنفسجي، وكذلك ثلاثة أحزمة جلدية أحدها من الجلد البقري الطبيعي، والثاني من جلد الخنزير، والثالث صناعة ماكينة. وبلغني أن أوهوا أحنت رأسها خجلاً أمام حميها، ونادته كما تنادي البنت أباها، فمد يده ونفحها مائة يوان مرةً واحدة. فلما وصل إلى مسمعي هذا الكلام، سكن غضبي في الحال، وفكّرت في أني لو كنتُ مكان أوهوا، لما ترددت في الزواج من الصبي النجار هذا.

والآن، فقد أصبحت خطيبتي السابقة أوهوا تنزل من عند سد النهر، وهي تحمل دلوين مترعين بالماء، وتطير فوق الأرض طيرانًا كالصقر الجسور. بدت لعيني هائلةً ضخمة التكوين، كل شيء فيها ضخم وكبير: رأسها، وجهها، فمها.. حتى فمها وعيناها والذراعان ويداها والساقان. وتصورت أنها لو لطمتني الآن لطوّحت بي في خلاء المزارع، أو انقضّت عليّ فمسحت بي الغيطان مسحاً. هكذا، بدون أية مبالغة، كنت أرى أنها تستطيع بركلة واحدة أن تلقي بي بعيداً.. و"بعيداً" هذه قد يصل مداها إلى مترين أو ثلاثة.. فمعنى ذلك أني لو كنت قد دخلتُ بها زوجةً، ولم أقُم معها بدوري الذكوري، أو أسأت التصرف في أي أمر من الأمور، لخنقتني في الحال. وبرغم ذلك، فقد بقيت أشعر تجاه هذا الجسد الضخم وصاحبته

بكل الحب والود، باعتبار أنها البنت التي كانت خطيبتي يوماً ما. في ذلك الوقت، كانت قد حازت لقب "عاملة الستمائة"– وذلك على اعتبار أن مكافأتها الإنتاجية كانت تبلغ الستمائة نقطة– بينما كانت مكافأتها الإنتاجية السنوية تصل إلى أكثر من ثلاثة آلاف نقطة؛ وبالتالي فقد كانت أكثر أعضاء الوحدة الإنتاجية إحرازاً لنقاط العمل والإنتاج، ثم أُضيف إلى هذا اللقب تسمية أخرى، حيث وُصفت بأنها.. "أم الثلاثة الكبار". ولم تكن تلك إشارة إلى ما أذيع وقتها من الإنجازات الثلاثة الكبرى: الحرية الكبرى، الصراحة الكبرى، جرائد الحائط الكبرى؛ أي الجرائد المعروضة للتعبير عن الرأي بالشوارع؛ بل كان المقصود بالتسمية التلميح إلى رأسها بالغ الضخامة، وإليتها الكبيرة، وبطنها المتضخم بحمل جنينها؛ وهي تسمية لم تعجبني على الإطلاق، ولم تعجبها هي أيضًا، بأية حال. وعقب زواجها مباشرةً، كنت قد لقيتها بالصدفة عند شط النهر، فمن حنقي عليها ناديتها معايراً.. "يا أم ثلاثة!"..

فما كان منها إلا أن أنزلت الدلوين، وخلعت العصا الحمالة، وجرت ورائي؛ فكنت أعدو وهي في إثري مسافات طويلة. ولم ينقذني من بطشها سوى ما تعلمته في صباي، لحسن الحظ، من تسلُّق الشجر "بأرجل الأرانب"، كما كنا نقول ونحن صغار لمن يطلع إلى ذرى الأشجار بساقين متقافزتين معاً، فنفذتُ بجلدي من بين يديها ذلك اليوم، لأني لم أكن ضامناً لحياتي فيما لو ظفرت بي على أي نحوٍ كان. وأصبحتُ– كلما

صادفتها على طريق- أطأطئ لها رأسي صاغراً، بينما تنظر إليَّ شزرًا، وعيناها تسلطان علي شواظاً من وقدة الغيظ.

اقتربت مني وهي تحمل الدلاء، قالت: "ما الذي جاء بك ياروهان إلى هذه الناحية؟ ما أظن إلا أنك جئت لسرقة الكراث من غيطنا".

قلت: "ألم يبق في الدنيا إلا الكراث الذي عندكم".

قالت: "الدنيا مليئة بالكراث، فماذا جاء بك تتسكع هنا؟"

قلت: "أبحث عن النذل، أبيك!"

لم تعبأ بالرد عليَّ، وهرولت إلى غيط الخضار وهي تحمل الماء، ففهمت أن وقت الحصاد قد أزف، لأن كل هذه الحيوية لم تكن تنزل عليها، هي وأهلها، إلا وقت حصاد الكراث، بحيث كان الجميع يهرعون إلى ري الأرض بأكبر كمية من الماء قبيل الحصاد، وذلك لكي يتشبع الزرع بالماء ويزيد وزنه. رأيتها تفرغ الماء في الحقل، دون أن تخلع الدلوين من العصاة الخشبية المستعرضة فوق كتفيها، وعجبت لكل هذه العافية التي حلت عليها. ثم استدارت بقامة مديدة وصدر مرفوع في الهواء، وعاودت طريقها تجاهي، فسحبتُ الثيران بالعرض، وسددت عليها طريق الرجوع، فنهرتني: "ما لكِ؟ أجننت؟ خذ جانبًا أو غُر في داهية بعيدًا عن هنا". حدقتُ فيها طويلاً، قلت: "أنتِ مالك شأنٌ بي.. أنا أرعى الثيران للوحدة الانتاجية، وأنتِ من الرأسماليين أعداء الشعب والثورة.. فبأي حق أفسح

لك الطريق؟" قالت: "رأسك يا روهان ما يزال يفكر في حاجـات انتهـت، ولو أخرجتَ هذه الحاجات من رأسك لأرحت نفسك ممـا أنـت فيـه مـن تعب.. اهتم بمصلحتك وانظر لشغلك.. هل ستبقى تفكـر فيمـا لا فائـدة منه؟" قلت: "اكتشفتُ أنكِ منذ زواجك بالنجـار هـذا، وأنـت تـزدادين قبحاً وبشاعة". قالت: "أنا أصلاً لم أكن جميلة.. فهل اكتشفت ذلك تـواً؟" قلت: "وطلع لك شنبٌ في وجهك، كما الرجال". تحسست ما فـوق شـفتها العليا وهي تزم فمها وتضحك، ثم خفضت صوتها قلـيلاً، وهي تقـول لي: "لا بأس.. منظري قبيح وشعثاء وبشنب الرجال، وأم الثلاثـة أيـضا.. هـل استرحت؟.. ليتـك الآن توسِّـع لي الطريـق كي أمـشي؟" قلـت لهـا: "أنـتِ خدعتِني.. قلـتِ إنـك سـتنتظرين سـنة أو اثنتـين، إلى أن يـجيء الوقـت المناسب لزواجنا". قلتُها وطفرت دموعي، ولو أني كنـت أحـاول أن أبـدو حزينًا بعض الشيء، عسى أن أقتنص منها مغنمًا تسنح به الظروف، فـإذا الأسى دموعٌ تفاجئني حقيقةً، بل سيل من دموع، فتنهَّدَتْ ملء صـدرها تنهيدةً مثقلة، وبدت ملامحها مفعمة بالمـشاعر.. فلمـا تبـدَّت ملامحهـا مفعمة بالمـشاعر ازدادت جمـالاً، وأصـبح حُـسنها في عيـني لا يوصـف؛ وجاءني صـوتها حـائراً، وهي تقـول: "روهـان.. أنـت ولد غلبـان، لكنـك عفريت.. الإنسان داخلك طيبٌ جدًّا، لكن شيطانك لـيس له قـرار.. لا أدري كيف أقول لك! لماذا لاتفكر بجد في هـذه المـسألة؟ ألا تعـرف أننـا حين نكبر ستكون أنت رجلاً في عِزِّ العمر، وأنـا امـرأة بـشعر أشـيب".

قلت: "يا أختي الكبيرة الفاضلة.. إذا كان زواجك من النجار هو عين الصواب، ولهفتك على خبز المانتو المدخن- الذي يأتيك به- هي عين الصواب أيضًا، فلماذا بخلت عليَّ ولو بقليل من خبز المانتو هذا؟" ضحكت قائلةً: "يعني إذا جئتُ لك بخبز المانتو، فلن تغضب مني؟" قلت: "طبعًا، لأني إذا تذوقت طعم المانتو، فمن المحتمل جداً أن تزول كل الهموم". قالت: "اتفقنا". قلت: "بقيت حاجة واحدة"، "حاجة ماذا؟" حدقت فيَّ وهي تقول: "لا تكن كمن يتسحَّب على الأنف طالعاً للوجه، إياك أن تنتهز الموقف لأغراض أخرى". قلت: "أريد أن أتحسسكِ قليلاً". قالت: "آه.. في هذه الحالة، يمكنك أن تذهب إلى زوجي وتكلمه، لأن جسمي يخصه هو وحده. فإذا وافقك، وقال لي إنه وافق، فتعال وتحسس على راحتك". قلت: "وهل هذه حاجات أكلمه فيها؟" قالت: "ولا أظنك تقدر أن تكلمه فيها.. فلديه بلطةٌ مسنونة.. ينزل بها على مخالبك، يقطعها لك أسرع من الريح في الخلاء".

"أوهوا.. مع مَن كل هذه الثرثرة!.. الوقت ينقضي والشغل طويل، هاتي الماء بسرعة". كان العم دو قد فرد ظهره واقفاً وسط الغيط، وهو يصيح بابنته.

"هذا أنا ياعم دو"، زعقت عالياً، "وأنت هناك تهتم بمصالحك دون مصالح الناس. رميتَ لي بالثيران الثلاثة وتركتني.. هل هذا كلام! أم أنك

تجدني صغيرا فتتجاهلني؟"

قال دو: "اصبر قليلاً يا روهان، فقط حتى آكل شيئاً وأجيء عندك".

قلت: "أنا لم أذق شيئًا من وقت الظهر.. وبطني أصبحت جلداً على عظم".

قال دو: "طيب يا أخي، أنا الأكبر سناً.. وكم سرحتُ بالبقر طيلة الموسم الذي فات من أوله لآخره، ولأجل خاطري فقط .. طلبتُ منك معروفاً؛ فهل يضيرك شيء إذا صبرت قليلاً!"

قلت في نفسي:.. وللساعة ما تزال تحاول خداعي يا هذا الشيء العجوز! لكني لن أستسلم لخداعك مهما حاولت. ثم إني ألقيت بمِقود العجول من يدي، قائلاً له: "هذه شغلتك أنت، وعندك أيضًا شوانجين يطلب الرقود على بطنه.. وإذا حصل له شيء ومات، فساعتها نرى مَن المسئول عن ذلك أمام رئيس الوحدة الإنتاجية".

انزعج دو، وراح يتواثب مثل القرد، وهو يهرول خارجًا من الحقل، قال: "روهان.. أرجوك، اسمع يا روهان يا بني.. اسمع كلمتين مني".

مال والتقط المقود الساقط، فناوله لي قائلاً: "اسمع.. ابق أنت مع العجول الآن.. وستجدني قدامك هنا بعد لقمة سريعة".

رجع العم دو إلى بيته.

وقالت لي أوهوا بكل برود: "هل تريد أن تتحسسني، وأنت تعامل والدي بهذه الطريقة؟"

قلت: "وهل لو تركتني أتحسسك كنت عاملته بهذه الطريقة؟"

(4)

سحبنا العجول المنهكة حتى آخر أنفاسها، وبقينا نروح ونجيء بهـا في حارة العم ماليان، فظللنا على هذه الحال، حتى اقتربنا من باب بيتـه، وإذا بخطانا تقف بنا عند بوابة البيت بالضبط، فأرهفنـا الـسمع على أصـوات تأتي من الحجرة الداخليـة. نظـرت إلى العـم دو بجـانبي، فوجـدت عينـه تومض تحت غيمة الليل، وهو يتشمم ويخنفر بأنفه، قـائلاً: "رائحـة أكـل لذيذة.. وحق ابن الزانية ذاك.. رائحة في منتهى اللذة التي في الدنيا!"

عبقت أنفي، أنا الآخر، برائحة لحم مقلي، ولم أتبين إن كانـت تلـك هي خُصَى الثيران بعد قليها؛ ثم عدت أقول لنفسي.. لابد أنها رائحـة الخـصى العجالي.. وإلا فرائحة ماذا إذن؟

سلمته مِقود الثور "روشي" وأخيه وهممت بدخول البيت، فربمـا كان جائزًا نـسيان كل شيء في حيـاتي إلا الطبـق الذي أبقتـه لي امـرأة عـمي،

وقالت إنها ستحتفظ به لي حتى يدخل الليل، ثم تنادي عليَّ لآخذه. والآن، قد أوغل المساء ولم ينادِ عليَّ أحد! لكن ما الداعي للانتظار؟ وهل ينبغي للمرء أن ينتظر أحدهم ليعزم عليه بطبق "النيودانزي"، الذي هو طبق خُصَى الثيران؟ ما هذا الغباء الذي حطَّ على رأسي! ثم إني لو لم أنتهز الفرصة الآن، واقتحمت بيت العم ماليان، لما تقاعس أيٌّ من الموجودين عن التهام آخر قطعة بقيت في الأطباق.

أحجم العم دو عن استلام مِقود العجلين، بل طوَّح من يده الحبل الذي كان معه، وقبض على كتفي مستفسراً بغضب: "إلى أين أنت ذاهب؟"

قلت: "أنا داخل لأرى مِن أين تأتي الرائحة.. أظن امرأة عمي تقلي شيئًا في المطبخ".

"آه.. لكن الدور ليس عليك هذه المرة"، هكذا قال، "بل هو دوري أنا الآن".

"بأي حق تدخل أنت من دوني؟" زعقت فيه، وأنا أتملص من قبضته فوق كتفي.

"بحق السن.. أنا أكبر منك، عيبٌ عليك"، وأضاف دو "وهناك كلام بيني وبين الريس ماليان.. وحاجات كثيرة مهمة بخصوص الشغل".

دفعني دو في صدري حتى ألصقني بوجه الثور، وقال: "اجعل المواشي

وسط عينك.. إياك أن تغافلك وترقد وأنت عنها بعيد". قالها وانطلق بكل ما فيه من عزم، فدلف من البوابة إلى حوش البيت الكبير.

اتَّقد في رأسي لهيب غضب فائر، وأنا أتخيل دو وهو يتناول الصحن المحجوز لي، ويلتهم خُصَى الثيران عن آخرها. انصت لي جيداً ياروشي، أنت وأخوك.. وأرهف لي آذانك أنت الآخر يا شوانجين، يا مَن فقدتم بيضكم اليوم.. انبطحوا أو انطرحوا أرضاً إذا شئتم! لا تلتفتوا إلى جروحكم التي لم تندمل، وارقدوا على راحتكم! عشتم من العمر القدر المعقول، فالقوا بأجسادكم كيفما ترون! أما أنا، فمهما قيل عني، فلن أسمح للعم دو أن يستولي على طعامي المحجوز لي.

ثم ألقيت الحبل، وتلمست طريقي بحذر إلى الحوش؛ فقد كنت خائفاً من العم ماليان، ولا أتجاسر على الولوج إلى البيت من الداخل، وكل قصدي أن أرقب الأحوال دون أن تفضحني طاقة الضوء المنبعثة من المطبخ؛ فتسحَّبتُ أطأطئ رأسي من تحت شباك الحجرة الداخلية، وكان مصراعه مغلقًا وعليه غطاء ورقي بدل الزجاج. فرحتُ أمد لساني -كما يمد الناس ألسنتهم في الأقاصيص والحكايا- وألعق بطرفه حواف الغشاء الورقي، فتتمزق عن خرق ضئيل أتلصص من خلاله على ما وراءه. فكان أول ما لاحظته منضدة حمراء أمام الكانغ، وعليها أطباق ثلاثة: أحدها يحتوي على خصية ثور مقلية بالكرَّات، والثاني كمثله، أما الآخر ففيه

قطعة ضئيلة من خصية محاطة بشرائح الكراث؛ هذا بالإضافة إلى قنينـتي خمر خضراوين، وزوجين من عصي الطعام الخشبية؛ وعلى الطرف زجاجـة خضراء من النوع المخصص للمبيدات الزراعية؛ وبالطبع، فلم يكن بها الآن أية مبيدات، وإنما امتلأت عن آخرها بـ الـشاوجيو (العـرقي)، وكنـا وقتها نستعمل زجاجات المبيد الزراعي في تعبئة ذلك النوع مـن الخمـور، وذلك طبعًا بعد نفاد العبوة الأصلية؛ حيـث كنـا نغمرهـا في ميـاه النهـر الجاري مدة أربعة أو خمسة أيام، ثم نستخرجها لتعبئة الخمور الـتي شـهد لها العم ماليان- في مرات كثيرة- بقوله إنها كانت ألذ خمر طابت بها أفـواه الشاربين مدى حياتهم.

وساعة أن نظرت من ثقب النافذة، كان ماليان هذا جالساً على الكانـغ، وضيفه الرفيق لاو تونغ يجلس قبالته، وبينهما منضدة حمـراء، مـن نفـس لون الكانغ الفاقع مثل قشر الطماطم، وهو اللون الذي اختاره العم ماليـان بنفسه، وهو يشتري الأريكة والمنضدة الملحقة بها يوم شراء أثاث بيـت الزوجية؛ ومنذ أن دخل بامرأته حتى الآن ظل يعتبره أغلى قطعـة أثـاث في البيت؛ فلم يكن ينصبه في الغرفة إلا عند نزول "كبـار الـزوار" عليـه.. فقلت لنفسي.. إن الرفيق لاو تونغ صاحب حظوة عند مضيفه، فيـا حـظ مَن كان في مثل ذلك المقام! بجوار ماليان، جلـست الزوجـة عنـد حافـة الكانغ، وفمها مليء عند حوافـه ببقايـا الدهـن والزيـت اللامـع مـن أثـر الطعام؛ فظهر لي وكأنها أكلـت شـيئًا مـن طبـق زوجهـا، إذ سرى الدم في

عروقها واحمرت وجنتاها، ثم بدا أيضًا وكأنها شربت شيئًا من قنينة الخمر. ولاح جالسًا في قبالتهم- على مقعد خشبي عريض- الوغد الكبير الذي اسمه العم دو.. واسمه الحقيقي "دويمين".. ذلك النذل الذي وعدني بأن يزوجني أوهوا، ثم إذا هو يسحب كلامه، ويزوجها إلى نجار شاب من إحدى القرى المجاورة.. وجرت المجريات- عقب ذلك- على النحو الذي صارت إليه.. وقد ذكرتُ آنفاً أن اسمه "دويمين"، فهذا هو الاسم المعروف به في بطاقة الهوية، وإن يكن غير منادًى به؛ فقد كنا نناديه بـ"دو رومِنْ"؛ فكان هذا الـ دو رومن، الذي هو العم دو نفسه، جالساً فوق المقعد قبالة جلسائه، ويداه على ركبتيه والظهر مفرود على استطالته، مثل تلميذ مهذب في مدرسة ابتدائية، تحت شفته السفلى دمل مُشعر أشبه ما يكون بذقن تيس جبلي، ملامحه بارزة لأن وجهه طويل وشفته العليا نحيلة وملتمة، على عكس السفلى الأغلظ قليلاً، فضلاً عن أنها مُدلاة، وإحدى عينيه أكبر من الأخرى. وقيل إن السبب في هذا التشوه، دمّل أصاب العين وهو صغير؛ ولو أن عينه الضيقة كانت مستديرة، وبؤبؤها يروح ويجيء في حركة أكثر نشاطاً من الكبرى الخاملة تقريباً. ملبسه كان عبارة عن جاكت قطني أسود بأزرار نحاسية وبنطلون؛ قال إن الأزرار هذه لها حكاية، وإنه ورثها عن جده، وأهم ما يميزها أنها بقيت لامعةً مع الزمن. وكانت رأسه أيضًا لامعةً جرداء في حين اهتزت شفته الغليظة السفلى، وهو يتكلم قائلاً: "بالمناسبة، يا عم الريس ماليان.. ويا

أستاذ لاو تونغ.. لابد أن أبلغ حضراتكم بأن العجول نشفت جروحها وما عادت تنزف.. وكذلك العجل شوانجين؛ بعد العشاء اندمل جرحه تماماً".

قال لاو تونغ: "هذا كلام جميل.. أهم شيء أن ينشف الجرح ويبطل النزيف، وإلا لحصلت مشكلة".

عادت الدماء إلى وجه لاو تونغ بدل الشحوب الذي اعتراه طوال النهار؛ الخمر طبعاً كان لها في ذلك دور، خصوصاً أنه شرب كمية لا بأس بها؛ ولو أنه لم يكن مرتاحاً في جلسته مع الريس ماليان، الذي اعتاد أن يقعد متربعاً أو مقرفصًا حسب الأحوال. لكن لاو تونغ كان موظفاً رسمياً، له وجاهته ومكانته، فلم يكن ليتربع قاعداً مثل ماليان. والمشكلة أن ساقيه الطويلتين أعاقتاه عن الاستقرار في جلوسه، فلم يكن يرتاح إذا فردهما، ولا كانت تروقه الجلسة إذا طواهما.

قالت له امرأة عمي: "اجلس على راحتك، يا أستاذ لاو تونغ.. إذا لم تكن مرتاحاً مكانك، فعندك الوسادة، خذها واتكئ عليها".

رد عليها لاو تونغ: "لا.. لا داعٍ أبداً، أنا قاعد هكذا في منتهى الراحة".

"اعتبر نفسك صاحب البيت، أنت لست ضيفاً"، سحبت المرأة وسادة من جانبها، وحشرتها تحت إليته.

قال لاو تونغ: "مضبوط جداً هكذا.. أنا مرتاح الآن".

تناول العم ماليان القنينة، وصب الخمر في قدح لاو تونغ حتى ملأه، قال: "اشرب يا رجل.. نحن أتعبناك معنا اليوم".

رفع لاو تونغ القدح إلى فمه وشربه دفعةً واحدة.. كركركركر.. أفرغه فلم يدع فيه قطرة.

ولعق دو رومِنْ شفتيه، وقال: "أنا عندي اقتراح، يا ريس ماليان".

فسأله الريس ماليان، بنفاد صبر: "نعم يا سيدي.. قُل لنا اقتراحك هذا".

أجابه دو رومن: "طبعًا تعرف أن عملية قطع خصية العجول تُعتبر عملية كبيرة؛ فمِن رأيي أن نجمع كميات من الكُسب والتبن ونعلفها بها، بعد ما ننقعها في شيء من الماء، على سبيل العلاج؛ لعلها تسترد عافيتها في وقت أسرع".

قال له ماليان: "أنت تتكلم على كيفك طبعاً، لأن الواقف غير القاعد.. والقاعد غير المقطوع وسطه.. وهل تظن بأن التبن والكُسب.. وغيره وغيره من كل هذه الحاجات نصبح في الصباح فنجدها تنزل علينا هكذا، مِن السماء؟.. يا رجل، نحن في الوحدة الإنتاجية لا نجد حتى الكيروسين لكي نضيء به لمبات النور، ولو وجدناه لشربناه شُرباً في بطننا من الضَّنك الذي

نحن فيه".

قال دو رومن: "ما رأيك يارفيق لاو تونغ، أليس صحيحاً أن العجول بعد خصائها تحتاج للتغذية الكثيرة؟"

نظر لاو تونغ إلى الريس ماليان، وقال: "إذا كانت الظروف تسمح، فالتغذية مطلوبة طبعًا؛ أما إذا تعذرت الأحوال فالموضوع لا محل له من الكلام.. ثم إن العجول- في آخر القول- مجرد بهائم.. يعني".

قال ماليان: "هل عندك شيء آخر تتكلم فيه؟ إذا كان هذا آخر ما عندك، فيا ليتك تقوم وتسرح بالعجول.. الولد روهان صغير وطائش، ولا يعتمد عليه، كما تعرف".

"طيب.. أقوم أنا الآن وأمشي". وقف دو رومن، ثم بدا وكأنه تذكر شيئًا فجأةً، فقال: "ياااه.. الواحد جاء وجلس معكم، وأخذه الكلام دون أن يقول أهم شيء. أنا كان عندي موضوع مهم.. ونسيت أن أقوله منذ أن جئتُ وقعدت معكم".

صوَّب ماليان إليه النظر، فحدَّق طويلاً فيه، حتى كاد يخترق قلبه ويبصر دفائنه.

"أصل المسألة أن زوج ابنتي الكبرى لما سمع أننا أخصينا العجول، رجع من مركز المدينة بسرعة". التقط أنفاسه، وعيناه على طبق الخصى

المقلية فوق المنضدة، ثم أكمل: "رجع زوج ابنتي، وقال لي إن الأستاذ تشن، أمين اللجنة الموجود في الوحدة الزراعية، يحب طعم خُصَى الثيران المقلية، ولذلك طلب منه أن يأتيه ببعض منها إذا أمكن. فقلتُ له يا بني الوقت فات، ولن تجد الآن في أي ركن من القرية كلها رائحة خُصَى العجول، لا الثلاثة الذين يدور عليهم الكلام ولا حتى ثلاثون ثوراً غيرها. فالآكلون كثيرون، والبطون جوعى! فخاف الرجل أن يعود إلى رئيسه، أمين اللجنة، فيوبخه ويعطل له مصالحه، ففكرت ونصحته أن يقول لرئيسه إننا تبرعنا بالوليمة للعم تشان، باعتباره وصياً على يتامى عائلة الشهداء؛ وساعتها، فلن يفتح أمين اللجنة فمه بكلمة، حتى لو اكتوى قلبه من الغيظ؛ فقال لي زوج ابنتي إن هذه فعلاً فكرة معقولة. وهو أيضًا أوصاني برسالة أنقلها إليكم، بخصوص طريقة قلي خصيان العجول.. حيث إنه لابد أولاً أن تُضاف إليها كمية من الخل والثوم، وإذا أُضيف قدر من اليانسون والديش المعطَّر، القريب من النعناع، فلن يجد فيها الآكل رائحة الصنان، حتى لو لم تُنزع منها عروق البول.. وإذا لم تضف هذه التوابل- بأي شكل من الأشكال- فستبقى فيها الرائحة، مهما انتُزعت منها العروق".

تناول عصا الأكل من أمام لاو تونغ، وقلَّب بها قطع الخُصَى في الطبق، وقال: "لم تضعوا سوى الكراث؟" التقط قطعةً منها بالعصوين الخشبيتين وقرَّبها إلى أنفه فتشممها، وقال: "يا للخسارة.. وجبة رائعة مثل هذه..

أفسدتموها بأيديكم؛ يا للخسارة! لو كنتم طلبتم زوج ابنتي ليطبخها لكم بنفسه، لكانت الرائحة ألذ من هذه مائة مرة". اقترب بقطعة اللحم ثانيةً من أنفه، وتشممها بقوة، قائلاً: "رائحة عروق بول.. للأسف، بكل أسف!"

قالت المرأة: "جرِّب قطعةً واحدة يا أخ دو.. لعلك تجد الطعم في فمك مستساغاً".

زجر العم ماليان امرأته قائلاً: "إياكِ أن تعطيه شيئاً، فالرجل يقول لك إن الأكل غير نظيف، فكيف إذن تسمحي لنفسك بتقديم طعام غير نظيف له؟ هل تريدين إحراجنا معه؟ ثم إن بيته عامر بأصناف اللحوم والأسماك.. الأكل في بيته لكثرة ما اختزنه في الخزانات، أصابه العطن.. فهو مستغنٍ عما عندك!"

أعاد العم دو قطعة اللحم مع العصوين الخشبيتين إلى الطبق أمام لاو تونغ، وقال: "ليت هذا الكلام صحيح؛ فالحقيقة أن بيتي ليس فيه لحم تعفَّن من كثرة التخزين؛ ولو أن اللحم لا ينقطع عن مطبخنا في كل حين. وعلى العموم، فمن حسن الحظ أن زوج ابنتنا جزار في السوق، وأنت تعرف".

قال له ماليان: "أنا أعتبرك أكبر محظوظ قابلتُه في عمري.. بل إن أمين الوحدة نفسه ليس له قدر ما لديك من الحظ، ولا حتى الذين أنجبوه!"

"دام عليك أنت الحظ، ولك ألف شكرا!" هكذا حيَّاه العـم دو، وهـو يقوم واقفاً ويستعد للخروج. لكنه بعد خطوتين، استدار ليقـول: "كنـتُ أريد أن أقول لك يا حضرة الريس، إني ما عاد يمكنني السهر طـوال الليـل بعد كل هذا العمر.. ولذلك، فلك عندي أن أجتهد في نوبـة الليـل الأولى، لكني لاأستطيع مواصلة النوبة الثانية، هذه ليست مهمتي".

قال ماليان: "مهمة مَن يا تُرى، إن لم تكـن مهمتـك؟ ثـم إنـك أنـت المسئول عن تربية العجول".

أجابه العم دو: "مربِّي العجول يطعمها في المذاود، وليس من شغلته أن يسرح بها".

قال له ماليان: "ليست لي دعوة بأي شيء من هذا.. لكن إذا حصلت مشكلة، فأنت المسئول".

قال العم دو: "هو هكذا دائماً.. فالإنـسان المهـذب والمخلـص يـضيع حقه!"

خرج العـم دو، وهـو يـسب ويلعـن بـصوت خفـيض. وخـشيت أن يلمحني، فأقعيتُ تحت النافذة. فلما كان خارجاً من تحت ضـوء المـصباح إلى ظلمة الحوش، غامت في عينه الأشياء، وأصـبح يتحـسس طريقـه ولا يراني، وهو يمشي خارجاً بخطى مترددة ورأس مكدود؛ فـانتهزتُ الفرصـة وانسللت إلى المطبخ، ففتحت الخزانـة ومـددت يـدي داخلهـا أتحـسس

الأواني، حتى اصطدمت كفي بطبق في ركن بعيد. فلما دفعتُ إليه إصبعي، وجدته مليئاً. وإذ قرَّبتُه وتشممت الرائحة، أدركتُ أنها الخُصَى التي أبقتها لي امرأة العم. وأكبرتُ وفاءها للوعد وحفظ العهود، فاحتضنت الطبق وهرعت إلى الحوش. وقتها، سمعت صراخ العم دو في الخارج: "يا ريس مالياااان.. مصيبة.. مصيبة.. داهية وقعت على رؤوسنا! العجول بركت على الأرض!"

لم أكترث لأي شيء حولي، بل اندسستُ وراء كومة قش، ممسكاً بالطبق ألتقط القطعة من الخُصَى وألقم بها جوفي. ولمحت العم ماليان، وفي إثره الطبيب لاو تونغ، يهرعان إلى الخارج. ثم جاءني صوته منادياً عليَّ: "روهااان.. روهااان.. أين جريت يا ابن الكلب؟" فأسرعت في الحال أبتلع ما بقي في الطبق، دون مضغ؛ بل دون اعتداد بما إذا كان طعم الخصى مختلطًا برائحة بول الثيران. فلما أتيتُ على ما في الطبق، وضعته جانباً وتجشأت، ثم خرجت من وراء القش في منتهى الهدوء، فيما كان الجميع بالخارج ينادون عليَّ في نفس واحد. في أعماقي، كنت سعيداً لأني نلتُ منك ياعم دو.. أيها الوغد دو، يا جيفة الثعالب.. وقعت، فكان خراب بيتك بيدي.

ما إن برزت خارج الحوش، حتى كانت يد العم ماليان تقبض على رقبتي: "يا ابن السخائم.. أين كنت تبيض [أين اختبأت]؟"

أجبته بصراحة: "لم أكن أضع بيضاً، بل كنت آكل البيض.. بيض الثيران!"

"ماذا؟ أكلت بيض الثيران؟" سألني العم ماليان مندهشاً.

قلت: "طبعا أكلته.. أكلت منه طبقاً ممتلئاً حتى آخره".

صاح العم دو قائلاً: "آآه.. هكذا الأمر إذن.. أنتم عائلة واحدة يا ريس ماليان، كلكم عائلة، بعضكم من بعض واللقب واحد، وأنا الغريب في وسطكم.. عموماً، فأنا كنت طلبت منه أن يراقب العجول فتركها وراح يأكل.. وهي لم تجد من ينهرها، فبركت مكانها؛ فإذا لم تمت، كان خيرًا، أما إذا ماتت فلا شأن لي بأي شيء! ليتك تشهد على ذلك كله يا رفيق لاو تونغ".

كان الرفيق لاو تونغ مضطرباً للغاية، وهو يقول: "المهم، أيديكم معي الآن، لكي ننهضها من الأرض بأية وسيلة".

رأيتهم ينهضون العجول بمشقة بالغة، ولهاثهم يملأ الأسماع. فلما أقاموا الأخوين "روشي"، إذا بشوانجين ينبطح ثانيةً. وما إن أوقفوه على قدميه هو الآخر، حتى خارت قوى "روشي" الكبير، فانشغلوا بذلك لبعض الوقت، وبلغ بهم الكرب مبلغه حتى استقام الأمر، وثبتت وقفة الثيران.

أشعل لاو تونغ الكبريت ليفحص الجروح، فاقتربتُ ورأيتُ الدم

المتخثر متجمعاً على حواف الجرح الظاهر في موضع الخصية المقطوعة، بين ساقي شوانجين، ولونها كالنبيذ أو أكثر دكنةً قليلاً. واعتدل لاو تونغ واقفاً، فتجشأ بصوت بشع ورائحة أشد بشاعة، وراح يترنح في وقفته، وهو يقول: "لولا عناية السماء.. لنزف الجرح؛ غير أن الدم مترسِّب بعض الشيء. والأفضل أن يُفصد من كيس الصفن وإلا فستبقى الخطورة قائمة. ولذلك، فمن المهم جداً.. أقول لكم بصراحة، أن تفتحوا عيونكم على الثيران، ولا تدعوها تبرك بأية حال؛ وإلا فستحدث كارثة لا نعلم مداها.. وأنت يا عم ماليان، أنت الرئيس المسئول عن الوحدة الإنتاجية هنا، ولابد أن تكون مسئوليتك موضع ثقة!.. العمل دائماً هكذا، والمسئولية من غير انضباط تصبح فوضى".

قال المعلم ماليان: "اطمئن من هذه الجهة.. المسئولية بيدي، وكل شيء سينضبط حالاً".

(5)

لم تكن أحوال العم ماليان في تحمل أعباء المسئولية لتدعو إلى الثقة. وبالطبع، فلم يكن بيده أن يضبط أي شيء. والحاصل أنه بعد أن مشى برفقة ضيفه، ليوصله إلى أول الطريق، حيث ركب لاو تونغ دراجته فتلكأ بها قليلاً، ثم اندفع بخبال كغزال ضرير شارد في تيه الظلمات، أن وقف العم إلى جانب الطريق، ثم فك أزرار بنطاله وأفرغ بوله على الحائط. وقال له العم دو: "اسمع يا ريس.. في الصباح الباكر، يلزمني أن أعلف العجول، وأنظف الزريبة، فلايمكن أن أقضي الليل بطوله في التجوال بالبهائم، اعمل معروفاً!"

التفت ماليان، وهو ينظر إليه شزراً، وقال: "إذا لم تسرح أنت بالبهائم فمَن يسرح بها؟ يعني تريد أن أشتغل أنا بهذا بدلاً منك؟ لا تظن أن

أزواج بناتك- الذين يتكسبون أرزاقهم في الوحدة الزراعية- يمكن أن يزيدوا قدرك فوق الناس.. هل نسيتَ نفسك؟ هل نسيتَ مَن أنتم بالضبط؟ لا تنس أن شغل الذبح وتربية البهائم ومثل هذه الحاجات ، كانت قبل التحرير من أشغال الأوباش، والآن أصبح الأوباش يترفعون عن العمل مثل الأكابر!"

قال له العم دو بمنتهى البرود: "تقصد بكلامك هذا أن الأحوال قبل التحرير كانت أفضل مما نعيشه الآن؟"

أجابه ماليان: "أنت تخرف؟ مَن قال هذا؟ مَن قال إن الأحوال قبل التحرير كانت أفضل من ظروفنا المعيشية الآن! كان أهلنا قبل التحرير مغروسين في الضنك.. فلاحين فقراء حياتهم شقاء، والعيش مُر.. لكن الآن، بعد التحرير، اختلفت الدنيا، وبقينا في حالة هنيئة؛ فمَن قال إن الظروف الأولى كانت أحسن؟ هذا الكلام يقوله أمثالكم من الفلاحين الميسورين، لأنكم ضد التحرير أصلاً، بينما نحن "قوة الثورة الأساسية"! والرئيس ماو تسي تونغ كان يقول دائماً.. "لولا الفلاحين المعدمين ما قامت الثورة أبداً". فهل يفهم مثلك هذا الكلام؟"

بُهت العم دو وتحيَّر، وأخذ يغمغم: "وأنا أيضًا مع التحرير، وأعمل لمصلحة الناس.. وأنت تشهد بجهدي واهتمامي بالعجول الثلاثة، وشغلي مع الثلاث عشرة بقرة الأخريات".

قال ماليان: "جهد ماذا.. وشغل ماذا؟ أنت أربكت رأسي بكل هذا اللف والدوران.. اسمع، إذا كان عندك مشكلة فتعال نتكلم فيها من باكر".

ودخل العم ماليان الحوش، وصفق الباب وراءه.

وراءه، وعند الباب المقفول، بصق العم دو بصقة غليظة، وشتمه بصوت خفيض: "فلتُصِبكَ مصيبةٌ تقطع خَلَفك من الأرض!"

قلت له: "أهكذا؟ هل يحق لك أن تشتم عمي؟"

قال دو: "نعم أشتمه.. أشتمه بأعلى صوتي.. فلتُصبكَ مصيبة يا ماليان تقطع خلفك ونسل أهلك من الأرض أجمعين، وتموت شرَّ ميتة، ولا مَن ينجدك! هه؟ مارأيك؟ اذهب بسرعة وقل له عني بماذا شتمته، هيا الحق بصاحبك الآن!"

مضى وشوانجين يتبعه مهزولاً، بتثاقل يمشي فيعرج، وتكاد تنثني أقدامه، ويترنح ذات اليمين واليسار كمحتضر هرم يلفظ أنفاسه؛ فذاك هو العجل الذي رأيته ذات مرة، في مرعى السهول بمنطقة "دونغبي"، وكان يتقافز مثل فهد، ويمرق كأُفعُوان. أما وقد حلَّت به الآن الحوادث، فقد اعتصرتني مرارة المنظر وانفطر قلبي أسىً عليه.

سحبتُ الأخوين "روشي" ومشيت وراء شوانجين، قريباً من ذيله كنت، حتى كادت جبهتي تمس ذيله، وأصبحت أنفي في مستوى عظمَتَي

كتفيه البارزتين، فيما تجاوزت عيناي حدبتي ظهره، وأصبحتا تترامبان صوب ظهر العم دو نفسه.

سرنا يلفنا الصمت، حتى بلغنا منطقة سدِّ النهر. كان الجو يعبق برائحة شجر "الخوايهوا"*، وسرى العبير تحت هدأة الليل كمَسرى غبش الضباب يلف الساهرين، فأفغمت رائحته أنفي وتوالت عطساتي؛ وكذلك راح شوانجين يعطس مرةً تلو أخرى. وبينما كنت أهتز من العطسة، فيمتلئ صدري بأنفاس قوية تزيح عني الوهن، كان شوانجين ينتفض من عطساته، فيخور ويترنح ويكاد يسقط في عرض الطريق؛ فمع كل هزة، تتقلَّص مفاصله، ويحدودب ظهره كالجمل ذي السنام. وبالطبع، فقد كان أثراً من ذلك يطال الجرح الغائر بين فخذيه، فيستعر الألم.

وقعت الجفوة بيني وبين العم دو، فلم يكلمني طوال الطريق، ولم يكترث لوجودي على أي نحوٍ كان، وكل هذا بسبب طبق الخصى إياه. فمن ناحيتي، كنت أفهم تماماً مشاعره وأقدرها. ثم إني لاحظته وهو يسحب شوانجين، ويقترب من شجرة "الخوايهوا"، ثم يربط طرف الحبل في أعلى الجذع، بحيث يظل الثور واقفاً فيمتنع عليه الانبطاح نهائياً، وتتعذر عليه الحركة إلا في حدود ما أرخاه له من الطرف المعقود؛ فبقي شوانجين ماداً عنقه لأعلى كأنه معلَّق في غصن. تأملت ما جرى، فبهرني العم دو

* هو شجر الصُفيراء الياباني (المترجم).

بسعة حيلته، وقلت لنفسي كيف لم تواتني مثل هذه الفكرة؟ فرحتُ أقلده. وكان أن أسرعتُ بتعليق مِقود الأخوين "روشي" في الغصن العالي، وقلت فلأتحرر أنا الآخر من القيد وأنعم بهدوء الخاطر، وخاطبته قائلاً: "أنت يا عم دو عبقري، صاحب عقل ونباهة!"

جلس القرفصاء عند منحدر سد النهر، وأجابني ببرود: "وأين عقلي من عقلك، أنت، ذي الحيل والأفكار.. أين أنا منك يا معلم!"

قلت: "أنا أتممت الرابعة عشرة من عمري يا عم دو، فعلى ماذا تناديني بصفة الكبار؟"

قال: "وإذا لم تكن أنت الكبير، فمن يا تُرى هو الكبير في هذا البلد؟ أيكون الكبير هو أنا؟ لكن كيف أكون الكبير، وأنا حتى لم ألمس خصية عجل مقلية في طبق، وكيف تزعم أنك لست كبيراً بينما أكلت طبقاً بتمامه! أي زمن هذا، أية أحوال ظالمة هذه، أية سخائم؟"

تهدئةً لثائرته، قلت له: "هل صدقت حقاً يا عم دو أني أكلت طبق الخصى بجد؟ يا رجل، أنا كنت أتسلى بهذه الكذبة الصغيرة".

"يعني، أنت لم تأكل طبقاً من خصى العجول؟" سألني دو بمزيج من الدهشة والسرور.

قلت: "فكر بعقلك.. ألست كبيراً؟ عندك ذئب جائع مثل العم ماليان

ونمر جشع مثل لاو تونغ.. فهل تعقل بمخك أن تكفيهما ست خصى عجَّالي؟ أظن أنها حتى لو كانت ستين خصية مقلية، لما أشبعتهما في ليلة واحدة".

قال العم دو: "لكن الطبق الذي رأيته كانت به فعلاً قطعة صغيرة".

قلت: "نسيت أنت، ولم تنتبه إلى أنهم جعلوها من نصيب امرأة عمي".

قال: "كلامك يا ابن اللئام كأنه الصدق الذي ما بعده، وأنا كنت- في الأول- بين الشك واليقين، فأكذبك ساعة وأصدقك أخرى".

الآن، أصبح يصدق تماماً أني لم أقرب خصية عجل في طبق، وأدركت هذا من هدوء أنفاسه بعمقها وتتابعها الموزون، الدال على استقرار مشاعره. ثم إنه أخرج- من طيات الصديري- مبسم السجائر، فثبت فيه واحدةً وأشعل الولاعة القديمة التي كانت تفوح منها دائما رائحة الكحول. شاعت في الأجواء رائحة الدخان اللاذعة، كمثل سكين حامية اخترقت عبير أوراق الخوايهوا. وكان الليل قد أوغل، والقرية أُطفئت أنوارها، وليس ثمة قمر وسط السماء، غير أن النجوم بدت كثيفة وزاهرة في عليائها، والمجرَّة نهرٌ ساطع الألق، حتى انزلقت على جسره نجمة عابرة، فيما كانت مياه النهر بجوارنا تمرق فوق الحاجز، فينساب التيار في آذاننا، صدىً غير بعيد، والماء رائقٌ كصفحة زجاجية شفافة وناعمة، ومن حولنا أشجار الخوايهوا، أغصان وخمائل شتى، متراصة كأنها مخلوقات ليل

هامسة تتحامى هجمةً معتمةً ثقيلة الوطء. فبينما نحن في هذا، وإذا بنسمة جنوبية هادئة كرفيف جناح أطلت فداعبت وجهي، وواعدتني همساتُها بأمسية ربيع مخملية.. ذكرتني بالأرض الخصبة والنهر الجاري، بالبنت "أو هوا" [الزهرة الخامسة]، لكني عدتُ فنازعتني وساوس الريبة في ليالي الربيع. وكانت أنفاس الأخوين "روشي" بجانبي هادئةً على حالها، ليس سوى أنفاس شوانجين هي التي ترددت ثقيلة مليئة بالكدر. كانت بطون العجول كبطني، تقرقر بصوت مسموع. ولطول ما بيننا من الصحبة، فقد تعلمت منها الاجترار؛ فطلبت ما كنت قد التهمته من قبل من الخصى، وحرصت على المضغ بتؤدة لأتلذذ على مهل بمذاقها. وخفت أن ينتبه إلى رائحة الطعام المجتر في حلقي ذاك القرد، الأعظم حساسية من كل القردة في تشمم الطعام.. أي العم دو نفسه؛ فدفعتُ بالطعام ثانيةً إلى أعماق جوفي، وامتلأت جوانحي هدوءاً وثقة، إذ شعرت بمقدرتي على اجترار أطباقي وقت لهفة الناس على ما لا يجدونه فوق موائدهم. وقلت لنفسي: فلأُرجئ هذا إلى وقت لاحق، ولكل شيء وقته. وكان أن اقتربتُ من العم دو، قائلاً له: "هل يمكنك أن تعطيني سيجارة مما معك.. يا عم دو؟"

ردَّ عليَّ: "أية سجائر، وأنت صبي صغير؟"

قلت: "كنت تعتبرني منذ قليل كالكبار، فكيف تغيَّر رأيك في لمحة عين؟"

قال: "الكلام الذي قلتُه منذ قليل.. يختلف عما أقوله الآن؛ هذا شيء، وذاك شيء آخر؛ فالواحد منا يقول كلامه في وقتٍ ما.. ثم يغيره فيما بعـد!" راح يقرع المبسم في حافة كعب حذائه لينفض منه عقب السيجارة، ويقول في شيء من الغيظ: "لو كنتَ قد رأيتني منذ عشرين عاماً، لعرفت أنه لو كانت قد وُضعت أمامي في ذاك الوقت عشرات من الأطباق الممتلئة عن آخرها بكل أصناف اللحوم، وليس فقط خصى العجول.. لما اكترثتُ لمجرد النظر إليها!"

قلت: "ها أنت ذا تنفخ في الأبواق ياعم دو، وتقول مبالغات لا تُعقل!"

"وما الذي يجبرني على النفخ في الأبواق من أجل ابن كلب مثلك؟" واصل كلامه: "اسمع لما أحكي لك. كان أبي في ذاك الوقت، كلما حان موعد سوق "ما سانغ"، يذهب للتسوُّق، ويشتري من اللحم ما قد يصل وزنه إلى خمسة جينات*..بالميزان القديم يعني.. وهو ما يساوي بموازين وقتنا الحالي ما مقداره سبعة جينات، وربما أكثر.. وكان إذا لم يشتر لحماً ذهب إلى سوق السمك، واشترى لنا ما كان يجده طازجاً، مثل: الشبوط الأسود أو سمك "البا" أو "النعّاب" أو "البيماو" أو سمك "المودو" ذي الحراشف.. وكان ركن الأسماك، في تلك الأيام، يبعد عن مركز السوق نفسه بنحو ثلاثة أميال، فكان يمشيها كي يشتري لنا سمك "الليداو"، الذي كان يغزر في

---

* كيلوغرامين ونصف، تقريباً (المترجم).

الأسواق مع بداية موسم تفتح أزهار الخوايهوا، حيث تتسلط الشمس فوق الدنيا والناس، وينصبُّ الحر اللافح على صفحة الشارع، ويجاوزها إلى الجانبين فيشوي ظهر الأرض. إذ ذاك، ينثال الضوء في قيظ النهار، وتتحاشى العيون ضوءه الساطع. وكان الجمبري الكبير يُباع بحساب القطعتين منه نصف جين، أي أن الزوجين الكبار بوزن الجين؛ فكان أبي يجيء بالشوكة الخشبية فيلتقط منه، ويشتري لنا الزوج بنصف نحاس.. وأنت وقتها كنت تجد كل ما تشتهيه نفسُك، ما دام معك نقود، لكنك الآن- حتى لو كان جيبك عامراً بالمال- فلن تجد مكانًا يبيعك مثل هذا الصنف من طعام البحور، بل لن تجده أصلاً في أي مكان.. فأين سمك الليداو الكبير، الذي كانت الأوقية منه بالشيء اليسير.. هه؟ أين ذهبت كل تلك الأشياء الحلوة.. قُل لي مَن الذي التقم هذه الحاجات؟ زوج ابنتي الكبرى قال لي إنهم يصدِّرون هذه الحاجات إلى الخارج.. فقُل لي أنت إذن كيف يتصرف الصينيون- ممن هم مثلي ومثلك- بكل هذا الغباء؟ أمعقول.. أبدلاً من أن يتركوا الناس هنا يأكلون هذه الأشياء الحلوة، يأخذونها ويصدرونها إلى الخارج!.. أي خارج هذا، وماذا يكون بالضبط؟ يقولون لك إن التصدير يأتي بالعملة الصعبة؛ فإذا كنا قد كسبنا هذه النقود، فأين ذهبت؟ أقول لك الحق، الكل يحاول أن يخدع الناس، لكن الناس أبداً لن ينطلي عليها هذا الغش.. صحيحٌ أن كل واحد وضع قفلاً على فمه، وكتم صوته وامتنع عن الكلام، لكن الحقيقة واضحة في

الضمائر، والنفوس كاشفة لكل شيء كما المرايـا المجلـوة. انظـر مـثلاً إلى "الكومونة"، مزرعتنا الجماعية ، أليست مكونةً مما يزيد عن أربعين فريق عمل، وربما تتكون هذه من فوق المائة جماعة صغيرة، الذين يبلغ مجمـوع أفرادهم في الجملة قريباً من سبعين أو ثمانين ألف فرد؛ ومـع ذلـك، فيـوم أن تُذبح الذبيحة في السوق، فهي لا تزيد عن بهيمة واحدة.. قُل خنزيراً أو ما شابه. وطبعاً، فأنت توزع اللحم، فلا يكاد يكـفي إلا المـوظفين دون سواهم، وربما لا يكفيهم. لكن، تعال انظر إلى سوق ما سـانغ، أيـام كان سوقاً يباع ويشترى فيه، زمن الأيام الفائتة؛ كنـت تجـد ذبـائح الخنـازير وحدها تفترش فوق الثلاثين طاولة، بالإضافة إلى ذبائح البقـر و.. و.. وكل ما تشتهيه نفسك من لحوم. كانت الأبقار وقتها.. الأبقار السمينة، تمـشي وهي تترجرج مثل جبل من لحم، وجلدها مشدود ولامع تنزلق عليه قربـة ماء ولاتعلق به قطرة؛ والذبيحة منها تعطيك أكثر من الألف "جين" وزنة لحم في الرأس الواحدة؛ واللحم من دسمه تلفه في الـورق.. وثخانـة الورقـة بمقدار ثلاثة أصابع لكي تتحمل اللفائف المدورة مثل قطع جـبن الـصويا الكبيرة.. تفرغ الورقة منها وتضعها في القدور، فلا تكاد تقلبها بالمغرفة حتى تنضج في ساعتها. وبخمس نحاسـات فقـط، تـشتري لنفـسك جينـاً [وزنة] ساخنة دسمة، وبجوارهـا قـدحان "كاو ليـانغ" [خمـر]، وتـسحب أحسن كرسي، وتقعد تتمتع بما في فمك وأذنك وعينك، تتفرج على الرائح والغادي، وتسمع الأغاني وتأكل هنيئاً مريئاً؛ فقُل لي أنت بعد ذلـك.. أيـة

لذة هذه".

بلعتُ ريقي، وقلت له: "أمعقول يا عـم دو؟ أو تظـن أن تـسرح بي أنـا وتخدعني؟ أمعقول كان العهد البائد مليئاً بهذا الخير كله؟"

قال العم دو: "أنت غريبٌ أيها الولد.. مَن قال لك إن العهد البائـد كان بهذا الخير؟ أنا لم أقل لك شيئًا من هذا أبداً.. وكل مـا قلتـه تـوًّاء كان عـن وجبة لذيذة فيها لحم بقري وقدحان تروِّق بهما رأسك".

سألته: "يعني وجبة اللحم البقري هذه والمـشروبات وغـيره.. كل هـذا كان في الزمن البائد.. أصحيح هكذا؟"

قال: "آه، تقريباً.. هو هكذا فعلاً".

قلت: "إذن، فكلامك عن اللحم البقري الدسم وأقداح الشرب- كمـا حكيت لي- معناه أن المجتمع القديم الذي انتهى زمنه، كان طيبًـا ومليئًـا بالخير!"

انتفض غاضباً، وقام على قدميه صائحاً بي: "ماذا تقصد يعـني! أتقـصد أن تفتح لي مصيدةً، وتوقعني فيها.. هه؟"

قلت: "أنا لم أفتح لك مصائد.. بل أنت الذي خربـت رأسـك لجهلـك بـ"الموقف الطبقي"!"

سألني مرتاباً: "أنتم- يا شباب هذه الأيام- تقولون كلمات غريبة.. مـا

معنى الـ"الموقف الطبقي" هذا الذي تقوله؟"

قلت: "يااااه، ولا تفهم أيضا "الموقف الطبقي"؟"

قال: "نعم، لا أفهم ما هو".

شرحت له قائلاً: "انظر معي.. "الموقف الطبقي" هذا عمومًا معناه أن المجتمع البائد كله كان سيئاً للغاية، لكن المجتمع الجديد أفضل منه، والطبقات الفلاحية تحت المتوسطة والفقيرة لم تكن سيئة. لكن هذا ليس معناه أن هذه الطبقات الفلاحية كان عندها كل شيء، على أحسن ما يكون.. هل فهمت؟"

قال: "خلاص.. فهمت، فهمت.. لكن- على أية حال- فاللحم والسمك أيامها كان كثيراً.. أكثر من أيامنا هذه".

قلت: "أكثر من أيامنا هذه، لكن الفلاحين الفقراء لم يعرفوا طعمه في أفواههم، فلم يكن يأكله سوى ملاك الأراضي الأغنياء".

"لا.. ليس مضبوطاً؛ فقد كان بعض ملاك الأرض الأغنياء يضن على نفسه بتلك الأصناف من الأكلات، في حين كان هناك من الفلاحين الفقراء مَن لا يبخل على نفسه بها.. عندك مثلاً عائلة "فانغ"، حيث كانت زوجة كبير العائلة وأولادها لا يشترون من الملابس والسراويل ما يكفي حاجتهم. ومع ذلك، فقد كانوا مولعين بكل أصناف اللحوم والأسماك.

فما إن يأتي موسم الحصاد، ويجمعون الغلال ويبيعونها، حتى يهرعوا بالنقود إلى الأسواق، فيشترون كل ما لذ وطاب، حتى إذا انتهى المحصول نفد منهم كل شيء، وراحوا يتسولون الطعام هنا وهناك".

قلت: "أنت بذلك تروج الشائعات المغرضة حول الفلاحين الفقراء!"

قال: "تمامًا.. هو هذا بالضبط، أنا الآن أروج الشائعات المغرضة، على حد قولك".

جلسنا متجاورين، وقد حطَّ علينا الصمت ووطأة الليل، وثمة ضباب يلف الأجواء، ومن جانب النهر انبعث نقيق الضفادع.

كان يناجي نفسه: "هي ذي الضفادع تنقنق.. بعد ثلاثين يوماً نأكل خبز طحين القمح الجديد، خبز القمح مليء بالفتائل والألياف، لكن "الجياو تسي" طعمه ألذ.. والمعكرونة المرقَّقة ألذ، والأرغفة الطازجة المخبوزة على البخار، الأرغفة المخبوزة البيضاء.. الطرية الخارجة تواً من الأفران، تشقها نصفين فينفتح لك قلبها برائحته الزكية.. أرغفةٌ تسكر الآكلين...".

قلت له: "أتوسَّل إليك، يا عم دو، اقفل هذا الموضوع، وافتح موضوعاً آخر غير الأكل؛ فأنت كلما تكلمت هكذا قرص الجوع بطني وتعبت!"

"خلاص.. لن أتكلم، لن أتكلم في هذا". أشعل سيجارة وثبتها في

المبسم، وراح يدخن ووجهه يلمع بين الحين والحين، كلما انعكس عليه وهج طرف السيجارة المشتعل في تتابع سَحْب الأنفاس.

تثاءبت طويلاً.

وتثاءب هو الآخر.

"اسمع يا روهان.. لماذا نبقى هكذا كالأغبياء"؛ وأضاف: "نحن طبعًا علينا مراقبة العجول كيلا تنبطح على بطنها، أنت معي في هذا؟"

"طبعاً، من دون كلام".

قال: "فلماذا نبقى كلانا ساهرين، لماذا لا نتناوب النوم والسهر.. واحد يسهر والآخر ينام؟"

"فماذا لو غافلتنا العجول، ووقع المحظور؟"؛ تساءلت في قلق.

قام واقفاً فتفحَّص الحبل المربوط إلى الشجرة، قائلاً: "كله تمام، اطمئن من هذه الناحية وأنا المسئول؛ فالحبل متين جداً وسنعتمد عليه".

قلت: "طيب.. أعود أنا إلى بيتي الآن، وأنام".

قال: "أنت يا بني ليس عندك فهم ولا إدراك، أنا- في هذا العام- أكمل الثامنة والستين من عمري، يعني أكبر من جدك بسنة.. فهل من الأدب والذوق أن تسبقني أنت إلى النوم؟"

قلت: "وأنت يا رجل يا كبير.. أنت أيضاً ضعيف الإدراك؛ فكيف وقد بلغت الثامنة والستين تريد أن تنام؟ ألم تشبع نوماً في حياتك؟"

قال: "اسمع.. عندي فكرة جيدة، مسألة حسابية بسيطة، أطلب منك حلَّها، فإذا توصلت إلى الحل فهنيئاً لك النوم أولاً.. أما إذا لم تحلها فسأرجع أنا إلى بيتي لأنام".

دون أن ينتظر ردي، راح يلقي لُغزه: "أشجار الصنوبر في جبل "لاوشان" عددها ست وثلاثون ألف شجرة، في كل شجرة تسعة أغصان، وفي كل غصن تسعة أعشاش طيور، وفي كل عُش تسع بيضات، وفي كل بيضة تسعة عصافير، فقل لي كم يبلغ مجموع العصافير؟"

كانت أبغض كلمة إلى أذني- أيام الدراسة- هي كلمة الحساب، ما إن أسمعها حتى يصيبني الصداع. كانت أصابعي تمتد على استطالتها لتحسب الأرقام، فلا تتجاوز الرقم "عشرة" إلا بشق الأنفس؛ فإذا تجاوزته وقعتُ في الخبال؛ وقد فتح العم دو فمه بما يفوق العشرة آلاف، فأين لي بحل المسألة؟ ثم إنني لو كنت قادراً على حساب أرقام كبيرة كهذه فماذا كان يجبرني على مراقبة البهائم طوال النصف الثاني من الليل؟

قلت: "ابعد هذه الأشياء عن رأسي يا عم دو، أنا لا شأن لي بحساب صعب مثل هذا، وحتى لو كنت أستطيع الحساب بشطارة، لما أوجعت رأسي بمسألتك العويصة".

تنهَّد العم دو قائلاً: "ماذا دهاكم ياشباب هـذه الأيـام؟ تطلبـون كل شيء جاهزاً بلا معاناة، تريدون كل شيء سهلاً بلا معاناة".

قلت: "وعواجيز هذه الأيام أيضًا يطلبون السهل بلا معاناة!"

قال العم دو: "ما دام حظي أوقعني مع واحد من الأوباش مثلك، فقـد وقعتُ مع وجع الرأس.. خلاص، ليس هناك حل نافع فلنبقَ معـاً.. نقعـد هنا ساهرين".

انطرح العم دو قاعداً، وأنفاس الدخان من سيجارته تتوالى..

أسندتُ ظهري إلى جذع الشجرة، ورأسي إلى أعلى.. أعد نجوم السماء.

(6)

سمعت- وأنا بين النوم واليقظة- الثيران الثلاثة يبـصقون ويـصبون فوق رؤوسنا الشتائم، فيما كانت أشداقهم ترسل على وجهي نثار لعابها وقد أثلجته نسمات الليل البارد. اكتفى الأخوان "روشي" بقليل مـن الـسباب، وأخلدا إلى السكوت، بينما بقي شوانجين يكيل لي أقذع الألفـاظ، حـتى كادت غضبته العارمة أن تشق صدر الفضاء، قال: "يـا مَـن لا أصـل لـك ولاجنس معلوم.. ما الذي جذب لسانك لكي تقول عني- برغم صـفاء مـا بيننا- أني وثبتُ على ثلاث عشرة بقرة! أما دريت أنك بهـذا قـد أوغـرت صدر لاو تونغ ضدي، حتى أشفى غليله ببتر خـصيتي! ولـم يكفـك مـا أوقعه بي من بشاعات، بل إنك ذهبت عامداً وواتتـك الجـرأة على ابـتلاع خصيتي تلك الليلة". وهنالك انطلق الأخـوان "روشي" يـدعمان حجتـه، يقولان له: .. بل لـم يتـورَّع أيـضًا عـن أن يقـضم بيـضاتنا. ثـم قـال لي

شوانجين: عمري ما كنتُ أتصور أن يصدر منك هذا التصرف.. عمري ما توقعته منك.. يا للخسارة! أمعقول أن تكون أنت بكل هذه الوحشية! احتججتُ وصرختُ بأعلى صوتي أني مظلوم في هذا كله، لكن كتلة كبيرة من شعر الثيران انحشرت في حلقي، فتحشرج صوتي وانكتمت توسلاتي. فتكلَّم شوانجين مع الأخوين، قائلاً لهما: "انصتا جيداً يا رفاق.. نحن عشنا الحياة بحلوها ومرها، لكننا الآن- وبعد أن فقدنا خصياتنا- فالحياة والموت سيان. وإذا كنا فيما مضى نخاف هذا الهمجي الذي لا أصول له، فما الذي يجبرنا الآن على خشيته؟ أجاباه قائلين له: حقاً ما قلت، ليس هناك ما يدعونا إلى خشيته الآن؛ فقال لهم شوانجين: ما دمنا قد اتفقنا على أنه لم يعد هناك ما نأبه له ونخشاه، فتعالوا بنا ندق قروننا في رقبة هذا الصبي السافل.. لأنه من المستحيل أن ندعه يمر هكذا بفعلته التي فعلها، يوم أن قضم خصانا بأسنانه وشبع بها بعد جوع. ثم تكلم "روشي" الكبير، قال: .. لا أدري يا أخوتي إن كنتم شعرتم بما شعرت أنا به أم لا، إذ عندما كان يأكل تلك الخصى، كنت أحس كما لو أن سكيناً يشق خصيتي.. فتعجَّبت جداً؛ لأني رأيتهم بعيني وهم يبترون هذه الأشياء من جسمي، فكيف أشعر بآلامها وقد انفصلت عني! وهنالك أجاب عليه كل من "روشي" الصغير وشوانجين: ونحن أيضًا مثلك، شعرنا بها آلاماً مبرحة. ثم أضاف شوانجين قائلاً.. لا هوادة مع الوحشية.. وما داموا قساةً فلا رأفة بهم؛ ولنبدأ فوراً بهذا الصبي السافل، فننتزع أمعاءه، ثم

نمضي إلى ماليان ونسوّي حسابنا معه.

التصقتُ بجذع الشجرة والدمع ملء عيوني، أصرخ ولا يصدر عني سوى نأمة صوت واهن كمثل طنين البعوض. قلت: لا تظلموني، يا أخوتي الثيران.. فماذا كنت أملك أن أصنع غير ما صار.. رئيس الوحدة له الكلمة، يأمرني فلا أملك إلا الإصغاء.. شوانجين، انصت لي يا شوانجين.. أستحلفك أن تتذكر جيداً، هل نسيت، أمعقول أن تكون قد نسيت؟ في عِز شتاء السنة الماضية، كنت أنا الذي بحثتُ حتى لقيت مشط جدتي القديم، فجئتك به ومسدت لك شعرك، ثم سرَّحت لك جسمك بطوله.. رحتُ أمشِّطه وأنزع عنك القمل حتى تراكم في كومة تزن نصف جين [ربع الكيلو]، وأنت كذلك يا "روشي" الكبير وأخوك، كثيراً ما كنت أمشط لكما شعركما، وأزيل عنكما الأوضار والصؤبان العالقة بالأجساد.. ولولا هذا، لكانت تلك القرَّاضات قد مصَّت دماءكما.. ولا أنسى أن قلوبكم جميعاً كانت وقتها مليئة بالعرفان، خصوصاً أنت يا شوانجين.. فقد كنت ترد لي الجميل كثيراً، بأن تلعق يدي امتناناً.. تظل تدور بطرف لسانك في ظاهر كفِّي وباطنها.. فهل تعضون الآن يا أخوتي، هذه اليدا!.. لم يكن نكران الجميل من طبعكم. كان صوتي واهناً، لكنهم سمعوه جيداً، ولاحت في عيونهم- الغائمة بحمرة الأسى- رقرقات حُنُوٍّ دافئ أصيل. فانتهزت فرصة سنحت، وأجريت لسان الفصاحة الذي لا يخيب، فكان ينتخب لي مأثورات مما تُستدعى به أشواق الأيام الخوالي

وتذكار الود القديم؛ حتى رأيتهم يتبادلون النظرات، وإيماءاتهم تنحو إلى إقالة عثرتي والصفح عني، فكلّمتهم قائلاً: لن أنسى جميلكم، يا أخوتي الثيران، إذا عفوتم عني.. لن أنسى صنيعكم ما حييت. وحين يصير زمام الأمور بيدي، فسأنتقي لكم أجود العلف، وأعفيكم من مشاق العمل في الأرض، وآتي بمروحة وأقلّب الهواء فوق أجسادكم، فأنشف عرقكم في سخونة نهار الصيف، وأخيط لكم أردية من أقطان مع حلول الزمهرير، فتصبحون أسعد ثيران على ظهر البسيطة، وتمتلئون فرحة، وينظركم الناس، وليس لهم في مثل هناءتكم مثيل.

كنت أتطلع إلى عيون الأخوين "روشي" أثناء توسلاتي المعسولة، فإذا بالدمع فيض ينسكب بأحداق مرهقة. قال شوانجين: لا نريد مروحة في يدك، ولا أنت، في الحقيقة، آتٍ لنا بيدك فيها مروحة. وانس فكرة أن تخيط لنا الأقطان أرديةً لأنك- عن يقين- لن تحيك لأجلنا أردية نسيجها أقطان، وإلا فما كان أجدر بك أن ترتق مزق ثيابك المهترئة. وكلما أكثرت من كلام لا ينطلي على أحد، تجاوزت وبان زيفك؛ ومرادُك المراوغة ريثما تجد مهرباً، فمن شقٍ تلوذ بنجاتك. وحين تنجو بجلدك تنسلُّ كمثل أرنب في برية، تمضي ولا مَن يجد وراءك الأثر. قلت: القروي مثلنا يا أخوتي، لا يحنث في يمين ولا يخون كلمته، والنية الصادقة في قلبه أثبتُ من الوعد. فقال شوانجين: "ليتك تبطّل عزفاً على هذه النغمة السخيفة المملة.. فلطالما سمعناها صغاراً حتى مللناها، فانسدت دونها آذاننا.. غاية مثل

هذه الكلمات الرضوخ لليد الغليظة، تغدو بنا ساعةً إلى سفح الوعر الجبلي، وتروح بنا ساعةً أخرى إلى حضيض وحل الشاطيء. أليست هذه هي الغاية؟ قُل لي.. أليس ذلك هو المقصود؟" وافقته تمام الموافقة، مطأطئاً رأسي علامة الإيجاب، فاتجه شوانجين إلى الأخوين "روشي" قائلاً لهما: خُذا بمشورتي، وانتهزا الفرصة قبل انبلاج الصبح، فتعالوا نجهِز على ابن الأوباش هذا! وكان أن نصب الثلاثة قرونهم الصلبة تجاهي، وبكل قوتهم رشقوها في بطني، فصرخت من هول النطحة، وفتحت عيني على اتساعها، فرأيت كرة الشمس الحمراء تطلع من خلف سد النهر.

كرة الشمس الحمراء طلعت من وراء سد النهر باهرة الضوء. فلما تألَّقت، أخذتُ أرمقها حتى أزاغت عيني بنثار شعاع ذهبي، ففركت عيني ونظرت حولي، فصُعقت وهالني المنظر.. منظر العجول وقد انبطحت ثلاثتها على الأرض، رغم أنها مربوطة.. والحبل غير مقطوع؛ فكانت أعناقها ممطوطة بطول جذع الشجرة، وقد تقلَّصت أسنانها من الألم، وغامت عيونها كالموتى شنقاً، فرحتُ أحملق فيها كأني لا أصدق ما أراه، حتى استوعبتُ تماماً أنها بالفعل قد بركت على الأرض، فقفزتُ من مكاني غير عابئ بما أصاب جسمي من تيبس إثر إغفاءتي على الأرض الصلبة، ورحتُ أجذب الحبال، لكنها كانت مشدودة عن آخرها حتى توتَّرت، وتعذر جذب الثيران بها، وهي على هذا الوضع، فما العمل؟ لم أعد أملك إلا أن أرفسها في مؤخرتها، تحفيزاً لها على النهوض، لكنها لم

تتحرك قيد شعرة، فسقط قلبي من الرعب، وقلت أصابها سوء فماتت.. ماتت ثلاثتها على هذا الوضع، مشنوقةً بمِقودها؛ ولابد أنها انتهزت فرصة استغراقنا في النوم، فاتفقت كلمتها على الانتحار معاً، لأنها ما عادت تستطيع اتخاذ رفيقات حياة، عمرها بطوله لن تكون لأي منها زوجة، والحياة على هذا النحو لا تستأهل أن تُعاش؛ ومن ثم، كان الانتحار شنقاً هو قرارها. وعندئذٍ فقط، نظرت حولي فتذكرت العم دو، ذلك الكائن المغبرَّ القديم.. انسل خفيةً تحت جنح الليل، منتهزاً فرصة نعاسي، ليُلقي عليّ بتبعة موت الثيران. وفي تلك اللحظة، امتلأ قلبي كراهية له.. كراهية سوداء أنستني حبي لـ أوهوا. دو رومن.. آه يادو رومن الكلب! سأصرخ في البرية ببغضي لك، رغم أني أعرف أنك لن تسمعني.. سأردد في الأنحاء مثالبك، وأقرن اسمك بكل نقيصة ولن أغفر لك! لو كنتَ قبالة عيني الساعة، لوثبتُ عليك كما السبع الضاري، وافترستك حياً، وأنقذت الثيران مما أصابها على يديك؛ فلا مفر من افتراسك ثأراً لها. فكنت أوسِّع الخطو مهرولاً صوب غيط العم دو، وهناك لمحته يجلس وسط الزرع كمثل القرد وهو يحشُّ الكراث، والأرض- من حوله بعد حشِّه- تبدو كالرأس الحليقة بالموسى الحامية، وأكوام الكُراث متراصة بجوار بعضها بعضاً. وكان قد قام، هو وابنته أوهوا، بمهارتهما الحاذقة وفطنتهما الأريبة، بتجميع الأكوام في ربطات محكمة، ثم قامت أوهوا بنقعها في دلو الماء. وكلما أخرجت منها حزمة، بدت سيقان الكراث لامعة وممتلئة، بعد

تشبعها بالمياه، فكان منظرها الطازج رائقاً وبديعاً، وكل ربطة مدلاة بيدها تتقاطر من أطرافها قطرات الماء مثل بللورات لؤلؤية انصبَّت في الإناء الكبير. إلا أنها قطرات تساقطت فرجرجت سطح الماء، كما لو كانت سلسال بول متقطع يطرطش رذاذه في حواف الآنية. كم كان منظر الكراث المتشرب مياهه بديعاً، وكم كانت البنت الممسكة بربطاته أكثر روعة وبهاء.. وبرغم ما كززته تحت أضراسي من بُغض دفين لأبيها، فلم أكن أطيق الإغضاء عن فتنتها؛ والأنثى، أية أنثى على وجه الأرض، إذا ما لامست الماء تجلَّت فتنتها. وبالطبع، فالأنثى الفاتنة تزداد جمالاً وهي بقرب الماء، بل حتى لو لم تكن جميلة من الأساس؛ فمجرد اقترابها من غور بئر أو نهر جار أو ما شابهِ يضفي عليها مسحة من جمال. ولك أن تعرف ذلك بنفسك، إذا تطلعت إلى فتاة تستحم في نهر، أو تمشط شعرها بجوار عين صافية.. أو تنقع الكراث في سطل ماء وسط خلاء المزارع.

ألقت الشمس بنورها فوق وجه أوهوا المدوَّر الممتلئ الأملس، فالتمع خداها كمثل رقاقة زجاجية ناعمة مشبعة بالحمرة الساطعة. وكانت ضفيرتاها تتدليان مكتنزتين بالشعر الغزير الطويل الداكن.. آه، لو لم تكن أوهوا موجودة ذاك الوقت، لسببتك بأعلى صوتي يا عم دو: يا دو رومِنْ، يا ابن القحبة، ماتت العجول يا ابن المنكوحة!.. لكن ما باليد حيلة، وأوهوا موجودة بالقرب منك. فلأجل خاطرها، أقول لك بالصوت المسموع: "يا عم دو.. أما دريت بالمصيبة؟"

رفع رأسه وسألني: "روهان؟ أنت هنا وقد تركت البهائم، ما الذي جاء بك تتسكع هنا؟"

قلت: "تعال انظر بنفسك ما حصل للثيران.. الثيران ماتت ياعم دو".

من وسط الحقل، قفز كالفهد الوثاب، سألني: "ماذا قلت؟"

قلت: "الثيران ماتت.. ثيراننا الثلاثة ماتت..".

"غير معقول!"؛ جاء يجري بظهره المحدودب وهو يردد "هذا غير معقول، أنا تركتها معك وهي في غاية الصحة والعافية، فما الذي جرى؟ كيف تموت هكذا في غمضة عين؟"

"ولا أنا أعرف ماذا جرى لها بالضبط، لكنها ماتت. ويبدو لي من شكلها أنها انتحرت".

"ما هذا الكلام العبيط.. أنا عشت ثماني وستين سنة لم أسمع فيها عن ثيران تنتحر".

هرع العم دو تجاه الثيران عند جذع الشجرة.

قالت لي أوهوا: "أتظن أني أصدق ألاعيبك؟ ما غرضك من هذه اللعبة؟"

قلت: "لعبة ماذا؟ ولماذا ألاعبك؟ أبوك هو الذي أهمل الثيران، ورجع

إلى بيته لأجل مصالحه الانتهازية، فكانت النتيجة أن الثيران علقت رقبتها بالحبال، وماتت!".

"أتتكلم بجد؟"، ألقت ما بيدها من ربطات الكراث وأسرعت تجاهي، ثم أمسكت بيدي، وجرينا معًا صوب سد النهر. قبضت كف يدها على يدي بقوة كماشة صلبة. كانت ذراعها قوية، وخطوتها أسرع من ريح، حتى أن كعب قدمي- وأنا أجري ممسكاً بيدها- لم تكن لتلمس الأرض من شدة الجري. وكانت أثناء ذلك تقول لي "ماذا جرى لك أنت الآخر.. افترض أن أبي غاب عنك لظرفٍ ما، ألم تكن أنت موجوداً مكانه لترعى الثيران؟"

أجبتها لاهثاً: "كنت نائماً".

"كيف تنام وتسهو عن العجول؟"؛ باستنكار قالت ذلك وهي تؤاخذني.

قلت: "وكيف كان لأبيك أن يعود إلى بيته ليحصد زرعه، إن لم يحط عليَّ النوم؟"

فكَّرتُ أن أسترسل فيما قد يغضبها، لكني رجحت أن سيل الشتائم الكامن تحت لساني قد يحزنها لو سمعته. ثم إننا كنا قد بلغنا شجرة الخوايهوا.

مدَّ العم دو يده، وحاول أن يسحب الثيران بالحبل، لكنها لم تتزحزح

عن مكانها، فقلت في نفسي إن المواشي هلكت وانتهى أمرها، فماذا يفعل هذا الأهبل، وهو يحاول تحريك عجول انقطعت منها أنفاس الحياة! وحاول الرجل أيضًا أن يجذب ذيولها لينهضها من رقدتها دون جدوى، فاستغربتُ لهذا الذي ينهِض الموتى من غفلة الأبد. لكن الشيء الغريب حقاً، هو أن محاولاته المتكررة في الإنهاض، وإن لم تفلح تماماً، فقد أسفرت عن هزة ضئيلة من ذيل شوانجين.. يا للسماء، فهو ما يزال على قيد الحياة إذن. ومادام حياً، فلابد أن الأخوين "روشي" قد أفلتا من قبضة الموت مثله. وبالفعل، فقد لاحظتُ أن أذن "روشي" الكبير تختلج قليلاً، بينما كان أخوه الأصغر يلعق أنفه، فكانت نجاة العجول من شبح الموت باعثاً لفرحتي؛ ثم كانت نجاتها في الوقت نفسه، لما تدبَّرت الأمر قليلاً، هي الباعث على تعاستي أيضًا؛ فقد كنت وقتئذٍ في مبتدأ الشباب، ومطلع الشغف بكل ألوان اللهو والإثارة، حتى ضجَّ بي أهل القرية وعافتني كلابها أيضًا. كم وددتُ لو أن بالقرية دار سينما تقدم عروضها اليومية، وكان هذا المستحيل بعينه، وكم تمنيت- لكثرة ما استبدَّ بي الفضول إلى الإثارة- لو تخانق أهل القرية يوميًا ونشب بينهم العراك، لكن ذلك لم يكن ليتحقق على النحو الذي أريده. ثم كم حلمت بأن تقوم ميليشيا الحرس الأحمر بالانقضاض على الأفاقين والسفلة والرعاع، فتضرب على أيديهم وتنكل بهم، لكن هذا كان ضرباً من الوهم. وإذ تعذَّر وقوع كل تلك الحوادث، الباعثة على الإثارة، فلم يبق- على الأقل- إلا أن تتسافد

ثيران القرية وأبقارها، وتنزو كلاب السيد تشانغ [فلان] على كلاب العم ليو [علاَّن]، وتظل تتواثب ذكورها على إناثها ليل نهار، فرجةً للنظارة وتسليةً للوقت. بيد أن هذا كان بالقطع أبعد منالاً. فلما جاء الرفيق لاو تونغ واستأصل خصى الثيران، أصبح المشهد حافلاً بكل جوانب الإثارة. لكن هل كان من الممكن تكرار ذلك المشهد يوميًّا؟ بالطبع لا، فمِن ثم فكرت أن الجلبة الناشئة عن حكاية انتحار العجول الثلاثة، دفعةً واحدةً، كفيلة بأن تهز أرجاء القرية من أدناها إلى أقصاها. ثم إن هذا الحدث الجلل يتصل بي اتصالاً مباشراً، وبالتالي فمثل هذه الصلة بيني وبين الوقائع، فيما أظن ولعلك تتفق معي، كفيلةٌ بأن تجعلني موضع الاهتمام، بحيث تضفي على حياتي وجاهةً أو قيمةً ما، تدفع الناس إلى التطلع تجاهي بكل لهفة، استجلاءً لملابسات الحادث، واستفهامًا لتفاصيل ماجرى، بما يستتبع هذا كله من زهو وتيهٍ وفخار يشملني رائحاً وغاديًا. غير أن الثيران لم تنفق، وبقيت فيها الروح. وراح العم دو يتطلَّع نحوي بعينيه، الواسعة والضيقة كلتيهما، ثم زمجر صارخاً في وجهينا، أنا وابنته قائلاً: "أين كنتما؟ هل نزل عليكما الموت فجأة!"

ما معنى كلمته هذه؟ ماذا يقصد هذا الشيء العجوز بكلامه، وما معنى أن يقرن موتي بموت ابنته في وقت واحد؟ عموماً، وبرغم غضبته الواضحة في ثنايا مقصده، فقد تلمَّستُ دلالته الخفية، وفهمت أنه يربط بيني وبين أوهوا في تلميح مشوب بخفاياه، وهو ما لا أنفر منه، بل على

العكس، فلطالما شعرتُ بأن ثمة علاقة غير عادية تـربطني بهـا، إذ سـبق أن..

"لا تقفا هناك، وأنتما تنظران إليّ ببلاهة هكـذا، تعـالا سـاعداني على إنهاض الثيران".

تقدمتُ سريعاً، وقبضت على ذيل شوانجين.

دفعتني أوهوا جانباً دون أن تكلمني، وانحنت وقبضت بقوة على ذيل العجل.

فتقدمت ثانيةً، وأطبقت على عنق الثور بيدَيْ.

أزاحني العم دو جانباً، وانحنى فاحتضن عنق الدابة لينهضها.

فلم أملك، أخيراً، إلا الوقوف بجانب أوهوا، أشد على معصمها.

بجهدنا معاً، أقمنا شوانجين من عُسر رقدته.

خشيت أن يشتد بنا العزم، تحت وطأة الجد، فينخلع الذيل من جـسد الثور، ولو أني كنت بحق أتطلـع شـغفاً إلى انفـصال الذيـول عـن مـؤخرة الثيران؛ فمثل هذا البتر، لو حصل فعلاً، سيكون بالتأكيد حدثاً يـستدعي أحاديث وحكايات قد يصل مبلـغ الإثـارة فيهـا درجـات أعظـم ممـا كان متوقعاً في حادثة نفوقها. لكننا أنهضنا العجول وذيولها باقيةٌ في أعجازها.

بعد شوانجين، اجتهدنا فأوقفنا "روشي" الكبير حتى ثبتت أقدامه.

ثم لم نلبث حتى رفعنا أخيه الأصغر إلى أن اعتدل واقفاً.

فلما اكتمل وقوفها أمامنا، دار العم دو مِن ورائها، وراح يتفحَّص ما بين أفخاذها، وهو مطأطئ الرأس، ينظر موضع جروحها ملياً.

مِلنا- أنا وأوهوا- برأسينا أيضًا، ونحن نستطلع ما خفي من بواطن عذاباتها.

كيس الصفن- لدى الأخوين "روشي"- كان متورماً بعض الشيء.

المشكلة كانت فيما أصاب كيس خصية شوانجين من تورُّم ظاهر، بدا متضخِّماً مثل جوال صغير منتفخ حتى آخره. وربما زاد في ضخامته عما كانت عليه الخصية وهي سليمة، في مبتدأ حالها. والأسوأ هو لونها الضارب إلى الحمرة غير العادية. ثم تفاقم الأمر مع الحمَّى التي لفَّت جسده، حتى انبعثت منه سخونةٌ لفحتني وأنا واقف بجواره، كأنها لهيب أفران حامية.

قام العم دو بفك الحبل من حول جذع الشجرة، فسلمني مِقود الأخوين "روشي"، وسحب شوانجين فمضى وهو يكلِّم أوهوا قائلاً: "ارجعي إلى البيت حالاً، وقولي لأمك أن تجهز لنا طبق "تساميان" [شعرية مسلوقة] ريثما أعود برفقة روهان ليتناول الطعام معنا".

تطلَّعت أوهوا إليَّ وتفحصتني، كأنها تراني لأول مرة، فتطلعتُ بدوري إلى أبيها كأني لم أره إلا اللحظة.. كأني أقابله لأول مرة في حياتي، وقلتُ في نفسي: هي ذي الشمس تطلع من الأفق الغربي. ثم حانت مني التفاتة ثانيةً إليه، فبدا لي وجهه مشرقاً بالحنان والعطف، وقلت إنني طوال الأربعة عشر عاماً التي عشتها على ظهر الدنيا، لم ألتق برجل عجوز في مثل دماثة خُلق العم دو، وروحه الطيبة الحنون.

سحبنا الثيران ومشينا. وفي الأزقة تمهَّلنا، فكان العم دو يسعل قليلاً ويقول لي: "ولد يا روهان.. أنت في الحق عاقلٌ ورزين، وعندك مواهب لا يعرف الناس قدرها؛ فالناس كالعادة عيونُهم عيونُ الكلاب، تنكسر للكبير وتتسلط شزرًا على الصغير؛ فاسمع مني كلمةً أقولها لك الساعة وستذكرها ما حييت.. أنت بعد عشرين عاماً من الآن، ستصير شخصاً مرموقاً!"

كم أحببتُ ساعتها أن أستزيد من كلام العم دو.

قال: "ليلة أمس لم ننم، لا أنا ولا أنت ذقنا طعم النوم، وظلت عيوننا على العجول. ومع ذلك، فقد تورَّم جرح شوانجين وتضخم للغاية؛ مما يدل على أنه ما كان ينبغي أن تجرى له عملية الاستئصال، وهو ما قاله الرفيق لاو تونغ أول الأمر وألح عليه، فرفض رفضاً قاطعاً أن يستأصل له خصيتيه، لاسيما وقد سبق له الانتزاء على الأبقار. لكن عمك ماليان

أصر على الإخصاء، وكنتَ أنت شاهداً على ما حصل. لذلك، أقول لـك إنـه إذا حدثت مشكلة ومات الثـور، مـثلاً، فالمـسئولية في ذلـك لا تقـع على رأسينا، فكلانا بريءٌ منها، فهل أنت معي في هذا، وهل قولي صحيح؟"

بثقة تامة أجبته قائلاً: "صحيح جداً!"

(7)

لم يخلف العم دو وعده، صبيحة ذلك اليوم؛ فصحبني فعـلاً إلى داره، حيث تناولت معه وجبة الـ تـساميان. وكانـت امرأتـه، والدة أوهـوا، قـد استقبلتني ببالغ الود والترحاب، وكانت كريمة جداً معي ونحن جلـوس إلى مائدتها. فكثيراً ما كانت تصب لي الحساء، كلما فرغ منه الطبق الموضـوع أمامي؛ لأنها تقريبًا كانـت تخـشى عـليَّ أن أُغـص بالطعـام؛ إلا أن أوهـوا تكلمت إليها بغلظة واضحة: "أكثرتِ من المـرق في طبقـه، فيكفيـه مـا وُضع له". قالت لها أمها: "الحساء الكثير صحي ومفيد، المثل السائر يقـول.. "ملعقة من الحساء أفضل من مائة جرعة دواء"؛ فعرفتُ أن أوهوا تريـدني أن أنعم بأنواع متباينة من الطعام. ثـم رأيتهـا تلـتقط بيـضة إوزة تلتمـع بالزبد، فألقتها في طبقي فراحت تتدحرج؛ فنظرت الأم إلى ابنتها وراحت تغمز لها بعينها، فأشاحت عنها أوهوا، وتـصنعت عـدم فهـم غايتهـا مـن

الغمز بعينها. فلما لاحظتُ عدم اكتراثها لما تريد أمها أن تلفت نظرها إليه، تحللتُ من التعفف، وأطبقت على البيضة فدفعتها في فمي دفعةً واحدة، تحسباً لما قد تقدم عليه المرأة من الاستيلاء المباغت على البيضة. وفي لحظة التوتر هذه، لم أهتم بالمضغ المتأني، والاستمتاع بطعم الأكل على مهل، للأسف الشديد طبعاً، نعم شعرتُ بالأسف وليس بالأسى أو الإحباط التام؛ لأني استطعتُ الاستحواذ على البيضة والتهامها في اللحظة التي كانت يد الأم تمتد لالتقاطها، فصاحت بي: "ما لك يا بني؟ ما هذه الطريقة في الأكل، ألم يعلمك أبواك كيف تأكل على الموائد؟ الناس تتذوق الطعام قطعةً قطعة.. قضمةً بعد قضمة، لا أحد يبتلع الأكل بهذه الطريقة". دافعت عني أوهوا، قائلة لأمها: "وما المشكلة في أن يأكل البيضة كلها! دعيه يأكل على طريقته، ولا توجعي قلبك". ردَّت عليها بغضب: "ليست مسألة أن أوجع قلبي، بل أنا خائفه عليه.. أخشى أن ينحشر الأكل في حلقه ويؤذيه". قلت: "لا تشغلي بالك بهذا الموضوع، أنا كنت أراهن الولد "فانغ شياوبو" على شرب زجاجة "جيانغ يو" [صلصة] بعبوتها البالغة جيناً كاملاً [نصف الكيلو].. فشربتُها حتى صارت معدتي كالقربة الكبيرة المنفوخة".

قلَّصت المرأة شفتيها تقززاً، ثم قامت وانصرفت. وراحت أوهوا تغمز لي بعينها وتضحك كشيطانة، فكانت ضحكتها هذه تشعرني بأن الحب متصلٌ فيما بيننا. كان لضحكتها- تلك الساعة- نغمٌ باقٍ في عمري،

عشت به سنوات.

بقينا طوال ذلك النهار، أنا والعم دو، نسرح بـالثيران في طـول القريـة وعرضها، يسبقني ساحباً شوانجين أحياناً، وأسبقه أحياناً أخرى وأنـا أقـود الأخوين "روشي"؛ فكانت مشاعري تروق قليلاً إذ يغيب عن عيني منظـر الجرح المتورم بين فخذي شوانجين، وهو المنظر الذي كان يتبدَّى لي الرغم مني وأنا ماشٍ خلفه، فيشملني الأسى. لم ندع شارعاً أو زقاقـاً إلا ودُرنـا به، طفنا كل الأرجاء، حتى الحواري الضيقة والفواصـل بـين البيـوت. وفي بداية تجوالنا ببعض تلك الأماكن، التم حولنا الصغار، وراحوا يتبعوننـا صائحين، يتدلى من أنوفهم المخاط، فلبثوا وقتاً ثم تبدد شغفهم. فلما تفرَّق الصغار جاء الذباب، بأعداد قليلة في أول الأمر، ثـم صـار يأتينـا مـن كل حدب وصوب، أسراباً شتى، انصبت هجمتُها جميعـاً على الـورم المتـضخم موضع خصية شوانجين، حيث لبثت زمناً، فاستحال لون الجرح واستعرت ناره. وكنت أنظر في عيني الثور وهما منكوبتـان بـالألم، مثقلتـان بكـل معاني الشقاء، فمددتُ يدي وقصفت غصناً من الصفصافة، ورحـتُ أذبُّ به على الجرح؛ لكن الموضع الغائر كان بؤرةً محفوفـة بـالخطر، فلـم أكـن أملك الذَّب عنها ولا مداواتها. ثم حسمت أمري أخيرًا، بألا أقترب منهـا بأية حال.

أسلمني العم دو مِقود شوانجين وأصاني بمراقبته، ريثما يذهب هـو إلى

العم ماليان ليخبره بما آلت إليه أحوال العجل.

عاد الرجل حانقاً يسب ويلعن: "الرجل الذي اسمه ماليان لم يعد يهتم بأي شيء، قلتُ له عما حصل، فأخذ يقول لي.. لا بأس، لا بأس، لا بأس، الموضوع بسيط.. وأنا لا أدري بالضبط، كيف له أن يتأكد أن الموضوع بسيط، في حين أنه لم يعاين المشكلة بنفسه، ابن القحبة هذا.."

مساء اليوم نفسه، تحسنت أحوال الأخوين "روشي"، لكن شوانجين ساءت حالته كثيراً.

لما جاء نهار اليوم الثالث، كنا قد تأكدنا من استعادة الثورين الشقيقين لحالتهما الطبيعية، فأعدناهما إلى المعلف الرئيسي بالوحدة الانتاجية، وركَّزنا كل اهتمامنا، أنا والعم دو، على شوانجين وحده.

كنا نمشي بالعجل في الطرقات، أحدنا قدامه والآخر خلفه، نخاف عليه من هبة ريح، نضعه ملء جفوننا من شدة الحذر عليه، ونحتاط لكل طارئ، حتى كدنا نتداركه بأيدينا كأنه جدار مائل يوشك على السقوط.

سحبناه إلى الحوش الكبير خارج المعلف، وجاء له العم دو بدلو ماء وقرَّبه إليه ليشرب، فلامس سطح الماء بمنخاره وغمسه قليلاً، ورفعه في الحال، وقد ابتلت بضع شعرات طويلة قرب شفتيه، فأخذ الماء يقطر منها تباعاً، كما يقطر الدمع من أحداق، وكانت عينه أيضا مسيل قطر ينسكب على حافتي مآقيه. وهرع العم دو إلى مخزن المعلف، فأمسك بالمغرفة

الكبيرة وملأها حتى منتصفها بكُسب بـذر القطـن*، فجـاء العـم دو بنصف المغرفة وطرحه في السطل المليء بالماء، ثم راح يقلّبه جيداً ويقربه إلى فم شوانجين، قائلاً له في حنان شديد: "اشرب يا بني، اشرب ولو قليلاً.. انظر كم هو زكي الرائحة!". وغمس الثور طرف فمه في المـاء كأنـه يبلـل شفتيه، لا أكثر. فاستغرب العم دو للغاية، قال: "معقول! حتى هـذا النـوع الجيد لا تريد أن تتذوقه؟". كانت العجـول والأبقـار المربوطـة في المـذاود الجانبية، بما فيها الأخوان "روشي"، تتشمم رائحة علف بذر القطن وتميل برؤوسها وعيونها ناحيته. قال العم دو: "أقول لك يا روهان، اذهب بسرعة إلى عمك ماليان، وكلّمه أنت بنفسك. فأنت ابن أخيه على أية حال، وربما عمل لك خاطراً.. اجرِ حالاً وقل له.. قل له إن شوانجين يذبل سريعاً، وإنه قد يموت. أبلغه أنه إن لم يأت حالاً، فعليه أن يتحمل مسئوليته في مـوت العجل، هيا انطلق إليه بسرعة".

سألت عنه في أكثر من مكان، حـتى عـثرتُ عليـه أخـيراً في مكتـب الأشغال بالوحدة الزراعية.

قلت له: "شوانجين في حالة خطيرة.. ربما يموت الآن، في اللحظة الـتي أكلمك فيها".

---

* نوعٌ من علف العجول، بل من أجود أنواع العلف، لم يكن يُمـنح إلا للمـواشي التي بذلت جهدًا خارقاً في العمل.

ساعة أن دخلت عليه، كان في اجتماع مع المحاسب والوكيل؛ فلما ذكرت له الخبر وسمعوه كلهم، إذا بهم ينتفضون ناهضين.

سألني العم ماليان، وطيف ابتسامة يحوم بجانب فمه: "أتقصد أن شوانجين يحتضر الآن؟"

أجبته قائلاً: "هو حتى لم يقرَب علف بذر القطن الذي قدمناه له، وجرحه تضخَّم حتى أصبح أشبه ما يكون بقارورة منتفخة".

قال ماليان: "لكني الآن ذاهبٌ إلى اجتماع المزرعة العامة، ليتك تذهب معه يا حضرة الوكيل "وانغ"، وتفهم ما الأمر بالضبط؟"

الوكيل وانغ، هو بعينه الرجل الذي كان في السابق أمين مزرعة، وتم تحويله إلى دورة تأديب في مشتل القطاع الجنوبي، وأخذ علقة جامدة؛ بسبب تعديه على المواشي بالضرب. والآن، عندما عرض عليه ماليان الذهاب في مشوار الثور المحتضر، شحب وجهه ورفع يديه كالمتضرِّع، وقال لمن يكلمه: "اعفني من هذا الموضع، أرجوك، اعفني من أي شيء له صلة بالعجول".

بابتسامة ماكرة، قال له ماليان: "ويا تُرى، هل نعفيك أيضاً من نصيبك في لحم العجل؟"

سأله الوكيل وانغ: "لحم العجل؟ وأين هو لحم العجول هذا؟"

قال ماليان: "انظر.. انظر.. ما إن سمع بلحم العجل حتى أفـاق وأطـل برأسه".

قال الوكيل: "وهل هذه محتاجة إلى كلام! حقي في لحم العجل لا تنـازل عنه طبعـاً، وإلا فكيـف آخـذ نـصيب قـدمي العرجـاء.. وهـل يُعقـل أن يكسروا لي رجلي، ويحرموني من اللحم أيضاً؟"

قال العم ماليان للمحاسب: "أرجوك يا أستاذ "شـيو".. اذهـب أنـت في هذا المشوار بدلاً منه".

رد عليه شيو قـائلاً: "طيّـب، هـل الأمـر يحتـاج أن نتـصل تليفونيًّـا بالرفيق لاو تونغ في الوحدة البيطرية بالكومونة الشعبية؟"

قال العم ماليان: "أرى من الأفضل ألا تزعجه، وماذا سيفعل هو يعني بمجيئه؟ غالباً سيعطي العجل حقنة، ثم يغيِّر على الجـرح. وبعـد تنظيـف الجرح، ووضع الغيار، نستضيفه عندنا، ونجيء له بالأكل والخمـر. ثـم إن النقود المتبقية- في مـصاريف الوحـدة- أنـتم أدرى بأحوالهـا، وأظـنكم فاهمين!"

قال المحاسب شيو: "فما العمل، في رأيك؟"

قال العم ماليان: "أنا لا أصدق أن المواشي يمكـن أن تكـون بهـذا الضعف.. لا، لا، هذا غير معقول، أظن أننا لـو جربنـا الوصـفات الطبيـة

الشعبية فسوف يكون فيها الشفاء".

عملنا برأي المحاسب، فجئنا بالخل وسقيناه لـ شـوانجين. وكان أطبـاء الوحدة الصحية بالكومونـة الزراعيـة يؤكـدون مـراراً أن الخـل يفيـد في تخفيف الالتهابات. ثم إننا لم نكتف بذلك بل جئنا أيضًا بعـش زنـابير هرمي الشكل، على هيئة القبعة الكبيرة، فسحقناه في الهـاون حـتى تفتـت، وألقمناه العجل الذي يعاف الطعـام، عمـلاً بنـصيحة والد الـسيد شـيو المحاسب، باعتبار أن أعشاش الزنابير أفضل علاج للتسمم. وفوق ذلـك، فقد أحضرنا مسحوقاً شبيهاً بطلاء الجبس، ومسحنا به على الجرح، وقـد قيل لنا إن فاعلية هذا الدهان في القضاء على التسمم والميكروبات أقـرب ما تكون إلى فاعلية السحر نفسه.

كنت أتمنى، بصدق، أن تتحـسن أحـوال شـوانجين ويـسترد عافيتـه؛ وبالطبع، فقد كان اشتداد المـرض بـه معنـاه اسـتحالة إطـلاق سراحنـا؛ بحكم ملازمتنا له ليل نهار. والمشكلة أن حالته- بـدلاً مـن أن تتحـسن بعض الشيء- كانت تسوء كثيراً، حتى فوجئنا بأن الجـرح تقـيَّح وسـالت منه مياه لونها أصفر، مصحوبة برائحـة عفنـة جلبـت عليـه وعلينـا كل أنواع الذباب الهائم في أنحاء القريـة؛ فحيثمـا انتقلنـا بـه، انتقلـت معنـا أسراب الهوام والبعوض والحشرات الطائرة. احدودب ظهره كثـيراً، حـتى تضاءل جسده وانكمش، وانحسر الشَّعر فـوق جـسمه فنتـأت عظامـه،

وباتت دموعه تنهمر بغزارة، تسيل من عينيه مختلطة بإفرازاتها، فلم يلبث الذباب أن عرف طريقه إليها.

في ضحى اليوم الرابع، سحبنا شوانجين حتى انتهينا به قدام بيت العم ماليان. وقتها، لم يكن الباب مفتوحاً، فالتقطت حجراً وقذفته به، فخرج العم مسرعاً، وهو يحاول أن يضبط السترة فوق جسده، شتمني: "ما لك يا ابن الأنذال.. فيم العجلة.. استعجلك الموت!"

قلت: "الموت لا يستعجلني، بل يضيق خناقه على شوانجين، الحقه.. سيموت حالاً".

مشى العم دو وجلس تحت الحائط العالي، وقال: "لا أدري يا ماليان إن كنت ما تزال حتى الآن بشراً مثلنا، هل في عروقك دم مثل الناس؟"

صاح ماليان فيه غاضباً: "اسمع يا عم دو.. لقد تحملتك كثيراً حتى فاض بي.. عجباً يا ناس، كيف تكون كبيراً في مثل هذا السن، ويعجز لسانك عن مراعاة أصول الكلام!"

"أنت تجعل الأخرس يتكلم.. أنا حتى لو كنت أخرس، فلن أطيق الصمت على ما يحدث"، هكذا قال: "هو روح أيضاً.. مهما حدث، ومهما كان الأمر.. انتزعتم خصاه وأكلتموها في بطونكم، ثم جلستم رائقي البال وقلوبكم صافية.. لكن ماذا عنه هو، ما مصيره الآن؟"

أسرع ماليان إلى ما بين فخذي الثور، انحنى بقامته وهو يتطلع إلى الجرح، وقال: "فما العمل.. قُل لي، ما العمل يعني؟"

قال له دو: "مَن انتزع الجرس من رقبة النمر، فعليه أن يعيده مكانه.. مَن جاء بالعقدة فعليه حلها.. اطلب لاو تونغ، وقل له أن يجيئك حالاً".

قال ماليان: "هل تظن أني رائق البال؟ هل تتصور أني غير مكترث بالموضوع؟ الثيران عندنا هي أهم مورد من موارد الإنتاج، حتى إنهم يعتبرونها شريان الحياة في الكومونة.. الإنسان لو مات، لا يسألون عنه ولا يهتمون؛ لكن الثور لو مات تنقلب الدنيا مائة مرة.. الكل يسأل ويستفسر.. كيف ولماذا وأين.. حتى سكرتارية لجان الحزب، تبعث وتسأل وتستجوب".

سأله العم دو: "عظيم جداً، فلماذا لا تطلب لاو تونغ إذن؟"

"يعني.. هل تظن أني لم أطلبه إلى الآن؟"، قال ماليان: "أنا ذهبت بالأمس إلى المحطة البيطرية، وحاولت أن أقابله، لكن بلا فائدة.. كان مشغولاً للغاية! هل تعرف كم عدد الوحدات الإنتاجية في الكومونة؟ كم رأس ماشية؟ كم فرس، كم بغل؟ كل هذا العدد يحتاج للرفيق لاو تونغ طوال الوقت".

قال دو: "معنى هذا أن نقعد بجانبه حتى يموت؟"

أخذ ماليان يحكّ رأسه قائلاً: "لم أكن أتصور، يا عم دو، أن فلاحاً من عائلة ميسورة مثلك، يحمل كل هذا الحب والتفاني من أجل المزارع الشعبية".

قال له العم دو: "ثلاث من بناتي الأربع يرزقن من خير المزارع الجماعية!"

قال ماليان: "طيب، أنا عندي فكرة.. اذهب أنت وروهان، اسحبا الثور إلى المحطة البيطرية، وهناك سيقوم لاو تونغ باللازم من ناحية العلاج".

قال العم دو: "هذا كلام الأحلام بعيون مفتوحة.. المسافة من هنا إلى المحطة البيطرية تصل إلى عشرين ميلاً.. تُرى، في كَم يوم بالضبط نقطعها؟"

رد عليه ماليان قائلاً: "حسب طاقتك.. كل واحد ومقدرته في هذا".

قال دو: "فماذا لو مات ونحن في منتصف الطريق!"

أجابه قائلاً: "الحقيقة، هو على وشك الموت فعلاً.. وما باليد حيلة. إذا كان رجال لجان الحزب في المحليات يموتون، والمسئولون الكبار يموتون، فما بالك بثور من بين الثيران؟"

قال العم دو: "افترض أني ذاهب، فماذا عن باقي الثيران والأبقار التي

عندنا؟"

قال له ماليان: "الدنيا ستدور، حتى في غيابك، يا رفيقنا العزيز.. لن يتوقف العالم لذهابك. وبالنسبة للحاجات التي عندنا، فلا تشغل بالك كثيرًا بها".

حسم العم دو أمره قائلاً: "هذا معقول جداً، اتفقنا، وأنا سأنطلق في هذا المشوار، لكن الصراحة شرطنا الأول، والفرض السيء نبدأ به قبل كل شيء.. وأنا أقول لك من وقتنا هذا، لو حدث أي مكروه لهذا الثور- وهو على الطريق- فلا تحملني مسئوليته".

قال العم ماليان: "لا تنس أن روهان معك.. اعتبره شاهداً وقت اللزوم".

(8)

سحبنا شوانجين، ومشينا في طريق الكومونة.

على ظهري، حملت صرَّةً فيها أرغفة خبز الأذرة، وحزمة بصل أخضر، وقليل من الصلصة، على سبيل التزود بالمؤن لطريق السفر؛ فكانت هذه المؤونة نوعاً من المكافأة لي لأني أخذت على عاتقي مشقة الطريق، وإلا ما كنت أكلتُ في بيتنا- لو أني تقاعست عن المهمة- سوى البطاطس التي ضرب فيها العفن أطنابه. وكان العم دو يحمل على ظهره شنطة كتب من الخيش الأصفر، وقد طرِّزت على واجهتها حروف باللون الأحمر، على نحو ما كان شائعاً في أشكال الحقائب المستوردة، وحسب الظروف التي كانت سائدة وقتئذ؛ فلم يكن يحمل مثل هذه الحقائب إلا المتعلمون والمثقفون، وكم تمنيت أن تكون عندي واحدة مثلها، لكني عرفت أني لن أحقق بغيتي إلا في الأحلام؛ لكن العم دو عنده واحدة يختال بها وهو ماشٍ في

المقدمة، عند رأس الثور.. إحدى تلك الحقائب الـتي لا يحمـل مثلهـا إلا النابهون؛ وقد بدا لي وقتها أنه صار أكثر حيويـة وأوفـر نـشاطاً، منـذ أن حمل تلك الحقيبة. كنتُ، كما أسلفت، أمشي خلف الثـور، وعلى ظهـري صرَّةٌ قديمة متهالكة، وبيدي مروحـة مهترئـة أذب بهـا الهـوام والذبـاب المحتشد بين فخذي شـوانجين، وكلمـا روَّحـت على الجـرح طـار الذبـاب وتفرق في الهواء. ووقتها كنت أستطيع ملاحظـة الموضـع المـصاب، فـكان منظره يبدو لي أقرب ما يكون إلى كتلة هلامية بلا ملامح مميزة، فإذا مـا توقفتُ عن التهوية- ولو لثانية واحدة- عادت جحافل الحشرات الطـائرة لتهاجم القيْح المتدلي من بطن العجل، حيـث كنـت أدقـق النظـر، تلـك اللحظة، فلا أرى سوى كتلة من الذباب ملتفة حوله.

المهم أننـا خرجنـا مـن القريـة فعبرنـا الجـسر، وأقبلنـا على الطريـق الرئيسي المرصوف بالحجارة، ومشينا.. وإن كان من قبيـل المبالغـة القـول بأننا "مشينا"، هكذا، كما يتصور المرء في حركة المشي الطبيعية؛ لأننا- في الواقع- كنا نحبو أو نتمدد كما تتمدد الديدان واليرقات، ليس لأننا آثرنـا البطء، بل لأن شوانجين كان هو الذي يتثاقل في مشيه وكأنـه يحبـو؛ كنـا نحثه على المشي فينوء بخطواته، ذلك أنه لم يكـن يقـدر حـتى على مجـرد الوقوف مكانه؛ وقد مرَّت عليه ثلاثة أيـام وهـو قـائم على أربـع، لـم يـنم أثناءها على جنب، مما أفقده الوعي بما حوله، فكانت تنتابه نوبـات إغفـاء من وقتٍ لآخر، ولو أنه بقي محتفظاً بـشيء مـن الـصبر والاحتمـال، حـتى

ظننت أن لو كان أحدنا مكانه، لقضى نحبه منذ وقت بعيد؛ إن لم يكن من الإرهاق المتواصل، فمن مكابدة سُعار جرح لا يلتئم. وقلتُ إن الواحد منا يعجز، بجد، عن أن يقوم مقام ثور. فأنا مثلاً لو كنتُ مكان شوانجين لرقدتُ على الأرض منذ وقت مبكر، وليكن ما يكون، سيان عندي أن أعيش أو أموت؛ لكن شوانجين كان أمره مختلفاً.

بقينا نمشي، أنا والعم دو، أحدنا قُدام الثور يسحبه إلى الأمام، والآخر يمشي وراءه يستحثه على المضي قدماً.. يمشي خلفه يدفعه فيندفع؛ يسوقه فينساق، خطوةً وراء خطوة وراء خطوة، وكل خطوة أثقل من سابقتها.

وقت الضحى، بلغنا عين ماء صافية، اشتُهرت بمياهها الحلوة في هذا الموضع من الطريق، حيث كنا نبعد عن القرية بنحو ستة أميال. وهنالك، قال لي العم دو: "نحن مشينا بسرعة معقولة، ولم نبطئ، فلو واصلنا بهذه الخطوة فسوف نصل إلى المحطة البيطرية في منتصف هذه الليلة".

قلت: "ويمكننا أن نمضي بخطى أسرع لو أحببت، أنا أحياناً أصل إلى الكومونة في خلال نصف الساعة، جرياً بأقصى سرعة؛ لمشاهدة عروض السينما".

قال العم دو: "لا، سرعتنا معقولة حتى الآن، ولا داعٍ لأن نرهق أنفسنا.. اجلس معي نرتاح قليلاً، ونأكل".

ربطنا شوانجين في فرع شجرة قريبة من البئر، وجلست أفك الصُّرَّة.

كما راح العم دو يفرغ حقيبته أمامه، فأخرج منها رغيفاً من خبز الأذرة، وكنت قد أخرجت من لفافتي خبز الأذرة أيضًا، ثـم مـددت يـدي ثانيـةً، وأخرجت حزمة بصل أخضر، فوضعتها أمامي؛ فلم يلبـث هـو أن أخـرج حزمة أخرى مثلها، من عنده. ومثلما أخرجتُ من صُرتي زجاجة صلصة، التقط هو الآخر من حقيبته زجاجة مليئة بالصلصة، فـكان غـداؤنا مـن صنف واحد. وإذ انتهينا من الطعام، أخـرج العـم مـن حقيبتـه زجاجـة مربوطة من عنقها بحبل رفيع، فأدلاها في البـئر بطيئـاً، أول الأمـر، وراح يؤرجح الحبل يمنةً ويسرةً، وهو يدلي بها مترفقاً، ثم أسقط لفافة الحبل مرةً واحدة، لتستقر الزجاجة في العمق البعيـد، فـصار المـاء يتـدفق داخلهـا ويبقبق حتى امتلأت عن آخرها، فسحبها إلى أعلى، وهنالك قلت له: "أنت حقاً رجل ذكي، وعقلك نابه جداً، يـا عـم دو، ولـك في كل مـسألة أفـكار وطرائق شتى".

ردّ عليَّ: "لو كانوا اختاروني رئيساً للوحدة الإنتاجية، لكنتُ أفضل من الذي اسمه ماليان هذا".

قلت: "إذا كانوا لم يعرفوا قدرك في الوحـدة الإنتاجيـة الريفيـة، فعـلى الأقل يرشحونك للعمل في مكتب الأمين المساعد".

قال: "لا.. أين أنا من هذا! يا بني، يجب أن تعرف أن الأمـين المـساعد في الوحدة الإنتاجية ينطح النجـوم برأسـه، هـذا المنـصب لا يمكـن أن

يشغله بسطاء الناس من أمثالي".

قلت له: "ما ظنـك، يـا عـم دو، لـو كان أبي هـو الأمـين المـساعد في الكومونة، أما كنت أصبح في حال غير الحال؟"

"يعني أنت، بوضعك ومنظرك هذا، كنت تريد لأبيك أن يكـون أميناً مساعداً؟" أخرج الزجاجة وناولها لي، مواصلاً كلامه: "لا بأس.. هـذا هـو ما كان ينقصك.. ليتك تفيق من الأحـلام، إليـك المـاء البـارد، مـن قـاع البئر.. اشرب، واستعد للمشوار".

شربت الزجاجة، وبقي بطني يقرقر.

أسقط العم دو بالزجاجة في القاع، ثانيةً، ثم رفعها وسقى الثـور منهـا، فلفظ الماء حتى سال من جانب شدقه.

"لابد أن نسقيه بأية وسيلة"، قال دو، "وإلا مات عطشاً، إن لـم يمـت بسبب ماهو فيه أصلاً".

ملأ الزجاجة وسحبها مرةً أخرى، وأمـرني أن أرفـع رأس الثـور حـتى يصبح شدقاه مفتوحين لأعلى، ثم أفرغ الزجاجة في جوفه، فسمعت صوت الماء ينساب منسرباً إلى باطنه، فتهلل العم دو، وقال: "نعم.. هكذا.. عظيم جداً، أخيراً.. سقيناه ليرطب جوفه؛ فيبقى حياً ولا ينفق من ظمأ".

قمنا من تحت الظـلال، فعـدنا سـيرتنا الأولى فـوق طريـق مفـروش

بالحصى. مشينا وشمس الظهيرة في أوائل الصيف لظًى في فُرن محمِي، وصفحة الطريق كحريق ينعكس في العين قذى، وفي الوجه لفح هجير، فتأذيتُ من القيظ، وقلت نرتاح قليلاً، وفي الوقت متسع، ولا بأس أن نبقى حتى تميل الشمس، ثم نواصل المشوار؛ فاحتج العم دو بأن المزيد من الراحة مدعاةٌ للكسل وسقوط الهمة؛ بل أضاف إن حَرَّ القيظ، بوقدة سخونة وقت الظهيرة، ترياقٌ للسموم وتطهيرٌ للجروح، والأهم من هذا كله.. قال لي.. أن الثور شملته البرودة الشديدة.. انظر كيف صار يرتعش وقد ضربت الرجفة مفاصله! ولم أملك مناقشة العم دو في كلامه هذا، بحكم خبرته الطويلة في الحياة، وتمنيت لو استطعنا الوصول إلى الوحدة البيطرية في أسرع وقت ممكن؛ رغبةً مني في أن نُسعف شوانجين في الوقت المناسب، وليس ورائي في هذا سوى الدافع الذي يصدر عن القلب الطيب.. قلبي أنا، قلب الولد الملآن طيبة.

انتزعتُ شيئًا من الحشائش والحلفاء النابتة على جانبي الطريق، فصنعت منها غطاء يحمي رأسي من وقدة الشمس، لكن رأس الرجل الأصلع الماشي قدامي كان مسفوحاً بالعرق، فنزعت عن رأسي الغطاء وناولته له، فأخذه وهو يقول لي: "ها أنت ذا، يذكو عقلك مع الوقت، ليت الشباب من أمثالكم يعقلون الكثير من أمور الحياة بقلب كبير وضمير صاح". كانت كلمة طيبة قالها العم دو، أهاجت مشاعر الود في أعماقي، فقلت: "أتعرف يا عمي أنك تشبه كثيراً أبطال الجيش الثامن!" تنهَّد

عميقاً وقال: "ليت للمرء معرفة بما سيصير إليه الحال في مستقبل الأيـام.. لو كنتُ أعرف ما تأتي به الأيام، لسارعتُ بالانـضمام إلى قـوات الجـيش الثامن، مهما حدث". سألته: "تُرى، إذن، مـا الذي منعـك مـن الانـضمام إليه؟" أجاب قائلاً: "سأقول لك بكلام صريح.. بكل صراحة، مهما كان الكلام جارحاً.. نحن وقتها لم نكن نرى في الجيش الثامن، جيش الثـورة، أي أمل، وحسبناه عاجزاً عـن أن يفلـح في أي شيء.. كان الجـيش يبـدو فقيراً، في مظهره وملابسه وطعامه، وحتى أسلحته؛ لم يكن عنـده سـوى بنادق قديمة صدئة.. عدة بنادق خائبة.. وربما لم يكـن فيهـا رصـاص؛ لأن التسليح كان ضعيفاً.. ضـعيفاً جـداً، كل واحـد يعطونـه رصاصـتين اثنتين، لا أكثر، ولهذا كانوا يعتمدون في المعـارك على القنابـل بـأكثر مـن البنادق، وكانت هي أيضا قنابل خائبة.. رديئة الصنع؛ كنت تجد- مـن بـين كل عشر قنابل- خمساً فقط تـصلح للاسـتخدام، في حـين كانـت قـوات جيش النظام الحاكم تختلـف كثـيراً، في كل شيء؛ فمـثلاً كان أفرادهـا يلبسون زياً موحداً من الصوف الفـاخر، ويـستعملون رشاشـات "تـومي" الأمريكية، ورصاص بنادقهم على نظام واحـد.. فكنـت تجـد الرصاصـة لون رأسها أحمـر والكعـب أخـضر، والمـدافع آليـة.. تطلـق دفعـات مـن الرصاص المتتابع.. وصوت الطلقات مدوٍ، يتردد ملء الجو حتى تـضطر أن تسد أذنيك من شدته، والقنابل اليدوية شكلها كالبطيخ الـصغير، وإذا مـا انفجرت سمعت لهـا فرقعـة تـرج الأرض والـسماء. وكان عنـد الجـيش

النظامي أيضاً مدافع على عجلات، تجره عربات جيش كبيرة، ومدى قذف طلقاتها يبلغ الخمسين ميلاً، وعندما تسقط على المكان تصيبه إصابة كبيرة؛ بل إنها أحياناً ما تنفجر على الأرض فتحفرها حفرةً واسعة تكاد تبلغ مساحة البحيرة الكبيرة.. بل تتحول فعلاً إلى بحيرة ماء لونها أزرق سماوي، مثل كل البحيرات العريضة التي تقف على شاطئها من هنا، فلا تصل عينك إلى البر الآخر هناك.. الدنيا- في ذاك الوقت، يا بني- كانت غير الدنيا الآن؛ فأنت عندك- في وقتنا هذا- الشباب يقف صفوفاً متراصة من أجل الالتحاق بالجيش، ويعملون المستحيل لكي يقيدوا أسماءهم في التجنيد؛ لكن- في الوقت الذي حكيت لك عنه- لم يكن أحد يرغب في الانضمام إلى القوات العسكرية، حتى ذاعت بين الناس كلمة ظلوا يرددونها زمناً.. "الشاب الذكي النابه لا ينصاع للجندية، والمسمار الصلب لاينحني تحت المطارق الحديدية!".. وحتى لو كنتُ فكرت في الالتحاق بالعسكرية، لما اخترتُ قوات الجيش الثامن، وهي طبعًا كانت قوات جيش الثورة في ذلك الوقت، وإنما كنت التحقت على الفور بقوات النظام الحاكم؛ لأنه كان يكفيك فخراً أن تكون ضمن أفراد تلك القوات، خصوصاً أنك ستضمن الملبس النظيف والغذاء الجيد، وتضمن لنفسك مستقبلاً طيباً؛ على عكس الجيش الثامن الذي لم نكن نتوقع له مستقبلاً بأية حال.. وسأقول لك شيئاً، ربما لا تصدقه مهما حكيت لك، وتظن أني أكذب عليك وأنفخ الأبواق.. نحن كنا- حتى

سنة ألف وتسعمائة وسبع وأربعين- لا نعرف من هو قائد الجيش الثامن هذا، ثم قيل لنا فيما بعد أن القائد اسمه "تشو ماو"، وأخذوا يقولون لنا- في الأخبار التي سمعناها- أن "تشو ماو" هذا ليس اسم شخص واحد، بل هو اسمين لشخصين مختلفين.. "تشو" اسم رجل، و"ماو" لقب امرأة.. هذا هو ما قالوه لنا، دون أن نفهم شيئاً.. لكنك إذا سألتني عن أسماء قادة النظام التي كان يرددها الناس في ذلك الحين، لقلتُ لك إن الجميع، يومئذٍ، كانوا يعرفون جيداً اسم "شيانغ كاي تشيك".. الرئيس شيانغ كاي تشيك".

قلت: "إذا كان الأمر هكذا، فلماذا إذن انهزمت القوات النظامية أمام الجيش الثامن؟"

أجابني العم دو قائلاً: "حسب رأيي، الهزيمة جاءت لأن قوات الجيش الثامن كانت أكثر احتمالاً للمشاق والظروف القاسية من القوات الأخرى، ثم إن جنوده كانوا متواضعين للغاية، كبيرهم في الرتبة مثل صغيرهم، كلهم متواضعون، لكن أفراد الجيش الآخر كانوا يتكبرون علينا. والغريب أن الضباط الصغار كانوا أكثر تكبراً من الضباط الأعلى رتبة، حتى ظننتُ أنه كلما تدنت الرتبة تشامخ الضباط بأنوفهم. أتعرف أن أحدهم كان يتخذ من الغرفة الشرقية بمنزلنا القديم مكتباً له، فكان إذا أراد أن يغسل قدميه طلب من الجندي الملحق بخدمته أن يأتي بالماء

إليه وهو قاعد على الكانغ؛ في حين كان قائد إحدى الكتائب بالجيش الثامن يقوم بنفسه وينظف لنا الحوش بالمكنسة. وفوق هذا، وأهم من كل شيء، هو أنهم لم يحاولوا التحرش بنسائنا، ليس عن عجز.. ليس، يعني، من قبيل الترفع والأنفة، لكن من باب الاحترام ومراعاة الأصول. فماذا كان يفعل الجيش النظامي بنا، في هذا البند؟ كانوا إذا لمحوا فتاةً حلوة ضايقوها، وعلى رأسهم كبير ضباطهم.. وتقول لي لماذا انهزموا.. طبعًا، لكل هذه الأسباب، كان لابد من هزيمتهم".

قلت له: "فلماذا كنت ترغب في الانضمام إليهم، وأنت تعرف تماماً أنهم سيجلبون على أنفسهم الهزيمة؟"

"ومَن كان يدري بكل هذه الأشياء وقتها؟ لو كنا اكتشفنا حقيقتهم في ذلك الحين، لاخترنا الالتحاق بالجيش الثامن"، وأضاف ، "تُرى كيف كان يصير حالي الآن لو انضممت إلى الجيش الثامن، وبقيت فيه وتحملت قسوة ظروفه. أظن أن أقل ما كان يمكن أن أصل إليه هو أن أعمل أمينًا عاماً للكومونة.. أتمتع بعيش محترم، بلقمة هانئة، ببيت وأثاث وجلسة أقعد فيها وأتكئ مرتاح البال؛ ومَن يدري، فربما أيضا كنت دخلت المعارك، وأصابتني قذيفة من هنا أو هناك، وأُزهقت روحي.. فالمصائر بيد السماء، وعمر الانسان له قدره المحدد، لا يزيد ولا ينقص عما هو مقدَّر له؛ بل إن اللقمة التي يأكلها المرء في طبقه قد سبق بها القضاء بيد

الأقدار. ولافائدة من كل تلك الأفكار ووجع الرأس، فمستحيلٌ أن يعاند الإنسان أقدار السماء؛ ولذلك فأنا راضٍ بما هو مقسوم لي. راضٍ جداً، وعلى الأقل فالأحوال سائرة، بخيرها وشرها، معقولة للغاية".

مرَّ الوقت بنا، بكلمة منه وكلمة مني، نثرثر طويلاً ونتهادى خطوةً وراء أخرى، نعرِّج في سيرنا فنجتاز مراحل الطريق ونحن نتكلم، حتى تعبنا من كثرة الكلام فسكتنا. وتحت وطأة السكوت ثقلت أجفاني، وطاف النعاس برأسي. وإذ تعود بي الذكرى إلى تلك اللحظات، أرى في المشهد صورة مفعمة بالشجن: دائرة شمس في عنفوانها مشرعة فوق رؤوسنا، وطريق مليء بالحصى إلى آخر المدى، ذاب تحت شعاع الشمس الفائرة كأنه مسيل ذهبي طافر فوق الأفق، والأطياف مشبعة بصهبة في لون الذهب، وثمة رجل يغطي رأسه بغطاء من حشائش جافة وحلفاء برية، فوق ظهره انحدرت مخلاته، وهو يضيِّق في وهج الظهيرة حدقتيه، إحداهما اتسعت رغماً عنه بيد القدر، وقد تدلى من فوق كتفه مقود دابته، وهو يمط عنقه تحت لفح القيظ، في كل خطوة يشرئب برأسه- مثل عمال رأيتهم، ذات مرة، يسحبون المراكب بالحبال لدى شاطئ نهر- فكان يمضي والثور من خلفه مربوط إلى المقود، وجهه تجاه رائده ومآقيه مثقلة بدموع، وفي كل حين يحط عليه ذباب طائر، وإلى الوراء قليلاً يبين كتف الثور بعظامه الناتئة، وفي آخر الكتلة المهزولة يتدلى الذيل منسحقاً، حيث منظر الجرح تعافه العيون. فلنضرب صفحاً، إذن، عن رسم المشهد.

دع عنك هذه الزاوية، وتعال أعيِّن لك صورة أخرى لا يجوز إغفالها.. صورتي أنا، الولد الدميم، زري الهيئة والمحيا، والمشكلة أني لم أكن أدرك بشاعة منظري، بل كنت أعمد كثيراً إلى المحاكاة الساخرة، فأقلب سحنتي وأتخذ تعابير هزلية، حتى ذهبت أختي الكبرى، يوماً، إلى والدتي وسألتها قائلة: كيف، يا أم، يكون لك ولد دميم الخلقة هكذا؟ قُبْح منظره يستعصي على الوصف، ويحنق عليه أبرع رسَّام. وكان أن غضبت أمي من كلامها هذا، وقالت لها إن الفأرة في عين أمها حلوة، والقطة عند من أنجبتها آية في الجمال؛ وأن الوصف كان يمكن أن يختلف كثيرا.. "لو كان هذا ولدكن ابن بطونكن". ومع هذا، فقد كانت أمي تشتمني وهي غاضبة، فترميني بانحطاط خلقتي؛ حتى جئت حافة بئر فتأملت وجهي في صفحة مائها، وأنا منبطح فوق حافتها الحجرية، فهالتني ملامحي المتعكرة، وعرفت أن للنعت موجباته. فعندك، مثلاً، تلك الناب البارزة كمثل ناب السبع التي أشارت إليها أختي كثيراً، وهي تقترح عليَّ تسويتها بأية طريقة، فكان أن أمسكت فعلاً بالمبرد، في إحدى نوبات غضبي، واستجمعت شجاعتي وشطفته حتى سوَّيته بالقواطع المجاورة، وظلت اللثة تؤلمني زمناً، بل كنت أشعر أن رأسي كلها تترجرج من الألم؛ غير أن كل الأوجاع كانت محتملة إلا تباريح وجه قاحل اللمسات، أجفلت من بشاعته حتى حككت الناب البارزة، في لحظة طيش، بالمبرد الحامي. ولما حكيت هذه الواقعة لبعض أهل قريتنا لم يصدقوني، وظنوا أني، كعادتي،

أهذر بسخافات. كانت لي وأنا صغير رأس حليقة إلا من بقعة ضئيلة في مقدمتها، وقد امتلأ الوجه ببقع القوباء المدورة على هيئة العملة المعدنية. والقوباء في ذلك الزمان كانت منتشرة في وجوه الأطفال، وقيل إن علاجها ممكن بالوصفات الشعبية، وذلك بدهان البشرة المصابة بثمار المشمش المنقوعة في الخل؛ فذهبنا وأحضرنا بعضاً منه وجرَّبناه فلم يأت بنتيجة، سواء عندي أو عند الآخرين، الكل حاول وما من فائدة.

مشيت وعلى ظهري صرَّة زرقاء، أرتدي سروالاً فضفاضًا، وبقدمي نعلان كبيران طويتُ كعبهما إلى الداخل، وفي يدي مروحة من الخوص أهوِّي بها بين حين وآخر على الجرح المتقيح بين فخذي الثور. الصورة، يومئذٍ، كانت مثقلة بوجوه كالحة مغبرة؛ الناس فيها ليسوا أحسن الناس، والثيران أيضاً لم تكن أفضل الثيران، وإن كانت لنا ظروفنا الخاصة. وقد أستطيع، إذا سمحت لي، أن أرسم صورة للأشجار المتراصة على جانبي الطريق، وأظن أنها كانت في معظمها من أشجار الحَوْر، وقد تخللتها- في بعض المواضع- أشجار الخوايهوا، وعلى الأفرع القريبة من شجر الحور، تدلَّت خيوط كثيفة للعناكب التي كنا نسميها "دياو سيكوي" [عفاريت المشانق] المشدودة بنسيجها الواهي، معلَّقةً في وجه تيارات الريح، تتأرجح في دفقاته. على جانبي الطريق، كان القمح في بدء أوانه، يبث عبق المزارع في الأجواء، ويشيع في الصورة عنفوان حياة. وقد تكون الصورة في بعض جوانبها محتشدة بتفاصيل للأمل، لكن جسدي كان كتلةً من الإرهاق؛

اعتصر الصداع رأسي، فغام الطريق أمام عيني، والفم جوفٌ متشقق ومرارة علقم، والخُطى- حين أمشي- عثرات قدم منهكة. ومع كل ذلك، فلم يكن كل ما كابدته من معاناة يساوي شيئاً بجانب محنة الثور، فقد كانت أثقاله أفدح من أن تُذكر. وإذا كنت أشكو الصداع لنوم فارقني بضع ساعات، فكيف به وقد حُرم النوم أياماً. عندما أتذكر الآن تلك الأحداث، أجد أن فكرة حظر النوم على الثيران- بعد إخصائها- غير معقولة؛ ذلك أن حرمان الثور من أن يهنأ بقدر من الراحة، خصوصاً بعد عملية استئصال خصيته، يُعد أحد أبشع ألوان التعذيب؛ فالثور قد لاقى من العذاب ما فيه الكفاية، أثناء الإخصاء، وفقد كمية هائلة من الدم؛ ثم إن الجرح تلوث والتهب، بالإضافة إلى تورم قوائمه نتيجة الوقوف لفترات طويلة، وقد فسد الدم في عروقه وترسَّب في كتلة الجرح المتدلية كإناء دائري مقلوب من بين رجليه. فكل شقائي لا يقارن بما قاساه الثور، كل متاعبي مجرد ريشة إوزة مقابل أثقال معاناته. وهل كان العم دو أحسن حالاً؟ أبداً، على العكس، فقد كان الرجل فوق الثامنة والستين من العمر، وهي سنوات كهولة، لم ترحمه من أن تتراكم عليه، في مشواره هذا، كميات من التراب وغبار الطريق. كان الرجل إذن قد طعن في السن، حتى أوشك فمه على الخواء إلا من قاطعتيه الأماميتين، وبفضلهما اكتست ملامحه بظلال فتوة قديمة؛ ذلك أن القاطعتين أكسبتا وجهه منظر الأرانب البرية التي تبقى، مهما تقدم بها العمر، متجددة النشاط

والحيوية، فلا تهرم بسهولة. وفي سياق الحوادث، فقد وقع أمر بالغ الأهمية، بالنسبة لي، وهو أني عثرت على سكين ملقاة بعرض الطريق وأنا ماشٍ.

هي بالضبط عبارة عن مدية مثلثة الشكل ذات مقبض طويل، أشبه ما تكون بذلك النوع من السكاكين المستخدمة في تطعيم الشجر، وكنت قد رأيت مثلها كثيراً أثناء فترة عملي بمشتل الوحدة الإنتاجية. وتتميز هذه السكاكين برهافة شفرتها، وربما كانت قريبة الشبه، من حيث الشكل، بما كان يستخدمه الرفيق لاو تونغ في إخصاءالثيران. فلما التقطتُها نسيت أوجاع رأسي وقدمي، وأحسست كأن قوة خفية تدفعني إلى أن أدفع شفرة السكين الحادة فأقطع بها الجرح المعطوب بين ساقي شوانجين؛ وكنت قد تأكدت تماماً بأن الشق المتخلف عن عملية الإخصاء قد تقيَّح، بل إني سمعت شوانجين يهتف بي ويرجوني قائلاً: أتوسَّل إليك يا صاحبي..أن تتكرَّم عليَّ وتريحني مما أنا فيه من عذاب، بيدك مسرَّتي فلا تضن عليَّ بها! كذا قال لي العجل في توسلاته، فقدَّرت أن الأمر ينبغي كتمانه عن العم دو، وإلا فشلت خطتي. وانتهزت فرصة عبورنا أحد الكثبان الرملية فقبضت بعزم على السكين، دون رعشة يد ولا خفقان قلب رحيم، صوبت جيداً فأغلقت عيني ووخزت في صميم الجرح. وكانت المدية ماضية إلا أن يدي عادت غارقة بدماء.

بدهشة وفرح، قال لي العم دو: "هكذا يا روهان.. أنت عبقري فعلاً، هي مجرد طعنة واحدة قد أراحت الثور، وأراحتنا أيضاً، تُرى لو كنت جئت بالسكين في مبتدأ الأمر، أما كان الثور قد تعافى وأعفانا من مشوار الكومونة. جميل، جميل جداً.. وعندما أقابل الرفيق لاو تونغ، فسأنصحه بأن يستبقيك عنده مساعداً، فإن لي معرفة بهذه الأمور، وعسى أن أنظر إلى الرجل فأعرف أين نفعه، ونَظرتي لا تخيب أبداً..".

اقتطع العم دو فرع شجرة وقصد إلى ما بين ساقي الثور، وأخذ يدلّك الشق النازف، فكأن فعلته هذه آلمت الثور، لأنه أراد أن يرفع رجله الخلفية ويرفسه، لكنها بقيت مجرد إرادة خفية ظهرت مجتزأةً ومتقلّصة جدًّاء لهزاله الحاد. وكانت ساقه قد ارتفعت عن الأرض قليلاً، ثم تراخت سريعاً، ثم لم يسعه التعبير عن آلامه إلا برعشة اجتاحت جسده كله. وراح العم دو يكلمه بلهجة يبين فيها الإخلاص: "اصبر قليلاً.. تحمَّل يا بني.. هذا لمصلحتك، صدِّقني..". وبقي الدم الفاسد يسيل من كيس الخصية المشقوق، نقاطاً متتالية، لونها فاتح في أول الأمر ثم اصفرَّ شيئًا فشيئًا، وفي النهاية أصبح داكن الحمرة. فألقى العم بالفرع من يده، وقال: "عظيم، الآن نستطيع القول بأنه سيتحسن، بالتأكيد!"

سحبناه وواصلنا المشوار، فكانت خطواته أسرع، وراح العم دو يقتطع فرعاً مثمراً من شجر الخوايهوا ويقرِّبه بأوراقه الغضة من فم الثور، فكان

يميل إليه ويتشممه، ويقبل عليه بفمه لكن دون أن يتناول منه شيئاً؛ فتأثرت لهذا المشهد، وقلت عساه يتحسن. ويبدو أن العم دو تأثر مثلي إذ قال: "هذا أفضل على كل حال؛ فهو قد بدأ يميِّز رائحة الطعام، حالما نصل إلى الكومونة فلن يحتاج إلا لحقنة واحدة، وبعد ثلاثة أيام.. ثلاثة أيام على الأكثر، يستعيد شقاوته ويتنطط مثل عفريت".

لما صارت الشمس إلى حمرة الشفق، لمحت على البُعد شجرة الحور الكبيرة الطالعة في حوش الكومونة، ففرحت وقلت: "خلاص، دقيقتان ونكون قد وصلنا".

قال العم دو: "المثل السائر يقول لك: ما فائدة مشاهدة الساحة وحصانك أعرج، وما قيمة معاينة الجسر وثورك مكدود.. أنت أمامك على الأقل خمسة كيلومترات حتى تصل. ومع ذلك، فهذا أحسن مما كنت أتوقعه.. الواحد لابد أن يقول الحقيقة ويذكر الفضل لأصحابه؛ فالفضل لك ولسكينك في تحركنا بهذه السرعة.. لكن أيضاً، لولا ما فعلتُه أنا بفرع الشجرة من تنظيف للجرح، لما كنا وصلنا إلى هذه النتيجة".

مع كل خطوة على الطريق، كانت الشمس تزداد احمراراً، وكان عمال محالج القطن على جانبي الطريق قد خرجوا من وردية العمل وراحوا يمشون على جانبي الطريق، شبانًا وفتيات في ملابسهم المميزة بألوانها الزاهية، يعبق الجو بعطورهم الفواحة، وخصوصاً الفتيات؛ فقد كان شذا

عبيرهن أرق وأحلى من كل عبوات العطور الزجاجية الفوَّاحة.

كان العم دو يغمز لي بعينه قائلاً بصوت خفيض: "ولد يا روهان.. هل بلغ أنفك عطر الفتيات هؤلاء وانتشيت برائحتهن؟"

قلت: "نعم انتشيت حقاً".

قال: "شاب في أوج شبابه، مثلك، يجب أن يتخذ لنفسه واحدة من هؤلاء البنات زوجة له".

قلت: "لن أتزوج، سأعيش حياتي بغير زواج".

قال العم دو: "هل ستعيش هكذا؟ تنظر إلى المتزوجين وتتحسر على نفسك؟ كيف تعيش بدون زواج يا بني! إلا إذا كنت ستعمل لنفسك عملية إخصاء.. هذا موضوع آخر".

فبينما نحن نتكلم في هذا، اقترب منا اثنان من الشباب، ولد وبنت، كانا يمشيان على جانب الطريق؛ اتجه الشاب- بوجهه المليء بالبثور وشعره المجعَّد- ناحية العم دو، وقال له: "إلى أين طريقك، يا عم؟"

أجابه: "إلى الوحدة البيطرية".

سأله: "وما مشكلة هذا الثور الذي معكما؟"

أجابه: "عملنا له عملية إخصاء".

قال الشاب: "إخصاء؟ ولماذا أخصيتموه؟"

قال العم دو: "لأنه يعمل أشياء غير مهذبة".

سأله الشاب: "كيف يعني يعمل أشياء غير مهذبة؟"

قال له: "مثلما تفعل أنت أشياء غير مهذبة، هو أيضًا يفعلها مثلك".

قال الشاب، بغضب: "كيف يا رجل تضعني في مقارنة مع الثور؟"

أجابه قائلاً: "وما المانع أن أقارنك بالثور، هه؟ هل هناك ما يمنع من المقارنة؟ كل الحاجات التي ما بين الأرض والسماء مثل بعضها البعض.. إنسان وحيوان، الكل ابن دنيا، ابن أرض وسماء!"

البنت صاحبة الشاب احمرَّت وجنتاها، وقالت: "تعال يا ماو.. خلاص، تعال نمشي".

كانت البنت رفيعة الحاجب جميلة العينين، رأسها كبير وأسنانها بيضاء، واستدارة وجهها الأبيض واضحة، لم تفارقها عيني، وأخذت أتطلع إليها مشدوهاً.

صاحبها الشاب أقبل يتأمل موضع خصية الثور، وهو يحني رأسه.

"يا للسماء"، صاح الشاب فزعاً، "أنتم بلا رحمة، قلوبكم متحجرة.. تعالي يا "شياو كو"، تعالي انظري بنفسك الهمجية التي لم يتورع عنها

هؤلاء!"

كان الشاب ينادي صاحبته التي دفعت خصلة شعرها إلى الوراء بغضب، ثم واصلت السير في طريقها، فأسرع الولد في إثرها، وأنا أدور بعنقي أتأمل منظر الفتاة التي سارت مع صاحبها عكس اتجاهنا، واستغربت لما رأيته يمشي بجوارها ويضع ذراعه على كتفها. وكان الأغرب حقاً هو أن البنت استسلمت لوضع ذراعه، هكذا، على كتفها.

قال العم دو: "على ماذا تنظر وراءك، التفت إلى الطريق، ولا تضيع وقتك".

التفتُّ إلى الأمام، وأنا في غاية الشعور بالحرج.

قال: "أنت منذ ثوانٍ قلت إنك لن تتزوج أبداً، وأوّل مارأيت فتاة بجانبك تعلَّقت عينك بها، كأنها ملصقة بغراء، يا للعجب!"

قلت: "كنت أتطلع إلى الولد الذي معها".

"دعك من هذا الكلام.. أنا قبلك تعذَّبت في شبابي بكل هذه الأشياء". واصل العم قائلاً: "ثم إن البنت التي رأيتها الساعة، كانت تبدو ساخنة متوهِّجة، تتقلَّى على نار، مثل رغيف مانتو خارج تواً من الفرن الحامي.. تهتز رقصاً وهي ماشية.. منتهى الدلال!"

لحظة أن كان مكبر الصوت في الكومونة يذيع النشيد الوطني، كنا قد

اقتربنا من مقر المحطة البيطرية. فلما انتهى المكبِّر من إذاعة النشيد، راح يواصل فقرات برامج الإذاعة الداخلية، التي تبدأ في السابعة مساءً بأغنية "دونفان هونغ" [الشرق الأحمر]، وبعدها موجز الفقرات، ثم نشرة الأخبار العامة فالداخلية، تتلوها مختارات من أوبرا بكين، وأخيراً جداً النشرة الجوية، والختام بالنشيد الوطني، ثم يأتي صوت المذيع ليقول: "أيها الرفاق من الطبقات الفلاحية تحت المتوسطة والفقيرة، إلى هنا تنتهي برامج الإذاعة الداخلية لهذا اليوم، فإلى اللقاء". وحينئذٍ، تكون الساعة قد بلغت التاسعة والنصف مساءً، بالضبط.. بالضبط تماماً، دون زيادة أو نقصان، ولاحتى بمقدار نصف الدقيقة. لما وصلنا إلى المحطة البيطرية، وصارت وجوهنا قبالة بابها بالضبط، دون زيادة أو نقصان، كان صوت المذيع يحسم الموقف، وهو يقول لنا بجدية مفرطة.. "فإلى اللقاء!". قال العم دو: "الساعة الآن التاسعة والنصف".

تثاءبتُ وقلت له: "كنت دائماً وأنا في البيت، كلما جاء النشيد الوطني في ختام الإذاعة، يغلبني النعاس وأنام على الفور".

قال العم دو: "لكن اليوم.. اليوم بالذات، لا يمكنك النعاس ولا النوم، فلابد أن نبحث عن الرفيق لاو تونغ ليسعف الثور ويحقنه بالدواء، وساعة أن يحقنه يهدأ قلبي وأستريح".

كان الباب الحديدي مغلقاً بإحكام، فنظرت من خلال ثقوبه ولمحت

خزانةً خشبيةً في أحد أركان الساحة الكبيرة الخالية إلا من شيء يشبه البئر، تقريباً، في وسطها، وحواليه خلاء نبتت فيه أعشاب متناثرة، وكلب يتواثب وينبح علينا، بينما الغرف الداخلية معتمة ولا شيء يبين بجوارها، لاحساً ولا حركة.

سألته: "أين نمضي يا عم، بحثاً عن الرفيق لاو تونغ؟"

أجاب قائلاً: "تلقاه في إحدى تلك الغرف.. بالتأكيد".

قلت: "الغرف مظلمة.. لامصباح هناك ولا نور".

قال: "مادام ليس فيها نور، فلابد أنهم ناموا".

قلت: "فماذا نصنع نحن، إذا كانوا قد ناموا؟

قال: "الثور هذا يعتبر من حالات الطوارئ، اطرق الباب يجيئون سريعاً".

قلت: "فماذا لو فزعوا وجاءوا يشتمونني؟"

قال: "مالك تشغل نفسك بكل هذه الأشياء، ثم لاتنس أن الرفيق لاو تونغ جلس وأكل خُصَى الثور حتى شبع؛ فالواجب عليه أن يراعي حق الشدة، ويقوم ليحققنه حالاً".

دققنا على الباب الحديدي، بخفة في أول الأمر، على أمل أن يفتح لنا،

لكن كل دقة كانت تصدر صوتاً مدوياً كأنه ضجيج مدافع. ووثب الكلب من وراء الباب يريد أن يفتك بنا، فكان يقفز عالياً وينبح بشراسة، دون أن تصدر عن الغرف الداخلية نأمة صوت؛ فاشتد طرقنا وجلجل الصوت، والكلب بالداخل يكاد يجن نباحاً، ويثب وينشب مخالبه بالباب يوشك أن ينفذ منه، ولا شيء ينم على أن أحداً يسمعنا بالداخل. فقال العم دو: "كفى إلى هذا الحد، فلو كنا نطلب الأصم، لانتبه من رقاده، حتى وهو ميت".

قلت: "معنى هذا أن الرفيق لاو تونغ غير موجود".

قال العم دو: "هم الموظفون الآكلون بالأجر، حالهم غير حالنا نحن الفلاحين، الواحد منهم يعمل بالساعات الثماني، وبعد ساعات العمل لا تجد منه فائدة، يقول لك انتهت ساعات الدوام، ولا يعيرك انتباهاً".

قلت: "فلماذا نظل نتعب طوال النهار ولا يتعبون مثلنا، وعندما نجيء إليهم لا يسعفوننا؟ ألا يقال بأن الجميع.. «في خدمة الشعب»؟"

"وهل أنت شعب؟ هل أنا شعب؟ أنا وأنت مجرد ناس من خشب.. خيالات مآتة.. خيالات حقول لا تحسب من ضمن الشعب، ولا حتى من ضمن الناس العاديين. فبأي حق تُصنَّف في عداد الناس.. قل لي أنت، بأي حق؟" تنهَّد العم دو عميقاً، "لا عليك من هذا كله، نحن على كل حال أفضل كثيراً من هذا المسكين. آه، يا شوانجين، كنت مرتاح البال في السنة

الماضية، فإذا بك تلقى الهوان في عامنا هذا، على عكس ما حدث للأخوين "روشي"؛ كانا في السنة الفائتة يقاسيان العذاب، فكانت نكبتهما أقل منك هذا العام. السماء حكمها عدل، فلايظن أحد بأن ينعم بالراحة دون شقاء".

تطلَّعت إلى شوانجين وسط عتمة الليل فلم أتبيَّن ملامحه، لكني سمعت لهاثه الكدر الأجش.

أوقد العم دو ولاعته ودار حول الثور، ثم انحنى يتفحص ما بين وركيه، ولسعته وقدة الولاعة فتأوَّه صارخاً وأطفأها، فاستحال المنظر في عيني ظلمة حالكة، وسطعت في صفحة السماء نجومها، وقال العم: "ها هو الورم يخف كثيراً، ولا مانع عندي من أن يبرك على الأرض.. إذا واتته الرغبة".

قلت: "هذا كلام مضبوط، وصدقني ياعم أن حكاية رقاده على الأرض لم تكن لتؤذيه أبداً، عندك مثلاً الأخوان "روشي"، ألم يرقدا على بطنيهما ليلة بطولها، ثم ها هما قد شفيا! فلماذا لاينطبق عليه الحال نفسه؟"

قال العم دو: "معك حق، فاتركه يستريح كيف شاء.. ولنأخذ نحن حقنا من النوم أيضاً".

سكت العم. لكن شوانجين كان يترنح، كمثل جدار متشرخ.. ويتهالك متكوماً فوق الأرض.

(9)

ساعة الفجر، كان ثمة ضربـات كـف متتاليـة فـوق رأسي.. العـم دو يحاول أن يوقظني. قمت مضطرباً أسأله: "ماذا، هـل طلـع النهـار؟" رأيتـه يقول لي: "قُم يا روهان.. قُم بسرعة.. انخرب موقدنا [بيتنا!].. مات الثور..". ما إن سمعت بموت الثور حتى تبددت أثقال النوم من أجفـاني، واعـتراني الخوف وشيءٌ مـن الأسى والتـأثر، فقمـتُ ومـشيت ناحيـة الثـور، وكان الضباب كثيفاً تلك الساعة، رغم أن الوقت كان فجراً، والظلمة تتلوَّى في أعطاف ساعات الليل الأخـير؛ مـددتُ يـدي أتحـسس الثـور، فوجدتـه متجمداً كجليد. أخذت أدفعه برفق، فكان أشبه بكتلة متخـشبة سرت فيها برودة ثلج، لم أصدق أنه نفق، وقلت: "وما علامة مـوت الثـور، هـل تأكدت من موته حقاً؟" أجابني قائلاً: "مات.. أقول لك، مات فعلاً". "هات الولاعة. أعطني إياها لدقائق، وسأتأكد مـن موتـه". أعاد لي الولاعـة، وهـو

يردد: "مات.. بالتأكيد مات". لم أنصت إليه وأشعلت الولاعة، ورفعتها فوق الثور لأتبينه في نورها، فرأيته ممدداً فوق الأرض، أطرافه الأربعة مفرودة على امتدادها ومتصلبة مثل مواسير المدافع، ونظرت في عينيه فإذا هما مفتوحتان بسوادهما وبياضهما، تحدقان فيَّ بثبات، فتراجعت خائفاً وأطفأت الولاعة لائذًا بظلمات فَجر، وسحابة وقت عابر إثر ضباب.

"ما العمل؟ قل لي يا عم، ما العمل إذن؟" سألته، فقال: "ولا أنا أعرف كيف نتصرف.. ليس سوى أن ننتظر قليلاً!"؛ "ننتظر ماذا؟"؛ "طلوع النهار". "وماذا بعد طلوع النهار؟"؛ "نرى ما العمل وقتئذٍ. هو مات وانتهى أمره، فماذا لو بقينا بجواره قليلاً.. تكفيراً عن جرائمنا على الأقل! حتى لو كان عمرنا هو الثمن الذي يستحقه، فهذا حقه علينا". كان العم منفعلاً، وصوته مشحون بالتأثر، قلت: "لكني شاب صغير، يا عم دو.. ولاأريد أن أموت.. لا أريد أن يأخذ روحي معه". قال العم دو: "اطمئن، سأعوضه أنا بحياتي.. ربما كان الدور عليَّ أنا، بدلاً منك هذه المرة". قلت: "أنت، بحق، رجل نادر المثال ياعم دو". وراح يزجرني قائلاً: "اغلق فمك، لا أريد أن أسمع لك حساً، ولا تعد توجع دماغي بعد الآن".

جلسنا أمام المحطة البيطرية، وظهورنا مستندة إلى بوابتها الحديدية الباردة، وسحابات ضباب كثيف تلفحنا بدفقها الأبيض كمثل رقاقات

قطنيــة هائمــة وقــت الــسَّحر، والهــواء قــارس الــبرد، تكــاثف حــولي فانكمشتُ على نفسي، وأسناني تـصطك وجـسمي كلـه يرتجـف. وكلمـا حاولتُ أن أصد نفسي عن النظر إلى جثة الثور، غلبتني عيني وانحرفـت تجاهه، غير أن كتلة الضباب الكثيف كانت قد احتوتـه مثلمـا اشـتملت على أجسادنا، تلك الساعة، فبقيت أتشمم الهواء الذي جاءتني به النسائم بعد ما دارت بجثمانه، ولم يكن هواؤه متكدر الرائحة، بـل ذكَّـرني بعبـق الأجواء أيام كنت ماراً من هنا في مهمة عمل بالكومونة، الشتاء المـاضي.. كانت هي الرائحة ذاتها، والنسيم هو نفسه، كأن لم يتبدل شذاه.

لم تكن الظلمة قد تبددت ولا الضباب انقشع، ومع ذلك فقد بدأت مكبرات الصوت تذيع لحن «دونفان هونغ» [الشرق الأحمر، أغنية وطنيـة في الستينات]. أدركتُ أن الساعة قد بلغت السادسة صباحاً. ثـم انتهـت الأغنية، وبنهاية إذاعتها تطلعت جهة الـشرق، الذي توقعـت أن يكـون محمرًّا بطلوع الشمس، فلم أجد شيئاً من ذلك. لكن مـا هي إلا لحظـات قليلة حـتى أشرق الـصبح مجلـواً بلونـه الأبـيض [البيـاض لـون الفنـاء والموت!]، وتلاشى الضباب رويداً، فقمت واقفاً أبعث في قـدمي النـشاط، وكان العم دو مستنداً بظهره، ما يزال، إلى الباب الحديـدي، وجـسمه كلـه يرتعش رعشة هائلة.. رعشة تردد صداها في كتلة الباب المقفول، سـألته: "خيراً ياعم دو، هل مرضت؟" أجابني قائلاً: "لا.. أبداً، لكن جسمي كلـه مقرور، أشعر أن البرد يتخلل مفاصـلي". تـذكرت على الفـور كلام جـدتي

عندما كانت تقول إن المرء إذا شعر بأن مفاصل جسمه يتخللها البرد، فهذه علامة اقتراب ساعته ودنو أجله، حيث يصبح قريباً جداً من الـ"إينساو ديفو"، مثوى الأموات في الجحيم؛ فما كدت أفكر في أن أقص على العم دو ما تذكرته من أقوال جدتي، حتى رأيته يقوم واقفاً، والرعشة ما تزال تلازم مفاصله.

مشيت وراء العم دو وهو يطوف حول الثور الميت، وقد بدت ملامحه واضحة تحت نور الصبح. ساعة موته لم نسمع له حسًّا، لا أنا ولا العم دو شعرنا به وكأنه، كما قد يُقال، فارق الدنيا في صمت وهدوء. كان مطروحاً على جانبه، والثيران- طوال عمرها- إما تكون واقفة أو مضطجعة، ولم نعهدها تنطرح على الأرض بهذا المنظر قط، إلا وهي نافقة، في الغالب. الثور بهيئته- وهو منقلب على جنبه- بدا وكأنه لا مبال، أو في حالة استرخاء؛ بينما ظهر جسده مكتملاً، كأنه قد زاد عما كان عليه في حياته، حتى بدا للعيان ثوراً وافر اللحم سخي البدن، غير أعجف ولا مهزول.

قال العم دو: "سأبقى هنا بجانبه، فارجع أنت يا روهان إلى البيت، وأبلغ ماليان الخبر".

قلت: "لا أريد الذهاب".

قال: "أنت شاب، وخطوتك أسرع، فهل يُعقل أن أذهب بدلاً منك،

وأنا كما ترى قد انسحقت عظامي وانحطم بدني؟"

وافقته قائلاً: "معك حق فعلاً، وهأنذا أذهب".

ربطت الصُّرة الزرقاء حول خصري، وأسرعت إلى طريق العودة.

ما إن بلغت باب محلج القطن حتى رأيت العم ماليان على الطريق قبالتي، وهو يقود دراجة، وجسده الصلب أشبه ما يكون بتمثال كرتوني، ولاحظت أن المقود يضطرب في يده لعدم مهارته في ركوب الدراجات. لم تكن المسافة بيني وبينه بالقصيرة، ومع ذلك فقد عرفته على الفور، ومن ثم فقد أخذت أنادي عليه بصوت عال. فلما سمعني، حاول أن يميل بالدراجة لينزل عنها، لكن التقدير لم يسعفه فتجاوزني بعدة أمتار. وإذ حاول النزول، سقط أرضاً والدراجة فوقه، فتبعثرت كرامته، لكنه حاول النهوض حتى اعتدل واقفاً، فأسرعت إليه أقول له بصوت أسيف: "مات الثور، يا عماه.." وكان قد وضع مقدم الدراجة بين ساقيه ليضبط مقودها المنحرف قليلاً، وسرعان ما أدركت أن الدراجة تخص السيد "كوهاو شنغ"، أشهر عازب في قريتنا، وهي معروفة بالخيوط البلاستيكية الملونة التي تزينها؛ وذلك لشدة تعلُّق السيد كوهاو بها حيث كان يحبها كعينيه، وما كان له أن يفرِّط فيها ويعيرها بسهولة، إلا لأجل خاطر العم ماليان وحده ولا أحد سواه. ولو قُدِّر للعازب كوهاو أن يرى بعيني رأسه ما حدث لدراجته على يد ماليان وتصرفاته الخرقاء، لوقع صريعاً، أو ربما

طار قلبه في الهواء هلعاً. قلت: "أريد أن أبلغك ياعمي.."؛ ابتدرني قبل أن يسمع مني أي شيء، قائلاً: "لابد أن تعرف جيداً يا روهان، بأنك لو فتحت فمك للسيد كوهاو، وقلت له إن دراجته سقطت وانخلع مقودها.. وهذا الكلام كله، فسوف أخرِّب لك فمك ضرباً بيدي هاتين". قلت له: "مات الثور يا عمي". اضطرب قليلاً وقال: "ماذا؟"؛ قلت: "مات الثور، شوانجين مات..". أخذ العم ماليان يفرك يديه في تأثر، وهو يقول: "أمات حقاً؟ أنا توقعت ذلك أيضاً، وما جئت اليوم إلا لإحساسي بهذا.. تعال معي، اركب على الدراجة من الخلف كي أوصلك إلى هناك". وضع قدمه اليسرى فوق البدَّال واستند باليمنى على الأرض، ودفع الدراجة بكل قوته، فظل يجري بها حتى استقرت في وجهتها واتَّزنت فوق طوقيها، واستحثَّني وقتئذٍ على الصعود خلفه، قائلاً: "هيا يا روهان، اجرِ بسرعة، واقفز فوق المقعد الخلفي". جريت وراء الدراجة السريعة ويدي ممسكة بالقاعدة المعدنية المربعة، وهي شبكة معدنية تعلو الإطار الخلفي للدراجة، ثم قفزت فوقها في وثبة واحدة، فاهتز جسد العم ماليان واختل توازنه، وصاح قائلاً: "انتبه.. وقعنا، وقعنا، وقعنا..". ثم انعطف بالداجة ناحية المصرف الجانبي، فسقط فيه وأنا وراءه.

ارتطم رأس العم ماليان بقالب حجري متهرِّئ، فنزَّ الدم وسال على جانب وجهه، بينما انحشرت بطني في رقبة المقعد، وكاد ينقطع نَفَسي من شدة الارتطام. تحامل العم على نفسه وحاول النهوض، دون أن يسأل عما

جرى لي، ودون حتى أن يعاين مـا جـرى له هـو نفـسه، وإنمـا أسرع على الفور ليسحب دراجة كوهاو شـنغ مـن الوحـل، ويطلـع بهـا إلى جانـب الطريق، حيث راح يتفحَّص ما أصابها، فكانت مليئـة بالوحـل: الكـرسي والمقود وبعض أجزائها علق بها الطين، فخلع بنطاله القـصير وانهمـك في إزالة آثار الوحل العالق بها، ثم أقعى جالساً وهو ممسك بالدراجة المنكوبة، وأخذ يمسح الطين من بـين أجـزاء البـدَّال، لكنـه كان معوجًّـا مـن أثـر الوقوع، ولا يدور بحركته العادية، فتحير ماليان وظهر عليـه القلـق وهـو يقول: "خربت الدراجة.. فسدت تماماً..". قلت: "مات الثور يا عماه.. ثـور وحدتنا الإنتاجية..". أجابني حانقاً: "خلاص.. مـاذا نفعـل يعـني.. على كل حال هذه فرصة لكي يطعم الناس اللحم.. الجـوع لا يـرحم..مـا ظنـك لـو ماتت كل ثيران الوحدة الإنتاجية؟ أليست فرصةً ليمـلأ النـاس بطـونهم، ويعيشوا أياماً هانئة؟" كنت أعرف أن كلمتي لـم تـأت في محلهـا أو وقتهـا الملائم، بالنسبة له، لكن عـدم اكتراثـه لمـا حـدث للثـور، ولامبالاتـه الواضحة، وكلامه بهذه الطريقة أذهلني جداً؛ فإذا كان هـذا هـو موقـف المسئولين في الوحدات الإنتاجية تجاه المواشي والموارد الحيوانية، ففيم كان تعبنا ليل نهار ونحن نسرح بها هنا وهناك؟ ولماذا كنـا نجرهـا طـوال تلـك الطرقات الطويلة، حتى نذهب بها إلى مقر الكومونة الشعبية؟ وقبل هـذا كله، فما الذي أوقع الهلع والرجفة في قلوبنا خوفـاً عليهـا مـن المـوت، في بادئ الأمر؟ عن نفسي، فقد أحـزنني نفـوق شـوانجين، وأوقـع الأسى في

أعماقي، فقد كنت، بحق، أحنو على الثيران، وأحمل لها أطيب المشاعر، بقلب وضمير.

قعد العم ماليان على الأرض، وأمرني أن أرفع الدراجة عالياً، ثم قبض على البدَّال المعوجِّ محاولاً أن يضبطه ليشغِّله من جديد، فشدد قبضته عليه من الناحيتين المتقابلتين، ودفعه ليتوسَّط أسفل عمود الارتكاز، فأمسك العمود بيد، وناحية من البدال باليد الأخرى وأداره، فتحرك إطار العجلة الخلفية بشكل مقبول؛ فرح وقال: "الآن انضبطت قليلاً.. أحسن من الأول بعض الشيء، فلنجرب محاولة ثانية عساها تنعدل تماماً". أشار عليَّ بأن أرفعها لأعلى ثانيةً، وواصل دفع البدال إلى الجانب قليلاً، لكنه تعب وامتلأ صدره لهاثاً: "دراجة بنت قحبة، مُقرفة.. وجه نحس.. أنا عرفت أن النهار هذا شؤم من أوله.. منذ أن رأيت الأرنب البري وأنا خارجٌ من بيتي في الصباح!" قلت له: "شيء غريب!.. أنت تؤمن بالخرافات، مع أنك كادر قيادي تابع للحزب؟" قال: "هل تعتبرني كادراً حزبياً؟ ترى أي كادر بالضبط؟" حدَّق فيَّ بعينه، ثم مشى وهو يدفع الدراجة بجانبه، فبصق على الأرض والتفت يقول لي: "إذا سمعت أنك حكيت للسيد كوهاو عما جرى، فسأشق فمك شقاً!"؛ "لن أتكلم بشيء". وعدتُ أسأله: "وماذا عن الثور؟ ماذا سنفعل بشأنه؟" ابتسم قائلاً: "ماذا سنفعل بشأنه؟.. كل خير طبعاً.. نسلخه ونفرِّق لحمه!"

مع اقترابنا من الوحدة البيطرية، أخذ يـشدد في التنبيـه عـليَّ مـراراً: "اقفل فمك، ولا ترد على مَن يوجه لك كلاماً، أيًّا مَـن كان الـشخص الذي أمامك.. لا ترد على أية أسئلة توجَّه إليك، فاهم؟"

"ما رأيك لو تصنعتُ الخرس؟"

"مضبوط، أنت منذ اللحظة أخرس لا تتكلم".

(10)

ما إن وصل العم ماليان إلى المحطة البيطرية، حتى وضع الدراجة جانباً، وقد بان الصدأ الأحمر في مِقودها، وكأنها قطعة حديدية قديمة ومستهلكة، ثم راح يدور حول الثور، ويقول بلهجة جافة: "هكذا إذن يا عم دو.. أوصيتكما بأن تأخذا الثور للعلاج، فإذا بكما تأخذانه لمثواه الأخير!"

أجابه العم دو بوجه دامع حزين: "يا ريس ماليان، أنت تعرف أن ما لقيناه أنا وروهان، منذ إخصاء الثور، لم يكن ذنباً اقترفناه يستحق كل هذا العذاب، ولم يكن بيدنا أن نمنع الموت عنه".

قلت: "بقينا بجواره أربعة أيام بلياليها، ساهرين لا يغمض لنا جفن".

نهرني العم ماليان: "قلت لك اقفل فمك! واعمل حسابك إذا تدخلت

في الكلام مرةً ثانيةً، فسأصفعك صفعةً تنزل على آذانك كالحجر".

راح ماليان يسأل العم دو: "وماذا قال لك المسئولون في المحطة البيطرية؟"

أجابه: "حتى اللحظة، لم أر أثراً لواحد منهم".

"وهل أنتم أموات؟"، قال العم ماليان، "لماذا لم تنادوا عليهم؟"

قال العم دو: "كدنا نحطم الباب من كثرة الدق عليه، ولا من مجيب، وعندك روهان شاهد على ما أقول".

زممتُ فمي بإحكام شديد؛ لئلا يغلبني لساني فأنطق رغماً عني.

لفَّ العم ماليان سيجارته، وأطبق طرفها بالعرض، ومد طرف لسانه فلعق حافة الطرف، ثم تفل بقايا الورق العالق بلسانه، وقال: "أير الكلب في أدباركم!"

صاح به العم دو: "اسمع يا ريِّس.. أنت لو ذبحتني أو حتى قطعت رأسي، فهذا أهون عندي من أن تسبني هذا السباب الفاحش، وعمري قد شارف السبعين".

قال له: "وهل أنا شتمتك، أو توجَّهتُ إليك بكلام؟.. أنا كنت أشتم الثيران".

قال العم دو: "أنت وشأنك مع الثيران، لكن إياك أن تشتمني".

ثم إن العم ماليان راح ينظر إلى العم دو ملياً، وطوَّح السيجارة تجاهه.

أسرع العم دو فتلقف السيجارة، وأخرج ولاعته فأشعلها، وأقعى يدخن، وقد تكوَّر جسمه مثل قنفذ مذعور، دهمته كوارث مفزعة.

في تلك الساعة، انتهت برامج الإذاعة، وكان الضباب قد انقشع أو كاد، في حين طلعت الشمس. وساعة أن أطلَّت برأسها، بان مرأى الأشياء، وأسفرت المشاهد عن مكنونها أمام أعيننا؛ فإذا بالكومونة الشعبية تتجلَّى مزدهرة بروعة مناظرها. وأمام باب المحطة البيطرية- عبر الطريق الأسفلتي- امتد الفناء العريض الذي يطل عليه مبنى اللجان الثورية للكومونة، وإلى جانبي بوابتها انتصبت لافتتان كبيرتان مكتوبتان بخط أحمر كبير على خلفية بيضاء، إحداهما كُتب عليها "اللجنة الثورية"، والأخرى فوقها ثلاث كلمات "اللجنة الحزبية بالكومونة". وأمام البوابة الكبيرة مباشرةً، شُيِّد حائط مربع مرسوم فوقه قرص الشمس بلون أحمر قان يطل على لجة أمواج خضراء، ومركب أبيض كبير ارتفعت مقدمته عالياً؛ وإلى جانب قرص الشمس الأحمر كُتب بخط مائل، قبيح: "الملاحة وسط البحار الكبرى تقوم على عاتق الربان". إلى يسار البوابة الكبرى للكومونة، كانت توجد جمعية تعاونية، ومقابلها على الناحية اليمني من البوابة كان هناك مطعم كبير، إلى يمينه تقع إدارة الحبوب الزراعية،

ومقابلها- على يسار الجمعية التعاونية- مكتبٌ للبريد، ووراءنا بالطبع كانت تقع المحطة البيطرية، وإلى يسارها المسلخ. أما في الجهة اليمنى، فقد كانت هناك وحدة عسكرية تابعة للكومونة؛ كما كانت هذه البقعة المحيطة بنا تشمل أيضًا كل المقار الإدارية الخاصة بالهيئات الحزبية والتجارية التابعة للكومونة الشعبية. ووسط كل هذه الأبنية، وفي وسط الكومونة بالتمام، انطرح الثور جثةً هامدة. كنت أنظر إلى بوابات الهيئات الإدارية من حولي، فتبدو لي قاتمة خرساء تتواطأ على ابتلاعنا في جوفها، فتملكني الفزع منها، وبلغ مني مبلغاً لم أستطع احتماله، لولا أن وضع العم ماليان أقفالاً على فمي، مهدداً بالويل إذا أفلت لساني أدنى فلتة، فكتمت مشاعري.

سرعان ما تزايدت أعداد الناس في الشارع الأسفلتي، وتصاعدت الأبخرة من مدخنة المطعم، وعلى إثرها امتلأ الجو برائحة المأكولات والمطابخ، وكان أحبها إلى قلبي وأعبقها رائحة: الزلابية المقلية؛ فكنت أشمها وأتخيل منظرها برونقها الذهبي تتقلب في قدر الزيت. ومثلما تستدعي الأفكار بعضها بعضاً، فقد تذكرت شيئاً مهماً.. أليس للعم دو صهران يعملان في مطعم الكومونة؟ زوجا ابنتيه يعملان هنا، أليس كذلك؟ فماذا لو دخل العم إلى المطعم الآن، ألا يحتفيان به ويتكرمان عليه بوجبة عامرة! المشكلة هي أن ما حدث للثور أطار من رأس العم هذه الفكرة، وأطار معها أيضاً ما هو معلوم من أن أربعة آخرين من

أزاوج بناته يعملون في المسلخ، ولابد أنهم سيلقونه بالترحاب إذا قام بزيارتهم، بل سيعملون له خاطراً ويكرموننا، أنا والعم ماليان، ويجلسوننا بجوار حميهم في دعوة إلى وليمة معتبرة، فتشملنا نفحات الكرم. فكنت أتطلع بعين تتقلَّى على نار إلى العم ماليان؛ أريد أن يلتقط الفكرة ويفهمها من تلقاء نفسه، لكن عينيه كانتا غائمتين تائهتين في فراغ، وكان الكلام على فمي.. على طرف فمي، يكاد يندلق إذا ما انفرجت شفتاي. وفي اللحظة نفسها تكلَّم العم ماليان: "هل فكرت، يا عم دو، أن تزور صهريك اللذين يعملان هنا؟"

أجابه قائلاً: "أزور مَن؟ هذان موظفا حكومة، وممنوع تعطيلهما عن العمل".

قال ماليان: "لكل مسئول أقارب، فهل يتجاهل الناس أقاربهم مهما كانت الظروف! اذهب وجرِّب أن تقابلهما، فقد بدأ الشغل، والطعام يقدم إلى الزبائن.. انتهز الفرصة، واذهب الآن".

قال: "الموت جوعاً أكرم من أن أتسول طعامي هكذا".

قال له العم ماليان: "يا عم دو.. أنا فاهم جيداً أسلوب تفكيرك الضيق.. فإذا كنتَ خائفاً من ذهابي أنا والولد روهان معك، فأنت مخطئ.. نحن لن نذهب معك، اطمئن".

تقلَّصت شفتا العم دو، حتى بدا كأنه على وشك البكاء، وسكت طويلاً

ثم قال: "ليتك ما قلت هذا يا ريس ماليان.. أنت تسيء الظن بي وتظلمني بكلامك هذا".

"كنت أمازحك يا رجل.. مالك يا عم دو، تأخذ المزاح مأخذ الجد دائماً!". راح العم ماليان يقهقه، وفي ضحكته شيء من الشعور بالحرج، ثم توقف فجأةً، وقال بكل جدية: "الرفيق لاو تونغ وصل".

من الطريق الأسفلتي، جاء الرفيق لاوتونغ راكباً دراجته.. جاء كما يجيء الساعون بالبغضاء. لما رآنا أسرع حتى وصل أمام الثور مباشرة، فترجَّل وقال: "أنت هنا يا ريس؟" ثم تطلَّع ناحيتنا أنا والعم دو قائلاً: "وأنتما أيضًا؟" ثم نظر ملياً إلى الثور، وقال: "كيف حدث هذا؟".

ثم أقعى مكانه وأخذ يفتح جفن الثور النافق، وسحب يده فتراجع إلى الوراء قليلاً ليفحص الجرح جيداً. ويبدو أنه لم يتمكن من رؤيته بوضوح، فخلع النظارة ومسحها في بنطاله، ثم لبسها ثانيةً ليعاود الفحص بدقة، حتى كادت أرنبة أنفه تلمس جلد الثور، ثم مد إصبعه ووخز الجلد المتاخم للجرح وتنهَّد بعمق، فامتلأ وجهه بسيماء شقاء، وقال: "لماذا لم تبكروا بالحضور إليَّ؟"

قال ماليان: "جئنا إلى هنا ليلة أمس. ودققنا على الباب حتى تعبت أيدينا".

خفَّض الرفيق لاو تونغ صوته قائلاً: "أرجوك.. يا ريس.. إذا سألكم

أحد عما حدث، فقولوا بأني أنقذته طيلة ليلة كاملة، إلا أنه نفـق بـسبب تدهور حالته بشكل مفاجئ".

قال ماليان: "إذن، فأنت تطلب منا أن نكذب!"

قال الرفيق لاو تونغ: "خدمة لأجل خاطري".

اتجه إلينا العم ماليان، بصوت خفيض قـال: "سـمعتم بوضـوح طبعًـا! كلنا سمعنا، وسنتكلم كما أوصانا الرفيق لاو تونغ".

قال لاو تونغ: "لكم جزيل الشكر، والآن سأسـتخرج لكـم شـهادة نفوق ثور".

(11)

راح العم ماليان يوصي العم دو بأن يفتح عينيه جيداً على جثة الثـور. وطبعاً لم يفته أن يوصيه بأن ينتبه إلى دراجة الـسيد كوهـاو شـنغ.. افـتح عينيك جيداً، الثور لا أحد يريده، سواء وهو ميت جيفـة، أو حـتى وهـو ماش على رجليه.. لكن الدراجة يمكن أن يسرقوها بسهولة.. بل أحيانـاً يسلبونها منك غصباً، الدنيا مليئة بحاجات كثيرة مثل هذه. ثـم أشـار لي بأن أتبعه، وكانت بيده شهادة إثبات نفوق الثور. فدخلنا حوش الكومونـة الواسع.

كانت أول مرة تخطو فيها قدمي فـوق حـوش الكومونـة. مـشينا، وعلى الجانبين قامت أشجار الــ"دونـشين" [شـجر البلـوط الـصيني الأخـضر] ووراءها صفوف متراصة من البيوت المشيدة بالطوب الأحمر، فرأيت قدام بعض البيوت العاليـة أشـجار الحَـوْر الأبـيض، وعلى الحيطـان شـعارات

مكتوبة بحروف كبيرة. أشياء كثيرة من هذا القبيل، أشياء حفزتني وأشياء أخرى عذَّبتني وحاجات كثيرة أثارت انفعالي وحاجات أحزنتني وربما أثارت خوفي، فشعرت كأني لص، كأني جاسوس متهم بالعمالة؛ فارتعد قلبي وأخذتني الرجفة، وأصبحتُ أتلفَّت في كل اتجاه، وأفرش عيني على الجدران بالطول والعرض. وكان العم ماليان يقول لي بشبه الهمس: "خفِّض رأسك وأنت ماش.. لاتتلفت هكذا!"

تقدم العم ماليان إلى عامل نظافة يمارس عمله- بكبرياء وزهو وشموخ يليق بالطبقة العاملة- في تنظيف الشوارع، وسأله عن مكتب السيد المدير "سون" المسئول عن الثيران. وكان الرفيق لاو تونغ قد أخبرنا قبلها بأن كل مايتعلَّق بشئون الثيران، سواء في نفوقها أو إصاباتها أو مرضها، يقع تحت إشراف هذا المدعو سون، فتعجَّبت كيف يتولى رجل وحده كل هذه السلطات التي بغير حدود. إن إجمالي عدد الثيران والأبقار والعجول في الكومونة الشعبية بكاملها قد يتجاوز الألف رأس، تقريبًا. فإذا رصصناها في طابور واحد، فسيبلغ طوله المدى، وإذا صرفناها عن وقفة الطابور لتسير فرادى، فلن تسعها الدروب؛ وربما غص بها الطريق الكبير نفسه؛ فكيف لكل هذا العدد الهائل من المواشي أن يتدبر أمره رجل واحد فقط!.. لابد أنه سيختنق تحت وطأة هذا الفيض الثيراني الحاشد. وقتها فكرت وقلت لنفسي إنني لو كان لي القيام على أمر نصف هذا العدد من ثيران الكومونة، لانشرح صدري وامتلأ قلبي سعادة.

في أعقاب العم ماليان، كنت أمشي محاذراً، حتى دخلنا مكتب السيد المدير سون.. رجل ضخم برأس صلعاء.. مِن دون أن نسأل، عرفنا أنه هـو سيادة المحترم سون. كان يخلل أسنانه بعود كبريت في يـده اليـسرى، أمـا اليد اليمنى فكانت تعتصر ما بين الوسطى والسبابة عقب سيجارة، عرفت أنها من ماركة "فنغ شو"؛ فقد لاحظـتُ أن المنـضدة أمامـه عليهـا عبـوة كبيرة مفتوحة، بداخلها سـجائر فنـغ شـو، وهي ماركـة لا تُـوزع إلا على الكوادر الحزبية فقط، ولا يمكن للمدخنين مـن أبنـاء الـشعب العثـور عليها في الأسواق، وبالطبع فقد كانت سجائر ذات نكهـة ممتـازة. كانـت السيجارة من ماركة فنغ شو تحترق ببطء وتزحف نارها حتى تكاد تبلـغ ما بين إصبعي الرجل، فتمنيتُ أن يطوحها بعيداً، ثـم أدركـت أني الآن، في موقفي هذا، لن أتمكن من التقاطها إذا رماها، وإلا فإن أيـة محاولـة مـن جانبي لالتقاطها تعني أني سأنال علقة حامية على يد عمي ماليان. ها أنـا ذا تثبت الظروف أني على قدر هائل من العزم والإرادة، بحيـث أقـدر- في اللحظة العصيبة- أن أملك زمام نفسي وترويض نزعاتي. انحـنى ماليـان واستفسر في أدب جم: "أظن أن جنابك حضرة المدير هنا؟"

سرت همهمة من الرجل، أمكن الأخذ بها باعتبارها إجابة شافية.

- أسرع العم إليه، وقدم له شهادة نفوق الثور التي حررها لنا الرفيـق لاو تونغ، قائلاً له: "هذه شهادة موت ثور في وحدتنا الإنتاجية..".

استلم المدير سون منه الشهادة، وألقى عليها نظرة، ثم سأله: "ما اسم قريتكم؟"

أجابه قائلاً: "قرية تاي بينغ".

سأله المدير: "ما هو المرض سبب الوفاة؟"

ردَّ عليه العم قائلاً: "كان الرفيق لاو تونغ قد أخبرنا أنه مرض شديد العدوى".

همهم المدير ثانيةً، وراح ينظر في الشهادة من جديد، قال: "ما الذي دهاكم؟ ألا تعرفون أن الثيران تعتبر ضمن موارد الإنتاج؟"

قال العم ماليان: "طبعاً.. طبعاً نعرف، الثيران ضمن موارد الإنتاج الاشتراكية، وهي عصب حياة الطبقات تحت المتوسطة والفقيرة من الفلاحين!"

قال المدير سون: "فكيف تعرضونها للعدوى، وأنتم تعرفون هذا الكلام؟"

قال ماليان: "أخطأنا، ولابد أن نقوم بتطهير المزارع حال عودتنا، ونسارع بتفادي تكرارها، وتقويم كل الأخطاء. وأضمن لسيادتكم ألا يتكرر هذا الأمر الذي يشمت بنا الأعداء، ويوهن عزيمة الطبقات الفلاحية تحت المتوسطة والفقيرة..".

"ما هي العناصر العاملة بالمزارع؟"

"كلهم من فقراء الفلاحين.. حتى الجد الثامن، كانوا من الشحاذين طوال عمرهم!"

سرت همهمة أخرى من السيد المدير، وأخرج قلم حبر من جيبه. ولما أراد أن يكتب شيئاً على الشهادة، اكتشف أن القلم خال من الحبر، فراح ينتر القلم ويهزه ليتمدد الحبر بداخله، دون فائدة؛ فكرر محاولة إسالة الحبر من القلم، لكن بغير جدوى، فقام واقفاً، ومد يده إلى حافة الشباك الداخلية، فتناول منها دواة حبر ونفخ الغبار المترسِّب فوق غطائها، ففتحها ودفع فيها سن القلم ليمتص سائل الكتابة. وأثناء ذلك، بدا له أن يسأل العم ماليان، بشكل عابر جداً: "قلت لي أين الثور الآن؟"

لم يجبه العم ماليان بشيء. فظننت أن عمي لم يسمع سؤال سيادة المدير سون، فتطوَّعتُ بالإجابة بدلاً منه: "الثور الآن ملقى أمام باب المحطة البيطرية، بالضبط".

قطَّب المدير حاجبه الغليظ بشعره المتراكم الكث، وألقى المحبرة والقلم من يده، في وقت واحد، وصرخ قائلاً: "مرض شديد العدوى، هنا!.. هذا إهمال شديد.. تعال، امش معي، أرني أين هو".

قال العم ماليان: "لا تتعب نفسك يا سيادة المدير، تفضل أنت، وسنسحبه من هنا فوراً".

بصرامة شديدة راح المدير يقول: "ماذا تقصدون بهذا الكلام؟ العمل الثوري يلزمه الجد والانضباط! تعال، امش معي!"

بينما كان المدير يغلق المكتب بالمفتاح، ألقى عليَّ العم ماليان نظرة تتقد شرراً.

حول الثور، كانت جمهرة من الواقفين تدور وتتأمله، وهو منطرح أرضاً، فجاء المدير وباعد بينهم ثم تقدم، وراح يفحص عين الثور الميت، وانتقل إلى الفم، وكشف عن الشفتين وهو يقلبهما بيده، وأخيراً ألقى نظرة على موضع خصيتيه المنتزعتين، وقام واقفاً وهو ينفض يديه، كأنه يزيل ما علق بهما من أوضار. وفي تلك اللحظة، تطلعت إليه أبصار الواقفين تطلعها إلى طبيب انتهى تواً من فحص عزيز لديهم، ينتظرون نتيجة الكشف وروشتة العلاج؛ إلا أن سيادة المدير سون انفجر صارخاً في الجميع: "فيم وقوفكم هنا.. على ماذا تتفرجون؟ ما الذي يعجبكم في مشاهدة ثور ميِّت؟ هيا، ليذهب كلٌّ إلى حاله.. وخذوا حذركم لأن الثور يحمل العدوى بمرض الطاعون، اهربوا بجلدكم، ألا تخافون العدوى؟"

ما إن سمع الناس كلمة عدوى الطاعون، حتى تفرقوا من ساعتهم.

صاح المدير بأعلى صوته: "لاو تونغ.. تعال بسرعة!"

جاء لاو تونغ يجري، ثم وقف أمام السيد المدير، ممتثلاً بعد انحناءة، ويداه إلى جانبه، قال: "أوامرك، يا سيادة المدير!"

أشاح السيد سون بيده، وعلى وجهه عقدة الغضب، قال: "كيف تترك الحالة هنا، وهي مصابة بالعدوى؟ ألا تخشون انتشار العدوى بين الرائحين والغادين هنا؟ اسمع يارفيق.. لابد أن تعرفوا أنكم وقعتم في إهمال جسيم، وإذا تفشت العدوى بين الأهالي، فستنجم عن ذلك كوارث تصيب الكومونة بخسائر فادحة! وحتى لو كانت الخسائر الاقتصادية ممكنة التعويض، فالخسائر السياسية لايمكن تعويضها بحال، هل تفهم هذا، أم أشرحه لك بطريقة أخرى؟!"

راح الرفيق لاو تونغ يمسح بيديه على بنطاله، قائلاً: "نحن السبب في هذا التقصير.. نحن أغفلنا الواجب، لابد أن نقوم بنقد ذاتي.. لابد من المراجعة والنقد الذاتي..".

صاح به سيادةِ المدير قائلاً: "كل مرة تقول: نقد ذاتي.. نقد ذاتي، لكنه نقد بالكلام فقط، وليس بالفعل. أهم شيء النقد العملي، هيا بسرعة.. ارفع جثة الثور إلى المسلخ، واعمل تشريحاً فورياً، وخذ عيِّنة إلى المعمل، ثم قم بتطهيرها جيداً، وأدخلها الفرن العالي لتحويلها إلى سماد!"

ثار العمماليان، وهو يحول بينهم وبين الثور قائلاً: "يا حضرة المدير.. أحب أن أخبر سيادتك بشيء مهم جداً.. هذا الثور ليست مشكلته في العدوى، بل في أننا أجرينا له عملية إخصاء".

في تلك اللحظة، شحب وجه الرفيق لاو تونغ.

أشار العم ماليان ناحيتي، أنا والعم دو قائلاً: "اسأل هذين الاثنين، إن لم تكن تصدقني".

تطلَّع المدير ناحية الرفيق لاو تونغ، وسأله: "ماحقيقة الأمر بالضبط؟"

ارتبك الرفيق لاو تونغ وهو يقول للمدير، متلعثماً: "الأمر بالضبط.. صحيح أن الثور أجريت له عملية إخصاء.. صحيح، لكن.. لكن حدث أن الجرح تلوَّث، وأصيب بميكروب شديد العدوى..".

أشاح المدير بيده، قائلاً: "لابد الآن من العزل الفوري، والتشريح، ثم تحليل العينة والتطهير".

قال له العم ماليان: "سيادة المدير سون، أرجوك اسمعني.. أرجوك اسمح لنا بالعودة به عندنا، على مسئوليتنا..".

انفجر المدير غاضباً: "تعود به عندك.. كيف ولماذا؟ هل تريد أن تنشر العدوى بين مواشي وحدتكم الإنتاجية؟ هل تريد أن تتفشى المصيبة بين أبقار وثيران الكومونة؟ ما اسمك؟ قل لي بسرعة ما اسمك وما بياناتك الرسمية؟"

اصفرَّ وجه العم ماليان وارتعشت شفتاه، فيما انعقد لسانه مائة عقدة.

(12)

بعد ثلاثة أيام مـن نفـوق الثـور، أي في الأول مـن مـايو سـنة ألـف وتسعمائة وسبعين، وقعت في الكومونة حادثة مذهلة: تسمم ثلاثمائة فرد إثر تناولهم الطعام، وكانت أعراض التسمم واحدة في كل الحالات: سخونة وقيء مصحوب بإسهال. كان المصابون بالتسمم- في معظمهم- من كوادر الكومونة، وموظفي الحكومة وذويهم، ممن تُصرف لهم حصص أغذيـة مـن مخازن الحبوب العامة. وقد أثار الحادث- في أول الأمـر- لجنـة المحافظـة، ثم امتد أثره ليشمل اللجان الحزبية على مستوى القطاعات، بـل قيـل إن الخبر بلغـت أصـداؤه اللجنـة المركزيـة نفـسها. وأسرعـت مسـتـشفيات المحافظة بإرسال سيارات إسعاف، فيما جاءنا أطباء القطـاعات بالقطـار؛ أما اللجنة المركزية فلم ترسل أطباء، بل أرسلت طـائرة هليكـوبتر مليئـة بالأدوية وإسعافات حالات الطوارئ. ولما كان مـن الـصعب على عيـادات

الكومونات الصغيرة أن تتسع لعدد المصابين المتزايـد، فقـد صـدر قـرار بتعطيل الدراسة في المدارس الإعداديـة، لـكي تُـضم المناضـد إلى بعـضها البعض، فيتخذ منها المرضى أسرَّة مؤقتة، خاصـة وقـد تحولـت الفـصول نفسها إلى عنابر تمريض. وتصادف- في تلـك الأيـام- أن كانـت الوحـدة رقم 6037 التابعة لجيش التحرير تقوم بتـدريب ميـداني بـالقرب مـن منطقتنا، فاشترك أطباؤها، بكامل أطقمهـم، في عمليـات الإنقـاذ. وقـد شهد كثير من المرضى بأن مـستوى المهـارة الطبيـة- لدى أطبـاء جـيش التحرير- كان الأرفع بامتياز، وأن طاقم التمريض بقوامه من الممرضـات الشابات، كان يجيد تماماً كيفيـة وخـز الإبـر، مـن المحاولـة الأولى، دون حاجة إلى عمليات تنقيب في سواعد المرضى بحثاً عن أوردة مخبوءة؛ ذلـك أنك كنت تسلم ذراعك لأطبائنا في عيـادات الكومونـة، فيخـزون إبـرة الحقن في ساعدك كمحاولـة أولى لا ينـتج عنهـا انبثـاق الدم، فيخزونهـا ثانيةً، ثم لا ينبثق الدم ثانيةً، فـوخزة أخـرى، وأخـرى.. وأخريـات، حـتى تصبح ذراعك شلال دماء، ويسيل العرق مدراراً من الجباه، وتظل عملية الوخز جارية حتى تصادف القطة العمياء فأرها الميت!

لم يكن يخطر بمخيلتنا، في ذلك الوقت، أن يكون التسمم ناتجاً عن تناول الطعام؛ فمنذ أن قام أسلافنا، في بدء الزمان، بتمهيد الأرض وتأمـل السماء، مروراً بعصور الأباطرة الثلاثة والملوك الخمسة.. أي منـذ أزمـان سحيقة وعصور غابرة، لم نسمع قط بأن الطعام يمكن أن يـصيب المـرء

بالتسمم؛ وهكذا فقد قامت لجنة الكومونة برفع تقريرها إلى اللجنة الثورية بالمحافظة، تتهم فيه الطبقات المعادية بتسميم آبار المياه.. أو، تسميم الدقيق نفسه. وغالباً، فقد كان هذا هو التقرير نفسه الذي خاطبت به لجنة المحافظة المسئولين في لجنة القطاع. والموضوع من أوله، أي منذ بدايته الأولى، كان محاطاً بالغموض مثيراً للتساؤلات؛ ومن ثم فقد انصبت جهود القادة على نقطتين بالترتيب: أولاهما قضية خاسرة، وثانيتهما تتعلَّق بجهود الإنقاذ. وحسب التحليلات التي توصلنا إليها، وقتئذٍ، فقد جرى الافتراض بأن القائم بتسريب السم إلى الأطعمة لا يخرج عن أحد احتمالين: إما عميل موفد من قبل الكومينتانغ في تايوان، وإما عنصر معاد للطبقات مندس وسط الجماهير. وأُبلغ مقر قيادة الطوارئ، المشكَّل عقب تفاقم الحالات، بأنه تم العثور ليلاً على ثلاث طلقات إشارة، كما جاء بلاغ من أحد الأشخاص باكتشاف محطة لاسلكية معادية. وكان أعضاء قيادة الطوارئ كلهم من مسئولي المحافظة، بالإضافة إلى عدد من قيادات الكومونات الأخرى. ولم تتمكن قيادة الكومونة عندنا من متابعة الموقف؛ لأن أعضاءها جميعاً كانوا من بين المصابين بالتسمم الحاد. وظلت مكبرات الصوت تذيع البيانات بغير انقطاع، في محاولة لرفع درجة الانتباه القصوى لدى الطبقات الفلاحية الفقيرة وتحت المتوسطة، درءاً لأية أنشطة تخريبية معادية؛ حتى أن كل الكومونات قامت بالتحفظ على ماسُمي بـ"العناصر الأربعة" [ملاك

الأراضي، الفلاحون الميسورون، الثورة المضادة، المتهمون بالفساد]، وراحت تراقبهم، حتى في ترددهم على دورات المياه. وشاعت طوابير التفتيش والتحقق من الهوية، والتحقيق مع العناصر الأربعة لاستخلاص الاعترافات. وكان التعدِّي بالضرب يسحق أجساد ضحاياه.. أشلاء في بقاع، وصرخات في ضمير. وسرعان ما تم التنسيق مع وحدات جيش التحرير لإحكام السيطرة حول منافذ الوصول إلى الكومونات، فتقرر تعيين حراسات مشددة على مداخل الطرق الرئيسية، حيث تولى الحراسة في بعضها، أبطالُ حرب مشهود لهم بالشجاعة، بينما تناوبتها دوريات للدراجات البخارية الليلية. وحدث أن توغَّلت إحدى هذه الدوريات الليلية الراكبة إلى منطقة بعيدة في قريتنا، فكان الفلاحون البسطاء يقفون قبالتها فاغري الأفواه؛ إذ لم يسبق في حياتهم أن شاهدوا بأعينهم أشياء تمرق سريعاً على عجلات، يرونها في البعد أضواء قادمة، وقبل أن يتحققوا من شكلها، تكون الأضواء البعيدة قد تحولت إلى دمدمات هائلة في آذانهم، ثم تصبح قُدامهم قبل أن يعرفوا وجهتها. وساعة أن تمرق والعيون شاخصة، تكون قد تخطتهم بمسافات، فيتبعونها وقد ولت الأدبار، تتواثب فوق أطراف الدخان، أشباحاً تزمجر تحت هدأة ليل.

دام العذاب أياماً، فلا عملاء سقطوا، ولا أعداء ظهروا للعيان؛ وكان معظم المرضى قد تعافوا وعادوا إلى ذويهم. وأخيراً جداً، وبفضل جهود قسم مكافحة الأوبئة- التابع للإدارة الصحية بالقطاع- أمكن التوصل

إلى نوع الغذاء الذي تسبب في إصابة ثلاثمائة فرد بالتسمم: وجبة كاملة من لحم شوانجين. قالوا إن لحم ثورنا المخصي شوانجين ومعدته كانا يحتويان على بكتيريا "السلمونيلا"، وهي نوع من البكتيريا المسببة للتسمم، وتبقى محتفظة بحيويتها تتقافز وتتنطط، حتى وهي تحت الثلاثة آلاف درجة مئوية؛ وإذا ما تعرضت للغليان في قدر الطهي، فيمكنها التمتع بصحة وعافية تامة مدة ثلاث سنوات، لا يفنيها الموت؛ فيطول بقاؤها، والقدر يغلي والنار متقدة.

بعد العثور على السبب، بكتيريا السلمونيلا، أصبحت قضية الصراع الطبقي تنحصر في ملابسات حادث إهمال جسيم للمسئولية؛ حيث وفد إلى قريتنا اثنان من أعضاء فريق التحقيق في حادث التسمم، الذي تم تشكيله من جانب اللجنة الثورية بالكومونة الشعبية، وتم استدعاؤنا: أنا، والعم دو، والعم ماليان، للمثول في مكتب التحقيقات التابع لفرق الإنتاج. وجرت وقائع التحقيق.. واحدٌ يوجه الأسئلة، والثاني يقوم بالتدوين. لم يكن لي أن أفتح فمي بكلمة، حتى لو ذبحوني ذبحاً، فلما حوصرت بالأسئلة انفجرت باكياً. وإذ جاء الدور على العم دو، فقد تشوشت كلماته وتقطَّعت عباراته، وادَّعى البلاهة. وبقي على العم ماليان أن يفصح عن كل شيء، فقرر في مبتدأ كلامه أن الرفيق لاو تونغ تعمد- وهو يجري العملية للثور شوانجين- أن يقطع أحد الشرايين الرئيسية. وأضاف إلى ذلك قوله إن المذكور تباطأ في حقن الثور؛ إذ قد بيَّت النية

سلفاً مع المدعو سون، ويعمل مـديراً عامـاً بالكومونـة، على التواطـؤ على إتلاف صحة الثور، بما يؤدي إلى نفوقه؛ وذلك لما قد عقـدا عليـه العـزم من الاستيلاء على لحمه والتهامه خلال احتفالات الأول من مايو؛ لكـن عين السماء الساهرة كانت لهما بالمرصـاد.. هكـذا قـال العـم ماليـان في أقواله.

لم نعرف بالضبط ما الذي أبلغه المحققان للجهـات المـسئولة، إلا أن النتائج التي أسفرت عنها التحقيقات لمسناها ورأيناها رأي العين.

وقعت المسئولية كاملةً على رابع أصهار العم دو.. "سونغو لوين"، كبـير الجزارين بمسلخ الكومونة؛ لمخالفته الأوامر الصريحة الـصادرة إليـه مـن السيد المـدير سـون؛ إذ قـام ببيـع اللحـم الموبـوء إلى قيـادات الكومونـة وموظفيها، مما تسبب في وقوع الحادث المؤسـف. وبـالرغم مـن أن المـتهم نفسه قد أصيب كغيره بالتسمم إثر تناوله لحم الثور، بل كان نـصيبه مـن الإصابة فادحاً، فقد تقـرر توقيـع العقوبـة عليـه بالفـصل مـن وظيفتـه كرئيس للقصابين، وإخضاعه للمراقبة الحزبية مدة سنة من تاريخه.

وبفضل الأنوار المجيدة الباهرة لأفكار الرئيس ماو تسي تونغ الظافرة، واعترافاً بالمساندة الإيثارية التي قدمها جيش التحرير الـشعبي، وتحـت القيادة السديدة لكل لجان الكومونة الثورية على مستوى القطاع والإقليم والمحافظة، وفي ظل الجهود المشتركة مـن جانـب كل العـاملين بالهيئـات

الطبية، لم ينجم حادث التسمم الذي طال ثلاثمائة وثمانية مـصابين، إلا عن وفاة فرد واحد فقط (مات مريـضاً بالقلـب)؛ ومـن ثـم فقـد تحقـق الانتصار العظيم لـ"الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى"؛ إذ لو وقـع مثـل هذا الحادث في المجتمع البائد البغيض، لما بقي حي يرزق من بين المصابين جميعاً. ثم إن موت فرد واحد من بيننا، في الحقيقة، لايعني أن أحداً مـات بالمرة، وهو على كل حال قد مات مريضاً بالقلب، وهذه ميتة قضاء القدر.

والمتوفى مريضاً بالقلب، أي الميِّت بحكم قـضاء القـدر، هـو الـصهر الرابع من أصهار العم دو، الجزار بمطعم ومسلخ الكومونة، المدعو سونغو لوين.

اجتمعت كلمة الفلاحين في القرية على أن المذكور، في الواقع وبـشهادة حق، توفي متخماً إثر وجبة عامرة من لحم ثور.

(تـــمــت)

انتهت الترجمة في يناير 2013

محـــسن فـرجـاني

المؤلف: مُو يَـان

ولد بقرية "كاومي" بمقاطعـة شـاندونغ، شـمال شرق الـصين، في 17 فبرايـر 1955. لم يكمل تعليمه، ليلتحق بالعمل في مصنع للزيوت، ثـم بـالجيش، وهو في سن العشرين، حيث بدأ أول محاولات الكتابة الروائية أثناء الخدمـة العسكرية. لكن أول محاولاتـه الإبداعيـة الجـادة بـدأت في 1981. وقـد أكمل دراساته المتخصصة إلى أن حصل- عام 1991- على درجة الماجـستير في الأدب، من جامعة بكين.

من أهم أعماله: **"الذرة الرفيعة الحمراء"** (1987)، **"أناشـيد الثـوم"** (1988)، **"الانفجار وقـصص أخـرى"** (مجموعـة قـصص قـصيرة)، **"جمهوريـة الخمـر"** (1992)، **"أثداء ممتلئة وأرداف عريضة"** (1996)، **"مكابدة الحيـاة والمـوت"**. مُنح جائزة نوبل للآداب (2012).

المترجم: محسن فرجاني

مدرس بقسم اللغة الصينية، كلية الألسن، جامعة عين شـمس؛ دكتـوراه في اللغة الصينية. من أعماله المترجمـة عـن الـصينية **"حـوارات كونفوشـيوس"**، كتاب **"الطـاو"** (لاو تـسي)، **"منـشيوس"**، **"العلـم الكبـير"**، **"رسـالة المـذهب الأوسط"**، **"فن الحرب عند سونبين"**، **"ليتزو"**، وله تحت الطبع **"مختـارات مـن شعر "تشيو يوان"** (قصيدة "ليساو" وأشعار أخرى).

سلسلة
آفاق
عالمية

هي الترجمة العربية الأولى لرواية «الثور»، للروائي الصيني مُو يَان (نوبل 2012)، التي كانت أحد مراجع محاضرته لدى تسلمه الجائزة الشهيرة. رواية تدفعنا إلى اكتشاف عالم آخر وأفق مغاير. ونهج روائي فريد، ينطوي على خيط خفي من سخرية سوداء مريرة، فيما «يمزج الحكايات الشعبية بالتاريخ وبما هو معاصر من خلال واقعية هذيانية»، حسبما رصدت لجنة جائزة نوبل.

وترجمة رفيعة المقام، أنجزها -عن الصينية- الدكتور محسن فرجاني، الذي سبق أن قدم إلى المكتبة العربية «حوارات كونفوشيوس»، كتاب «الطاو» (لاو تسي)، «منشيوس»، «العلم الكبير»، «رسالة المذهب الأوسط»، «فن الحرب عند سونبين»، «ليتزو».

تصميم الغلاف: أحمد اللباد

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

السعر: ثلاثة جنيهات